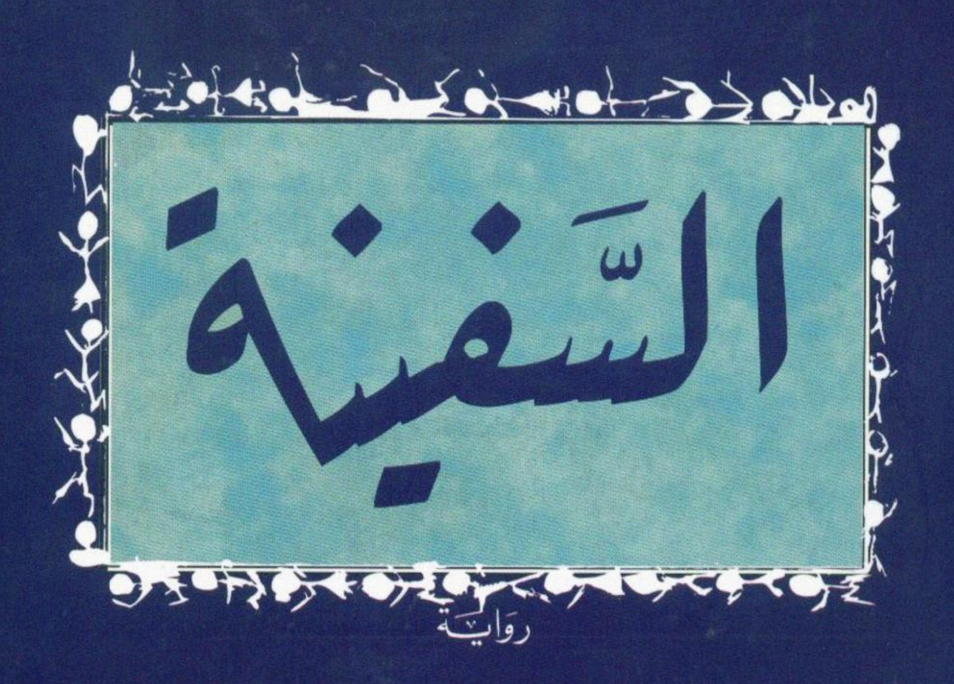
جبرا إبراهيم جبرا



رواية

دار الآداب

السفينة

براهيم جبرا/مؤلف فلسطيني

طبعة الخامسة عام 2008

ISBN 978-9953-89-01؛

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

الى

الذين لولا حبهم

لما كانت هذه السفينة

الشخصيات والاسماء في هذه الرواية من خلق الخيال .
فاذا وجد اي شبه بينها وبين اناس حقيقيين او اسمائهم ،
فلن يكون ذلك الا من محض الصدفة ، وخالياً من كل قصد .

عصام السلمان

البحر جسر الخلاص . البحر الطري الناعم ، الأشيب ، العطوف . وقد عاد البحر اليوم إلى العنفوان . لطم موجه ايقاع عنيف للعصارة التي تقذف في وجه السماء بالزهر والشفاه العريضة والاذرع الممتدة كالشراك اللذيذة . البحر خلاص جديد . إلى الغرب ! إلى جزر العقيق ! إلى الشاطىء الذي انبثقت عليه ربة الحب من زبد البحر ونفث النسيم . وما كنت لأعرف أن (اكاد لا استطيع ان اقولها) ان لمى ، لمى نفسها ، لمى المسكينة ، لمى الباكية بعض الليالي ، الغادرة باهلها من اجلي ، الضاحكة ، الراكضة على عيني ، لمى ستكون ايضاً هنا . في هذه السفينة ، حمولتها عشرة آلاف طن ، يونانية ، تباهي الافق بمدخنتين كبيرتين ، وهي تحوك شبكتها ثم تنقضها بين بيروت والاسكندرية واراكليون وبيريوس ونابولي وجنوى ومرسيليا . لعبة خطرة ! فأنا هنا للهرب . أنا هنا لاسباب كثيرة ، اهمها انني لم استطع ان اجعل من لمى بحري وزورقي ومغامرتي . لمى لم تكن لي .

الا ساعات قلائل . ساعات اعرفها كلها دقيقة دقيقة ، قبلة قبلة . ولما فككت ازرار قميصها ، زرا زراً ، في عتمة ذلك البيت الذي أعارني اياه صديقي ليوم واحد — اعرف تفاصيل ذلك كأغنية من اغاني الراديو . طعم شفتيها ما زال على شفتيّ ، اتحسسه احياناً بلساني ، أخشى تلاشيه مع الايام . كان الذي بيني وبين لمى حباً لا تعينه الألفاظ ، ولا اللمسات ، ولا العقل . ضرباً من الكينونة واللاكينونة . أشبه بأن تقول لي عينان في رأسي ، ولي انف ولي فم — ولكنني لا أرى ، ولا أشم ، ولا اتكلم . ولمى ، ها هي لمى ، مع البحر ، مع بيروت ، مع حزيران ، مع ركاب الدرجة الثانية ، مع زوجها . واذا كانت مع زوجها ، فما نفع البحر وبيروت وحزيران وكل هؤلاء الركاب المرحين الصاخبين ؟

كانت هناك فتاة ايطالية عائدة من لبنان . امرأة في حدود الثلاثين (زعمت انها في الرابعة والعشرين) ، قالت انها ليست هاربة ، ولكن لما زمرت السفينة ، وجعلت تنزلق ، وتستدير ، وتتناءى عن الرصيف ، صممت على انها هي ايضاً هاربة . زواجها دام سنة وبعض السنة ولم يترك لها ذكرى واحدة تناغيها ، قالت اميليا ، سوى ذكرى منظر الجبل الاخضر الازرق المتلألىء فوق بيروت ، وشعور بضرورة الهرب . « أتفهم ؟ الذكرى ذكرى منظر ، لا ذكرى عاطفة . ذكرى بلد ، لا ذكرى انسان . تعلمت الانكليزية في بولونيا . وقضيت مدة في لندن ، ذكرى بلد ، لا ذكرى انسان . تركني زوجي وانا أظن انه سيعود . ولم يعد . ولكن ذلك كان قبل سنتين او اكثر . شكراً . » تناولت السيكارة مني ، فاشعلتها (وياقتها « ديكولتيه » ، فانزلقت عيناي دون ارادة مني إلى ما بين نهديها المحصورين في السوتيان المشدود) . ثم أشعلت سيكارتي ، واميليا فرنيزي تتكلم ، نصف مغضبة ، نصف فرحة بتفريغ ما في قلبها . كنا متكئين على

سياج الباخرة ، ساعة العصر ، وقد دنت السفينة من الجزر اليونانية المنبثة في كل اتجاه . واكثر الركاب في قيلولة ما بعد الظهر . وعما قليل سيخرجون من قمراتهم الضيقة خروج الحمامات من اوكارها ، او خروج الفئران من جحورها . بعض الوجوه تذكرك بالطيور (وبعض الايدي الشمعية المستدقة الانامل الصدفية الاظافر تذكرك بعصافير الكناري) ، بعضها يذكرك بالقوارض ، بالخلد ، بالنسناس ، وبعضها بالخضار . هناك وجوه كالقرنبيط . ووجوه كالباذنجان . واحياناً تبدو الوجوه ، بخدعة بصرية ، كوجوه الملائكة ! أما وجه اميليا فكان وجهاً من وجوه الجحيم يذكرني بالشر . في العينين الزرقاوين لمعة حادة تؤكد ما في الشفتين الكبيرتين من غدر صريح . انه وجه اقرب إلى استدارة وجه الطفل ، مما يؤكد انه غير وجهها الحقيقي . لان في العينين والشفتين ، رغم ابتسامها المستمر ، صلابة وعنفاً . فهي كأنها تقول : ان تأتمني ، فعلى مسؤوليتك !

ولكنني استبق الحوادث . أغلب الظن ان هناك علاقة ما بين وجه اميليا فرنيزي وبين وجه لمى عبد الغني حين رأيتها مع زوجها الدكتور فالح عبد الواحد حسيب بين الركاب ، والسفينة بعد راسية في مرفأ بيروت . وقعت عيناي عليها بفجأة الناظر إلى حجر ضخم يهوي عليه من أحد السطوح ، فانسحبت في الحال من مرمى الخطر . لقد غدرت بي . لقد لحقت بي إلى المكان الوحيد الذي كنت أظنه في مأمن منها . خرجت بين جموع المتكئين على الدربزين ، الملوحين ، الصائحين ، الحالمين ، وذهبت إلى الناحية الاخرى من السفينة ، وانا اقول : أصدفة هذه ؟ أتصميم ؟ أملاحقة ؟ أإغاظة ؟ اما كفانا ما فعلناه وقلناه قبل ان تتزوج ؟ صدفة ولا ريب . صدفة لعينة . يجب ان اتجاهل الأمر . ما عدت احتمل النساء . اريد الخلوة . اريد الا يعرفني احد باسمي ، او وجهي . واحد من مليون . عابر سبيل

يصطدم به المارة ولا يرونه . ولكن لمى كانت رأتني في تلك الهنيهة الخاطفة . ابتسامتها رقصت على وجهها كله : ووجهها رغم سمرته فضاح يصرخ بما يستتر وراءه . عيناها لا تعرفان كتمان السر . رموشها السوداء تكحل الحدقتين واذا هما كعيون المنحوتات السومرية القديمة تفيضان عطفاً ، وشوقاً ، ومباشرة . لا ، لم يكن وجهها بالوجه المخاتل . وليته كان ! ان كان لا بد من مغامرة مع امرأة ، فليكن وجهها وجه اميليا . انه وجه دنيوي ، ارضي ، فيه المكر الثعلبي الذي لا بد منه لامرأة مغامرة . اما وجه لمى الصريح ، المباشر ، الناطق بكل ما لديه في نظرة واحدة ، فهو وجه المأساة . انه الوجه الذي يلاحقك إلى الابد ملاحقة الشهوة والحزن .

وقد لاحقني هذا الوجه . أنساه اياماً ، اشهراً ، فيباغتني ويغرقني في غمرة من الحس العنيف بعد الخدر والتفاهة . ثم يتركني في أصيل من النور . انها عودة حب كان كالرؤيا للنبي : عالماً من الوهج واللون واللذة تجعل من الجسد حَبَبَا يدوّم في كأس من الخمر . غير اني ذلك اليوم ، عندما رأيتها وانا اقل ما اكون تهيؤاً لرؤيتها ، تمنيت لو لم تكن هناك ، لو انني استطيع اعادة سلم السفينة إلى المكان الذي يصله بالرصيف ، واهرب . لقد هربت ، وها هي كالجدار ، كالبحر ، كالمارد ، أمامي .

في الحياة غصات كثيرة . فيها الموت . وفيها المرض . فيها الخيبة بالابناء . وفيها الخيبة بالآباء . فيها الشمس التي تحرق القفا ، والبرد الذي يشل الاصابع . فيها الموت والقتل وخيانة الصديق . ولكننا نتحملها . ان شراً وان خيراً نتحملها . ما دمنا لا نستطيع الانتحار ، فلا بد من تحملها ، ولا بد من الادعاء بالجلد والبطولة في تحملها . ولكن الغصة الكبرى هي هذا الذي يعجز عنه التحديد . هي ان تقع في هوى صاحبته بين يديك ، ولا تنالها . تنال الف امرأة ،

وتبقى تلك الغصة في حلقك . وتلاحقك الحسرة ، تباغتك مع الوجه الشهي المقتحم عليك الحذر وتفاهة العيش ، وترى الرؤيا من جديد وتستجد الحسرة الأليمة . الموت غصة ، وهذه غصة أخرى .

في مساء ذلك اليوم ، بعد ان اقلعت الباخرة ، وتأملنا مباني بيروت يحتضنها جبل لبنان وهي تتناءى ، وتعبنا من الاتكاء على الدربزين ، واستسلمنا للبحر أخيراً حين اختفى في الافق آخر أثر لليابسة — في مساء ذلك اليوم ، حين راح الركاب يتعرفون على قمراتهم الضيقة ، ويتعرفون بشركائهم فيها ، ويبدلون ثيابهم ، ويتهيأون للعشاء ، وجدت ان القمرة التي تجاور قمرتي ينزل فيها — نعم، الدكتور فالح حسيب وعقيلته . لقد رأيتهما يدخلان وانا اخرج . بل انهما وقفا بالباب :

« عصام ؟ اى والله عصام ! »

هتف الدكتور فالح . وأكمل :

« لمى ، شوفي ! عصام السلمان ! »

لمى (بلهجة مسرحية) : « من ؟ عصام ؟ »

أنا (بلهجة مسرحية ايضاً) : « شلون صدفة ! مرحبا دكتور . مرحبا لمى . »

(شلون حظ !) مصافحات سريعة .

الدكتور : « ها ، ان شاء الله إلى ايطاليا ؟ »

أنا : « لا والله ابعد . إلى لندن . »

لمى : « شلون صدفة ! ستجدنا في لندن ايضاً . »

وضحكا وضحكت . ومشيت . وسببت . ولعنت . لن يكون بيني وبين لمى الا جدار ! ولكنه من حديد . ويدعم الحديد زوج . ويدعم الزوج كل شيء . ولا يدعمني الا نظرة أخرى دفقت من عيني لمى بالتوق ، والحزن ، والخيبة .

سعيت جهدي ان اتجنبهما ذلك المساء ونجحت . في قاعة الطعام رأيتهما ، فاقتعدت كرسياً اتاح لي ان ادير ظهري لهما . ونزلت إلى قمرتي مبكراً بعد العشاء . وكان شريكي فيها تاجراً من دمشق ، ساحر اللهجة . لم يكن كثير الكلام ، ولكنه اذا تكلم أحسست بانك تجاه مواضيع الحياة غر ، فج اذا قست نفسك به . انه يعرف لا ثمن كل شيء فحسب ، بل كيف واين ومتى يجب ان يستعمل . تكلم عن الصابون ، وعن العطور ، وعن النايلون . أما انا فلم اقدر الا على الكلام المبهم عن اعجابي بجنائن دمر ، والجامع الأموي ، و « البوظة » في سوق الحميدية . وضحك التاجر ، لانه هجر اكل البوظة في سوق الحميدية منذ ان كان طالباً في التجهيز . وتعارفنا : عصام السلمان ، شوكت ابو سمرة . وما كاد شوكت ابو سمرة يندس في فراشه المخشخش الشراشف حتى نام .

وانا ايضاً نمت في الحال . ولكنني أفقت وكأنني لم انم ، وليس في عيني اثر للنوم . أفقت على صوت الموج يصفق جنب الباخرة صفقا نظيماً مداعباً . ووش ش ش ... وو ش ش ش ... ثم سمعت حركة ، بل احسست بها بذراعي – حركة مبهمة كأن صوتها آت عن طريق الكوة المستديرة مع صفق الموج . ولكني لم اخدع نفسي طويلا . فالحركة هي وراء الجدار الذي هو لصق ذراعي ... الحركة من لمى وزوجها . ما أوهى هذا الجدار ، وكنت حسبته من حديد ! يا الله ... انهما يتغازلان . لمى تهدر جمالها ، تسفح انوثتها ، تعطي من شفتيها ونهديها في الطرف الآخر من الجدار ... وقفزت كالملدوغ من فراشي . كيف اقضي الليل على مسمع من هذا كله – من لمى ، لمى ... ولبست ثيابي بسرعة وخرجت إلى ظهر الباخرة ، ريثما تنتهي نزوة المحبين وراء الجدار ، ريثما اسحق صورة هذه المرأة وراء عينيّ .

بعض التجارب يحملها المرء طي إهابه كالمرض . كقرحة لا تميت ولا تندمل . ويجابه المرء الأيام والتجارب الجديدة ، والقرحة في أحشائه تستكين وتهيج . واذا هاجت فلا بد من الدواء المخدر ، الذي لا يقضي الا على الألم الموقت ، ولكنه لا يقضي على امكانية الألم وتهديده المستمر . ويصبح الألم جزءاً من الكيان ، يعايش القلب والذهن ، ويبدو احياناً ، على نحو يناقض المنطق والعقل ، كأنه فرح مقيم ! كلنا عرضة لهذه الماسوكية العاطفية . ما دمنا نحمل التجربة كالمرض طي الإهاب ، فلم لا نتحايل عليها ونجعلها مصدراً لأحلام اليقظة ، مصدراً للقصائد غير المنظومة التي تهدر في النفس على غير انتظار ؟

كان ظهر السفينة مهجوراً الا من ثلاثة او اربعة ، كل على انفراد ، كل يحمل ولا ريب ، مرضه على نحوه الخاص . خرجت وأنا العن ، خرجت والحقد يملأ البحر امام عيني — البحر المظلم الرفيق ، الذي يصفق موجه الباخرة وشوشة ومعابثة .

كان القمر قد غاب ، فاسودّ امتداد اليمّ حولنا تحت بريق النجوم الكبار المتراصة ، وايقاع الآلات في جوف الباخرة في ضرب وتير مسموع . وفي وسط الحقد العارم امامي انقذفت لمى ، لابسة عارية ، لا اعلم . فهي في ثيابها ولكنني ارى كل جارحة في جسمها . فالشفتان الريانتان المعطرتان بالروج ، والثديان المنطلقان من القميص — انها هنا ، امام عيني ، وراء عيني ، على بعد مني ، بين يدي . ونحن في سيارتي ، منطلقان مع الليل إلى خارج بغداد ، ويدها كالجنزير تغلني ، تلتف حول عنقي ، تهبط إلى فمي ، تتغلغل في قميصي . انعطفت بالسيارة عن الطريق العام إلى حقل مهجور ، وسلطت ضوءها لاستوثق من القاع البوار التي عزمنا على اللجوء اليها . وجعلت السيارة تصعد وتهبط على التضاريس الترابية المضطربة ، ولمى تقول :

« احذر السواقي . هذه الاراضي تشقها السواقي ، احذر . » . ولما توغلنا ما حسبنا فيه الكفاية ، أوقفت السيارة . ورحت أقبل لمى ، أقطع شفتيها ، أزرع فمي في عنقها ، في صدرها ، وهي تقول : « انا مجنونة . مجنونة . كيف رضيت بالمجيء إلى هنا . أحبك . أعبدك . ولكني مجنونة . هذه اول مرة وآخر مرة . » وفجأة شق الليل نباح عنيف وبحركة لا شعورية انسحبت لمى بعيداً عني ، وأدرت أنا مفتاح آلة السيارة ، وطفرت بنا السيارة إلى الامام . ورأينا رجلا ، وقع عليه نور السيارة ، قادماً من بعيد ، حوله كلاب تنبح . فصاحت لمى : « ادر السيارة ، أدر السيارة يا عصام ! » ولما كان امامي نشز من التراب ، اضطررت إلى الرجوع إلى الخلف بغية الاستدارة ، واذا بالعجلتين الخلفيتين تسقطان بعنف في منخفض ، وتدوران بشدة عبثاً ، والسيارة كأنها مغلولة إلى الساقية اللعينة — لقد وقعنا في فخ . ورحت أدوس مدوس البنزين إلى نهاية مداه ، فتجأر السيارة ، وتدور العجلتان الخلفيتان في الساقية ، سدى . « مصيبة ، مصيبة ، مصيبة » جعلت لمى تكرر . « ماذا يريد هذا الرجل ؟ انا اموت خوفاً من الكلاب ... » والكلاب تقترب مع خطى الرجل الوئيدة ، ونباحها الحلقي الحقود يملأ الليل . واخيراً وصل الرجل .. وعلى حين غرة أشعل مصباحاً كهربائياً ومض كعين بذيئة بين عيون كلابه .

لماذا لا نتوقع من الغريب في أرض مهجورة في الظلام الا الاذى ؟ كان بامكانه ان يتصرف معنا تصرف الغول ، ونحن في الفخ ، وكلابه في شبه الذئاب . غير انه قال برقة وعطف : « مساء الخير . عصيت ؟ » قلت « مساء الخير . نعم عصيت » . لم يومض المصباح في وجهينا ، بل نكس عينه إلى الاسفل حين ادرك ان في السيارة امرأة ، وقال : « بسيطة » . واتجه نحو مؤخرة السيارة ليفحص الوضع ، ثم عاد ، وقال : « لا فائدة من محاولة الحركة . انا من عمال

سكك الحديد . انتظر ريثما أذهب وآتي بمسحاة . » وانصرف مسرعاً ولكن دون ان تسرع وراءه الكلاب التي كفت عندئذ عن صب زئيرها . فقالت لي : « واذا عاد بشيء غير المسحاة ؟ » فقلت : « اتريدين ان نترك السيارة ونهرب ؟ الطريق العام قريب . مشي خمس دقائق» . فقالت : «ولكني اموت خوفاً من الكلاب . لننتظر ، وليكن ما يكون » . وجاء الرجل بمسحاة ، لا بخنجر ، وخرجت من السيارة ، ولكنه اصر على حفر التراب امام العجلتين بنفسه — إلى ان اوجد امامهما منحدراً من ضفة الساقية ، وعدت إلى السيارة ، وشغلتها ، فانطلقت بنا من الفخ . فتوقفت قليلا ، لأودع هذا المنقذ المجهول ، وتركت في كف يده بعض النقود حاول ردها ... ثم قال كلمته الاخيرة : « ان كنتما تريدان متعة ، ففي الناحية الاخرى من الطريق بستان مفتوح ... في امان الله .. »

ودست على البنزين كالمجنون ... متعة ؟ اية متعة ؟ وقالت لي : « مت من الخوف ، والله ! أمسك بيدي . اترى كيف ترتجف ؟ وما ابردها ؟ متعة ! لعنك الله يا عصام ...» وارتمت على كتفي ، والسيارة تسرع بنا عودة إلى المدينة .

لقد برد هواء البحر . أكاد ارتجف . وحلقي جاف كالتبن . لعل البحر قد جعل يضطرب . جلست في أحد المقاعد على ظهر الباخرة التي جعلت الآن تترنح ترنحاً بطيئاً خفيفاً . حلقي جاف كالتبن ، كالرماد . واردت الاسترخاء في مقعدي ، واليوم ، رغم ذكرى الكلاب النابحة حول ذلك الطيف الطارق في الظلام . ما اشد اطمئنان البحر ! في ترنحه هذا هدهدة لمن يريد النوم ويقوى عليه . لمى وألف لمى في ألف باخرة عرض البحر . وبان في مقدمة السفينة طيف آخر . طيف يتقدم في اتجاهي . رجل آخر لعله لم يقو على النوم رغم ترنيمة البحر . وجاء الشخص وادار لي ظهره ، واتكأ على

الدربزين امامي . وفجأة انتبهت إلى شعره الطويل . انها امرأة في بنطلون ... وجاءني عبق من عطرها الدافىء خالط رائحة البحر الرطبة المالحة . كانت تدخن . ولكنني استرخيت في مقعدي واغمضت عيني . وبعد قليل احسست بالمرأة تجلس في المقعد الذي بقربي . فاستويت في مقعدي وحييتها .

« نحن محظوظون » ، قالت بالانكليزية . « فالبحر بين بيروت والاسكندرية معروف بالاضطراب عادة . اترى ما أهدأه » ؟

قلت : « نعم ، نحن محظوظون » .

— أحب البحر . أتحب البحر ؟

— نعم . أحب البحر .

— ولكن ما هذه الا سفرتي الثانية بحراً .

— إلى الاسكندرية ؟

— إلى جنوى . وانت ؟

— إلى مرسيليا ، ثم باريس ، فلندن .

— انت محظوظ !

فقلت : « اعذريني ان سألتك : ألم تستطيعي النوم ؟ »

فضحكت : « انني اعشق صوت الموج ! »

كانت هذه المرأة اميليا فرنيزي . لقد بقينا نتحدث على هذا النحو ساعة او اكثر . يستطيع الغرباء الحديث ساعات دون ان يعرف الواحد عن الآخر بعد ذلك الا بضع أكاذيب . وهذا كل ما عرفته عني اميليا ، وكل ما عرفته عنها . ولكنني بعد ذلك لم اشعر باليبس في حلقي . لم اشعر الا بالبرد وبحاجة عنيفة إلى النوم . اما لمى ، فلم انسها ثانية واحدة . نزلت إلى قمرتي ، وكلي خشية ان اسمع من وراء الجدار حركاتها ، تنفسها .

ولكنني لم اسمع شيئاً قط .

التقيت وديع عسّاف صباح اليوم الثاني. لا أذكره الآن وهو يتكلم. كان يتكلم مع فتاة، عرفت فيما بعد أنها فرنسية، اسمها جاكلين دوران، والى رجل بدين عرفت انه اسباني، يدعى فرنندو غوميز. كان وديع يتكلم بحرارة، ويضحك بحرارة، واذا سكت، بدا كل كلام آخر اشبه بالنقيق. كان طويلا، تنحني كتفاه انحناءة المتحمس لما هو أمامه، وشعره الاسود الكث مصفف بعناية المتأنق المهتم بمظهره. حدست في الحال بأنه فلسطيني، وتأكد حدسي عندما سمعت لهجته. لقد ذكّرني بالكثير من الطلاب الفلسطينيين الذين عرفتهم في انكلترا، ودهشت دائماً لشيء واحد فيهم: حبّهم للألفاظ، حتى ولو تكلموا بالانكليزية.

بعد ليلتي المتعبة، لم أكن متحمساً للقاء أحد. كنت في الواقع أنظر حولي، متوقعاً، رغماً عن نفسي، أن أرى لمى تسير على ظهر السفينة أو كغيرها من المسافرات، تستلقي في مايوه السباحة على ظهرها في أحد المقاعد. غير أن صوت وديع عسّاف أوقفني. وترامى اليّ بعض كلامه. أحسبه كان ينكّت. لا ادري. كان الآخرون يضحكون. وقلت لنفسي: هذا رجل سعيد!

بعد ذلك كان تعارفنا سهلا. أصبحنا متلازمين، أصغي الى حديثه وهو ينهمر، ينهمر دائماً كالمطر – كالمطر في زوبعة لا تنتهي:

«ما عرفته قبل يومين وما تعرفه اليوم ليس واحداً. الحياة تسيل، تجري، تسابق البشر. وهي كل يوم تغيّرك. تأكل منك، تقضم من حواشيك، توسع رقعة الحذر في قلبك. وكل يوم تضيف اليك،

وتضخّمك ، وتدق في قلبك مسامير المتعة والألم . ولكنك متغيّر أبداً . طفولتك ترافقك ، ولكنها ما عادت جزءاً منك . انها هناك — بعيدة عنك ، مع ذلك الموج في اقصى الافق ، في الجزيرة التي تراها في بحر احلامك . شاب مثلك يفعم صدره بخواطر الحب ، لا ريب . فتاة عسلية العينين تركتها في محطة قطار ، أو في سيارة تحمل اكياساً وحقائب . سمراء صوتها كأغاني الليل تسمع من بعيد : لا بأس ، لا بأس . بين الخامسة عشرة والثلاثين ، قد تعرف عشر نساء ، وقد تعرف خمسين . لبعضهن نهود صغيرة كالتين الفج ، ولبعضهن افخاذ كالرخام . بعضهن خلّفن غمامة من الرؤية ، وبعضهن ما زلن يعذّبن العين بوجود حاد ملحّ ملموس . فانا من عشيرة الرومانسيين في قضايا الحب والجنس. واذا رافقتني في نابولي ، أفهمتك ما أعني . أنا الآن في اجازة — اجازة طويلة عريضة، اجازة من كل ما كان يستعبدني ويستحوذ علي حياتي المتآكلة . في نابولي — أتحمل نقوداً كافية ؟ في نابولي ، ستعرف معنى الجسد . انه معنى مخجل . لماذا ؟ لانه حيواني . الجسد هو الحقيقة الوحيدة التي لا يستطيع احد دحضها ، وهو صلتك وصلتي بالوحوش ، بالدواب . ولم الكبرياء والاستعلاء والنفاق ؟ في نابولي ، سنأخذ اربع نساء ، خمس نساء ، ست نساء — بقدر ما تتسع له غرفة النوم ، ونرى العجائب . الحقيقة الواحدة . السأم الأخير . لأن الحقيقة، في الواقع ، مملّة . انا دائماً افضل الكذّابين . الكذابون ارستقراطيون . الكذابون هم ، على طريقتهم الخاصة ، المتمردون. والتمرد دائماً أمر ارستقراطي. الحقيقة على كندرتك ! ها !

«هذا الصباح قلتها لجاكلين ، هذه الفرنسية التي قصت شعرها «آلا غرسون» . قالت اتريد الصدق ؟ قلت : الصدق ؟ ابداً . قالت : كفى مزاحاً . فقلت لها : لا أريد الصدق ابداً . أريدك ان تكذّبي عليّ . اكذبي عليّ باستمرار . في هذه السفينة الصدق شحاذ ، ناسك ، كافر ،

طاغية ، ابن كلب ، لا نريده . وليكن كلامك مثل قصة شعرك . تشبهين بشعرك الولد . ولكن على صدرك ما يكذّب ذلك . فضحكت وقالت بانكليزيتها المحدودة : شتأب !

«في الواقع ، كل من يدعي انه يقول لك الحقيقة ، واحد من اثنين : اما انه واهم ولا يعرف ، او انه كاذب على كل حال . وما هي الحقيقة ؟ على كندرتك ! قلنا الصدق حتى بحت حناجرنا ، وأضحينا لاجئين في خيام . توهمنا الصدق في امم العالم، واذا نحن ضحية سذاجتنا. وقد عرفنا ذلك كأمة ، وعرفناه كأفراد . ولذلك فانني ، كفرد ، ما عدت اكترث لما يقوله أحد . لا يهمني الا احساسي وحدسي . عاش الكذابون المراؤون المخادعون ! على الأقل أنا في منجى مما يدّعون لاني ختمت هذا الفن. وكما قلت لك ، انا في اجازة ارجو أن تطول سنة او سنتين . واذا استطعت مددتها مدى العمر . ولم لا ؟ أنا فوق الاربعين — لا يغرنك شعري الاسود — غير متزوج ، أهلي في غنى عني ، ورغم التشريد والضياع ، كسبت من المال في الكويت ، وما ازال اكسب ، ما فيه الكفاية . الحمد لله . هذه سفرتي الثالثة الى اوربا ، وسأمتص منها كل قطرة . في الليل تنتابني ذكريات اليمة . اليمة جداً . وتنتابني رغبات اليمة ايضاً . كنت فيما مضى أجد متنفساً في تدوين الافكار . في كتابة الشعر . الفلسطينيون كلهم شعراء . بالفطرة . قد لا يكتبون شعراً ، ولكنهم شعراء ، لأنهم عرفوا شيئين اثنين هامين . جمال الطبيعة ، والمأساة . ومن يجمع بين هذين ، لا بد ان يكون شاعراً . أتعرف القدس ؟ لعلك كنت صغيراً عندما التهم الوحش اليهودي اجمل نصف في أجمل مدن الدنيا . القدس اجمل مدينة في الدنيا على الاطلاق . قيل انها بنيت على سبعة تلال . لست ادري ان كانت تلالها سبعة ، ولكنني ارتقيت كل ما فيها من تلال ، وهبطت كل ما فيها من منحدرات ، بين بيوت من حجر ابيض وحجر وردي وحجر أحمر ، بيوت كالقلاع

تعلو وتنخفض مع الطرق الصاعدة النازلة كأنها جواهر منثورة على ثوب الله . والجواهر تذكرني بزهور وديانها ، فاذكر الربيع . واذكر التماع زرقة السماء بعد أمطار الربيع . والربيع في القدس كان هو الربيع لانك تراه يحل في البلد ، كأنه مشهد غيّره المخرج على خشبة المسرح . فالجبل البلقع في الشتاء قد اخضوضر فجأة أمام عينيك ، وحتى بيتك الصغير المتهدم عند منعطف الطريق ، حيث الحجارة المهملة منذ أيام آل عثمان ، وحيث الشجرة اليابسة ، يحسّ الربيع ، لأن زهوراً كعيون الاطفال قد نبتت بين الحجارة نفسها ، حول الجذع العاقر المسنّ نفسه . ولذا فان الليالي قد تأتيني بذكريات من القدس فأحزن ، وأغضب ، وأبكي . كنت مرة في فندق في الشام عندما فوجئت بمثل هذه الذكريات فبكيت ، ورآني رجل اعرفه ، فجاء يسألني ما الخبر ... فقلت أبكي على ابي ، وأمي ، واخوتي ، وما عدت أعرف الخجل ...

«كان ذلك قبل سنوات كثيرة . أما غيري فكانوا يحولون نوبة البكاء شعراً. ولكن بربك من يستطيع أن يصوغ كلاماً هو خبرة ثلاثين سنة في مدينة هي أجمل مدن الله ؟ محاولاتنا الابداعية ليست الاّ مسكّنات موقتة . هي نوع من البكاء . ولكن لا شيء في الحياة يعوض عن الدموع السخينة الكبيرة . والزمن ، على كل حال ، شيء فظيع . في سيله الظالم لا يترك لشيء جدّة او نضارة ، ولا يترك لك في النهاية ما يستحق القول . لقد داس الزمن على كل ما أراه بخفّ كبير ثقيل ، وطمس البريق والفتنة ولو كنت رساماً لرسمت ذلك — اتدري كيف ؟ بلطخة سوداء عريضة قد ابقّعها في مكانين او ثلاثة بشيء من الاحمر . الزمن هو العدو عش ، ابق في قيد الوجود ما استطعت ، ولن يكون لك غير ذلك . لطخة سوداء تملأ قماشة العمر ، مع نقطة هنا ونقطة هناك — طفائف تعرض لك دون ارادة منك ، ولكن دون ان تحظى بتلك التجربة الضخمة العنيدة التي هي نتيجة الخيار والارادة .

«اتدري ؟ كان الانسان البدائي الذي يعيش على القنص في البراري اكثر حظاً منّا. كل يوم لديه اختيار أكيد ، مجابهة للخطر ، وهو دائماً على شفا الكارثة . وما بقاؤه الا نصر يتجدد كل يوم . أما بقاؤنا ؟ ها ! اننا نبقى رغم انوفنا . انه بقاء سالب منفعل تعودنا ان نرضى به . ولا هو نتيجة لفعل منا . الحياة ، رغم كل هذه الفوضى الظاهرة ، نظمت المجتمع بشكل شامل هائل ، بحيث اصبحنا قادرين على العيش عيشة آلية ، ما علينا الا ان نحرّك اذرعنا واقدامنا ، مسيّرين بالطبع ، فنأكل — أي شيء — ونشرب وننجب الاولاد ونسعى والرأس قبل القدم الى الحفرة المحتومة . هذا هو التقدم .. أشبه بتقدم الحالة المرضية ... أما أنا فأوثر الحياة البدائية . لا أصدق أحداً ، ولا أدعي الصدق لأحد . ابكي بعض الليالي ، ولكنني اضحك كثيراً . وأحب النساء . من كل نوع . من كل لون . وارفض البقاء السالب المنفعل . في نابولي سنأخذ النساء بالجملة . ولن اكتب كلمة واحدة . لان الكلمات تزيل حدة انطلاقي . هل قلت ان الفلسطينيين كلهم شعراء ؟ انهم في الواقع تجار . لقد اقفلوا قلوبهم على الشعر ، وانصرفوا الى التجارة ، في كل مكان . وأنا ، كما ترى ، واحد منهم . أسعى في سبيل القرش ألف ميل . ولكنني ادوسه بقدمي في النهاية . المال على كندرتك !

«انا ، ان كانت لديّ عاطفة حقيقية ، فهي عاطفة دينية. صوفية ان شئت . عواطفي تتحرّك بموسيقى الكنيسة . فالالحان التي تتصاعد اليمة جريحة من حناجر المرتلين ، وألحان الارغن الهادر في السقوف الشاهقة ، وهذه الاشارات الضارعة الخاشعة الى الله ورب الارباب وملكوت السماء وحمل الله الحامل خطايا العالم — هذه كلها تغمرني بأحاسيس كالهستيريا. فأنا اريد أن اتمزّق عندها — اتمزق فرحاً وطرباً ، وأسى وحزناً . لأن الجمال حزين — اجمل ما في الحياة حزين ، كبلادي ، والملائكة التي تحمل كؤوساً تملؤها من الدم القاطر من يدي المسيح المصلوب جميلة —

ـ جمال مقدّس ، ضارع ،خاشع ، ناضج الشفتين ، واسع الحدقتين ، وكله مضمّخ بالدموع . في هذا الجمال المنغّم الموزّع بين اجواق كاجواق المسرح الاغريقي ، ارى الحياة ، ارى حياتي ، أرى أرضي ارى بلادي ، أرى ما انجزت وما اخفقت فيه . واخيراً ، ما أنا وانت الا هباء بين هذه الانغام . هباء في سديم الكون ، هباء لا يعني شيئاً ويعني كل شيء .

«كنت في صغري انتشي بالصلاة ، ولكنني لما كبرت فصلت بين الصلاة وبين التقوى ، وتعقّد الأمراذ اصبحت عواطف الصلاة والضراعة عواطف جمال وحب وموت . هذا البحر الرائق المقمر غير حقيقي . وغير حقيقية هذه الزرقة وهذا الانسياب وهذا الليل الحاني على الدنيا كالعاشق السهران . انما الشيء الحقيقي هو ذكراي له . الذكرى تتحول إلى ما يشبه الموسيقى . تبتعد الوقائع عنك في دهاليز الزمن ، وتخلّف امواج النغم في ذهنك . الكل زائل سوى هذه الامواج . لا مجازاً ، بل فيزيائياً أيضاً . وهذه الامواج هي أنغام الفرح والاسى المرتبطة بالله والملائكة والقديسين ، وتندمج فيها أنغام الحبّ والمتعات العنيفة الخفية . فيها ذكرى مياه ، أشد وقعاً ــ وأشد ايقاعاً ــ في حجرات النفس الفسيحة ، مياه حسبتها بحراً ، ولم تكن اكثر من مجرد بركة تتجمع فيها مياه أمطار الشتاء خارج سور القدس ــ «بركة السلطان» . أقف على صخرة فيها انحسر الماء عنها ، وانظر الى المويجات التي تخلّفها الريح حولها في المياه الخضراء ، فأرى الصخرة تمخر فيها كما تمخر سفينتنا هذه المياه المتوسطية الزرقاء . كنت في الرابعة عشرة ، وكلّي تحرق الى البعيد الى المستحيل ، أهرب من بيتنا وآدمييه الكثار الى «بركة السلطان» لاقف على الصخرة المحلّقة عبر محيطات الخيال . لقد كان مثلي ولا شك ذلك الذي اخترع بساط الريح . لم يكن قد غادر حيّه المرصوص غرفاً وابواباً وفقراء ونفايات وروائح في بغداد او القاهرة . فابتدع بساط الريح

وابتدع الرخّ . وابتدع طاقية الخفاء . ورأى الحمائم تقدم من السماوات القصية وتحط على برك من رخام واذا هي تنزع عنها الريش لتكشف عن صبايا حسان. كلها موسيقى . وباليه . ومستحيل . وتوق . وعبقرية الانسان الذي تحاول المدينة ان تستعبده . اريد أن احدّث جاكلين عن هذا كله ، ولكنها لا تتقن الانكليزية ولا العربية وانا لا اتقن الفرنسية . ولا أظنها ستفهم حتى لو استطعت أن احدثها بالتفاصيل . تضحك لأقل كلمة . السفرة بالنسبة اليها نكتة بارعة مستمرة . تأكل كما لم تأكل لعشر سنين . ولا تخشى السمنة . ولن تسمن . في داخلها وحش نهم يلتهم كل شيء ، فتبقى هي على حالها من الجوع . والاّ فأين المرأة التي تستطيع في الثلاثين أن تحافظ على مثل هذين النهدين القائمين المتحديين ؟ وهاتين الساقين الصلبتين من الردف حتى القدم ؟ موسيقى . كلها موسيقى . والموسيقى مياه ، والجمال مياه انسابت فجمدت على أشكال هي مشتهى العين . والكل أنغام .

«أظن أني أعرف السرّ . أيام الصبا كنت أقرأ كتباً كثيرة معظمها روايات مترجمة ، لا تمت لحياتنا بصلة . فكان لا بد لي من الانطلاق كأبطال تلك الروايات في الغابات ، التي لم توجد عندنا بالطبع ، تحت الامطار الهاطلة ، في العواصف ، في الشموس المشرقة بعد الزخات الغزيرة على الأشجار . وقد امتطيت حصاني الذي عرفت فيما بعد أنه شبيه روزينانتي ، حصان دون كيخوتي ، لأنني مثله رفعت سيوفاً صارمة في وجوه شياطين من الخيال ، والتقيت بحسان اقع في غرامهنّ من اول نظرة. كنت في لقاء مستمر مع حسناء محجبة ، تلاقيني في مقبرة خارج السور . ولا ادري والله حتى اليوم هل كنت فعلاً التقي هذه الحسناء التي أرى وجهها دائماً وقد رفعت عنه الحجاب في غسق أشهب بين القبور ، أم ان الامر كله من مزاح الخيال . كنت أقص حكايتي معها لصديقين لي يأتيان من القرية مرة في الاسبوع ، كحكاية متسلسلة . كان أبوها عطّاراً

في سوق العطارين في المدينة القديمة . أذهب اليه بعد أن أمر بالصفارين الذين يملأون السوق المسقوف طرقاً وطنيناً ، وأراه بلحيته القصيرة وقنبازه العتيق مستقراً كموءياء بين اكياس المساحيق الشذيّة . «ذلك أبي» تقول هي – وقد نسيت اسمها (ألعلها اذن من خلق الخيال ، لا غير ؟) «ولو عرف بأننا نلتقي بين هذه القبور ، لقتلنا كلينا واختصر مراسيم الدفن هنا !» كانت طالبة مدرسة ، سوداء الشعر ، سوداء العينين ، ووجهها المقدسي كوردة بعد المطر . او هكذا وصفتها لصديقيّ . فوجوه بنات القدس كلهن كالورود بعد رشات المطر . لست اذكر الآن كيف انتهى الامر بيننا. لا لشيء الا لأنني منذ ذلك العهد أحببت عشرات الفتيات ، ولكل منهن قصة اذكر على الأغلب بدايتها ، ولكن النهايات تختلط عليّ . ولكنني لا استطيع نسيان المقبرة . الحب على مرأى من الموت ! قوة الحياة تتحدى قوة الفناء : انها فكرة خطرت لي بعد أن كبرت ، ولا ريب . أظن أنها امتنعت عن المجيء فجأة دون سابق انذار ، وانتهى الحلم . وبقيت أرى اباها وانا في طريقي إلى المدرسة كل يوم ، واقول : ها ! هذا الرجل قبّلت ابنته الجميلة مئة قبلة ، وهو لا يدري . عندما يكبر الانسان يزداد شرّه . تزول براءة مثل هذا الخاطر (ولم لا يقبّل فتى يعشق الدنيا كلها ابنة شيخ يحتضر بين مواد عطارته ؟) ويحلّ محلها : «هذا الرجل قبّلت زوجته مئة قبلة ، وهو لا يدري .»

«ولكثرة ما رويت لصديقيّ القرويين من تلفيقات الخيال الجامح ، انتقل صديقاي ، كلاهما ، مع اهلهما الى القدس . ولكن الحياة صنع يديك انت ، لا صنع غيرك . فاذا كانا لم يتمتعا بما تمتعت به في مراهقتي التواقة ، هل كان ذلك ذنبي ؟

«ولكن لعلهما لم يقلاّ عني متعة ؟ ما اقل ما كان يكفينا للمتعة ! تلك «المشاوير» في شارع يافا ، او في متاهات الصخر والزيتون المحيطة بالمدينة . هل جلست مرة ، يا عصام ، تحت زيتونة هرمة ، على الارض

الحمراء ، والشوك يكاد يحيط بك ، وكذلك الزهرات القلائل من الشقائق ، او ذلك «الحنون» الأصفر الذي لم نعرف له اسماً قط ، لأن الفلاحين لم يسمّوه الا بالحنّون ؟ لك الله يا زيتونات الطالبية ، والقطمون والمصلبة ، والوادي المسترسل الى المالحة ... تحتك تركنا جزءاً من حياتنا ، هبة ، وعربوناً للعودة . تخرج الى العالم ، وترى الاشجار البواسق ، والبساتين المنمقة والغابات الملتفة ، ولكنها كلها لا تساوي غصناً معوجاً واحداً من تلك الاشجار الغبراء المتباعدة ، في تلك الأرض الصخرية الحمراء التي تلقّت قدميك كقبلات عاشق ، وبانت كأنها تنتشر تحت جنبك اذ تضطجع عليها كأرائك الجنة . لعنة واحدة هي اوجع اللعنات : لعنة الغربة عن أرضك .

«سل الفلسطينيين . سل الفلاح الذي يذكر تجرّح قدميه على تلك الأرض كأنه يذكر لذة حياته الوحيدة ، كأنه يقول إن حياته ، بعد ان أبعد عن ارضه ، ما عادت حياة . هذا البحر الأزرق يتألق ، غير مكترث غير حافل ، أنا أعرف ذلك ، لأنه يظن أنه يجمع حضارات الدنيا على شطآنه . ولكنه يحمل أيضاً لطعات من شاطئنا تجعله على هذا التألق ، هذا الحسن . انا احب البحر المتوسط ، واركب السفينة فيه ، لأنه بحر فلسطين ، بحر يافا وحيفا ، وبحر هضاب القدس الغربية وقراها . فانت اذا صعدت هضاب القدس ونظرت غرباً ، لن تعرف اين تنتهي الأرض واين يبدأ البحر واين يلتقي الاثنان بالسماء . فهي ثلاثتها متداخلة متمازجة — ومتماثلة . هذه الزرقة هي الشيء الوحيد الذي يلطّف من غربتي . كأنني بها اتصل بأرضي من جديد ، كأنني بها أعود الى «بركة السلطان» فأراها قد اتسعت وامتدت وفاضت أنهراً وشلالات دافقة .

«في الصميم نحن وحيدون . حياتنا أشبه بالعلب الصينية : علبة داخل علبة — وتتضاءل العلب حجماً ، الى أن نبلغ العلبة الصغرى في القلب منها جميعاً . واذا في داخلها — لا خاتم ثمين من خواتم ابنة السلطان ، بل سرّ

أثمن واعجب : الوحدة . وهل كانت بي حاجة الى ان أقتلع من جذوري ويقذف بي بين الحوافر والبراثن ، بين لواهب الصحراء وزعيق المدن البترولية ، لكني أعرف ذلك ؟ القماشة عريضة ، والسواد فيها كثير ، والبقع قليلة متباعدة . الطالبة الهاربة من ابيها الى القبور لتقابل حبيبها لحظتين رهيبتين اضاءت في سواد القماشة، واعود الى آلام كآلام الصليب ، في مأساة تتجدد ، فيقولون عني : انحطاطي ماكر ، يناقض نفسه ، يعبد القرش ، ما عادت أرضه تعني له شيئاً . كأنهم يريدونني أن أحمل حفنة من ترابها في كيس من ورق في جيبي دليلاً على ألمي ، وأنا أحمل صخورها البركانية الزرقاء كلها في دمي ، في العلبة الصغرى التي في قلب العلب كلها ، مع وحدتي ووحشتي ، كلنا وحيدون . كلنا نضمّ هذه الجوهرة بين الجوانح بعيداً عن العيون . نضمّها مع شيء او شيئين ، ربما . والعيون التي نحبها ، ونتغزل بها ، ونموت من اجلها ، نخشاها : فهي العيون التي تنفذ كالاشعة السينية الى خفايانا . نضمّ بين الجوانح الحبّ والوحدة ولا نريد أن يعرف محبّونا بالذي نضمّ ، لا خوفاً على انفسنا – طبعاً لا . بل خوفاً عليهم . خوفاً عليهم هم . وهل نعود الى الموسيقى ، وهذا البحر ؟ أي سرّ يخفيان ؟ هل من يفضّ مكنون النغم أو نزق الموج ؟

«اليوم قارنت جاكلين نفسها بالسيدة العراقية التي اضحت حديث الجميع . لفظت اسمها خطأً «لونا» ، بدلاً من لمى او ، كما يلفظه الاجانب ، «لوما» . وضحك فرننذو : لونا ، لونا ، القمر ، عرفت الان سرّ الجنون ! ولم يهمّني أن أصحح الخطأ . بل ، لم يكن ثمة خطأ . الا يحق لنا ان نخلط بين جمال الشفاه ، والقمر ، والجنون ؟ ذاك ايضاً من فعل الموج – هذا الموج المتوسطي الرهيب الفتنة . اتدري أن شعراء العرب القدامى كانوا يعشقون أسماء الاماكن ويكررونها في شعرهم كأنها اسماء الأحبة ؟ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، بسقط اللوى

بين الدخول فحومل . أو هذه الأبيات لذلك المسكين الذي لا نعرف عنه إلا أن المنذر قتله لأنه التقى به يوم بؤسه : عبيد . عبيد بن الابرص . أتذكره ؟

أقفر من أهله ملحوبُ فالقُطَبيّاتُ فالذنوبُ
فراكسٌ فثُعَيلِباتٌ فذاتُ فِرقَيْنِ فالقَلِيبُ
فَعَرْدَةٌ فقفا حِبِرِ

ولما لم يذكر اسم مكان يصلح قافية للشطر الثاني ، قال : ليس بها منهم عريب . وكيف يذكر شاعر هذه الاسماء كلها اذا لم تكن كلها صخورها ورمالها ، جزءاً من دمه ولحمه وعظمه ؟ ولكنه يعتمد أيضاً على ما تثيره عن عشق مماثل في قلب السامع ايضاً . نحن يكفينا أن يقال بغداد ، لترقص فينا الاضلع نفسها – رغم ما حدث فيها من قتل وسحل واذا قلت ، لمى وبغداد ، انسرحت فينا قصائد من الأخيلة . ها يا عصام ؟ بربك هل أنت بريء من كل هذا ؟ أم أنك مهندس فحسب ، لا ترنّ في سمعك الامكنة اذا ما ذكرت ، وذكرت معها اسماء كلمى وغير لمى .

«كما قلت ، قارنت جاكلين نفسها بالسيدة لمى . قالت : ما الذي تراه في «لونا» ولا تراه فيّ ؟ فقلت : الحكاية طويلة يا جاكلين . هل تعرفين شيئاً عن شعراء العرب ؟ فقالت وما دخل الشعراء بلونا ؟ وضحك فرنندو مرة اخرى . وقال : يجب ان تكوني اسبانية لكي تفهمي . اتعرفين لوركا ؟ فقالت : ومن هو لوركا ؟ فسقط فكه شبرين ، ثم جعل يدور حول نفسه كأن فيه مسّاً ، ويقول : أخبرها ، أخبرها ، أخبرها ... اتفقنا على قضاء ليلتين معاً في باريس ، لكي أخبرها . غير أن الخبيث أخذني جانباً فيما بعد وقال : لماذا تورّط نفسك منذ الان ؟ ما تراه شهيّاً في سفينة على البحر ، قد لا تراه شهيّاً في غرفة في مونبارناس ... رحمك الله يا عبيد . فراكس فثعيلبات فذات فرقين فالقليب –

ـ مونبارناس ، بول ميش ، بوليفار راسباي ... وكلها لم تقفر بعد من عريب ...»

لمى !

لمى ! لمى !

لقد ضجت السفينة بلمى .

او هكذا ظننت .

في الواقع لم تكن لمى من الذين يملأون الدنيا ضحكاً وحبوراً . لم تكن تتوسط الحلقات ، وترسل النكات وتناغي الذئاب من الرجال . لا لأن زوجها يلازمها ، او يراقبها ، فيوجد حبه حولها دائرة سحرية تمنع احداً من اقتحامها . بل لانها من عادتها ان تنتحي جانباً ، وان تدير خدها إلى الناظرين ، وتستعلي بعنقها الرفيع السامق فوق رؤوسهم . نزعة ارستقراطية لم أعلم من أين جاءت بها . فقد سمعت ببغداد من الذين كانوا يعرفونها قبل ذهابها إلى اكسفورد للدراسة انها كانت دائماً كثيرة الكبرياء ، بحيث يخشى الاحتكاك بها الا من كان يعرفها معرفة حميمة . غير ان اكسفورد اضافت إلى كبرها كبراً ، وإلى انفتها انفة . ولكنها في الوقت نفسه كبرياء تذوب في الخجل ، وتتلاشى عندما يستثار همها . لقد كانت كمن يجتذب عابري السبيل ، ثم يوقفهم عطشى على بابه ، ولا يتذمرون . العطش . غريب ! العطش يذكرني دائماً بلمى. حتى اسمها يحرك اغوار العطش فيّ . وقد كان حبنا عطشاً وبقي في جفاف العطش . تنتفخ من شرب الماء ، ولا تروى : عطش الهي ، يقحمك رغم تبذلك كله في زمرة المتصوفين .

وقد ضجت السفينة بلمى ، لانها اثارت الاهتمام بجمالها ، ولم تقترب من احد بما يكفي لازالة الاهتمام . وقد سألني عنها كل من تكلمت معه . أمن العراق ؟ أمن بغداد ؟ وبغداد كلمة سحرية للعرب وغير العرب . وديع عساف راح في الحال يتغنى بعيون المها ، وعيون الظبأ ، وعيون الاعراب : الحدقات الواسعات ، والحور المجنن ، الشعراء والصعاليك والخلفاء . واعترف لي جهراً بأنه يتصيدها في الصباح لانه يتفاءل بالعيون السود والرقاب الممشوقة . واميليا فرنيزي سألتني عنها . وفعلت بغداد ولمى في خيالها معاً : الجواري والحريم وبنت السلطان ، وهل عشق السندباد يوماً ؟ كان السندباد لا يعرف الحب ، لانه بحار . والا فكيف يترك لمى ويستسلم لاحضان البحر ؟ وجاكلين سألت عنها : اتحب زوجها بهذا المقدار ؟ الجميلة لا تحب ، زوجها او غير زوجها ! جاكلين ، لم القسوة هذه ؟ مسيو عصام ، الجميلة هي النرجس . هي التي ستموت يوماً عطشاً لانها لا تستطيع النهل من جمالها . اما فرنندو غوميز ، الاسباني ، الذي كان رفيق وديع في القمرة ، فكان يضحك ويرتفع بطنه وينخفض لضحكته . العرب والاسبان من دم واحد : هكذا يقول . والعرب والاسبان يقتلون من أجل المرأة ، ويقتلون المرأة ، عشقاً وغيرة وشرفاً . والعرب والاسبان وحدهم ، وحدهم دون غيرهم ، يعرفون عبادة الجمال في المرأة : في استطاعتهم وحدهم ان يعيشوا فيها ويموتوا فيها ويتركوا كل ما هو ليس منها لغيرهم . فضيلة ورذيلة معاً ، يا سنيور عصام . أما السنيورينا لمى فلن يكون لجمالها من نهاية الا المأساة ....

ولم يعلم احد بالذي بيني وبين لمى .

كلما اقتربنا من السواحل ، سمعنا صياح النوارس .

صياح حاد يباغتنا ، يشقشق الفضاء . واذا اسراب النوارس تهوي إلى البحر في اتجاهنا كالسهام ، ثم تنطلق عالية صاخبة ، لتتبعثر وتحوم في دوائر منداحة ، على اجنحة بيضاء عريضة تنساب انسياباً ولا ترف ، ثم تتهاوى من جديد ، نثارا من حركة لا جهد فيها ، تصل بين زرقة السماء وخضرة المياه ، كلها فرح بحريتها الصادحة .

في بغداد ، ايام صباي ، كنا نرقب النوارس في الايام الربيعية على نهر دجلة تتراشق هكذا في رحاب الفضاء ، وتسف قرب الشطآن الكدرة حيث نلعب او نسبح . او نلقي لها بفتات من طعام في ظل الشناشيل المشرفة ، فتحط متزاحمة عليها حط الكواسر ، ثم تنطلق متنائية عنا إلى مياه أخرى وصبية آخرين .

كنا انا واميليا متكئين على الحاجز نرقب النوارس الأولى ، وهي تروي لي عن حياتها في بيروت ، عن زواجها الذي لم يطل ، وعن زوجها الذي اصر ، في نزوة جنونية ، على الترهب في أحد أديرة الجبل .

ما اسرع ما تصادق الناس على البحر ، وتتوهم ان صداقتك هذه ستطول مدى العمر . الناس في السفينة يضحكون بسهولة ، ويحبون بسهولة ، ويعترفون بسهولة ، ثم ينسون كل شيء بسهولة . ما الذي يستطيع المرء فعله غير ذلك ، وهذه الجزر الاغريقية كالدرر الخضراء ترصع البحر ، وهذا فرنندو يحمل كرشه الكبير برشاقة الراقص على سلالم الباخرة واميليا تبدي للعين نصف نهديها ، وجاكلين دوران تتمشى ، وردفاها كفلقتي فاكهة محشوان في بنطلون أصفر ضيق ، مع ذلك الاسمر الكث الشعر ، الكبير الانف ، وديع عساف ، الذي ولا ريب سيغتصبها ذات ليلة في مقدمة السفينة على مرأى من النجوم المتلألئات الكبار ؟ لقد بدأوا يطلعون من السراديب . اطفال يتصايحون باليونانية ، وطلاب مصريون ينكتون ، ينكتون باستمرار ، ثم

ينصرفون إلى لعب الورق ويغضبون ويتشاتمون ، ثم يقهقهون إلى ما لا نهاية .

من كل مدخنة ينطلق الدخان احياناً كجني عملاق يتعاظم ويتلوى ، ثم لا يبقى له أثر ، ككل جني . وقد ينطلق نفير السفينة في عواء غليظ ، فيجيبه نفير غليظ من سفينة اخرى . والركاب يلتقطون الصور لبعضهم البعض ، عند زوارق النجاة المعلقة على الجوانب ، على درجات « البرج » ، على حوافي بركة السباحة .

وأنا واميليا نتحدث . وندخن . وقد جعل كلانا يعرف الاخر ، وانا اشغل نفسي بها عن لمى ، بشيء من الاصرار ، وكثير من اللؤم . لقد بدأنا نلعب لعبة العشاق — عشاق السفرات الملاح القصار . فاذا وضعت يدي على يدها ، ادارت كفها لتلامس كفي . واذا دنوت منها ، دنت بخدها اكثر لانشق عطرها . التصقت بها ، فالتصقت بي . دفنت وجهي في شعرها الطويل الشذي . وضحكت : « بالنسياغا؟ » فضحكتْ : « لوديس » . وابتعدت عنها ، وهي تقول : « عصام انت مغامر » . فقلت : ليتني كنت ! » قالت : « احذر من ورطة كبرى ! » فضغطت بيدي على يدها ثانية وقلت ، « شكراً للنصيحة . »

بعد العشاء كنا نشاهد فيلماً سينمائياً ، أو نرقص ، وعشرات من الناس جالسون حول القاعة يرقبوننا راضين بمتعة الفرجة . شوكت ابو سمره لم تفته حفلة رقص واحدة . كان يجلس في كرسي كبير على طرف من القاعة ويتفرج ، وأراه احياناً ورأسه يتدلى على صدره من النعاس ، فاوقظه ضاحكاً ...

في الاسكندرية نزلنا انا واميليا إلى المدينة ، وركبنا عربة يجرها حصانان نشيطان ، ويسوقها حوذي يعلق بمرح على كل ما نراه . اخذنا طوال الكورنيش إلى بلاجات تضج بالبشر والرياح والشمس. والرياح تهب على الارصفة المظللة ، حيث تنتشر كراسي المقاهي ،

باردة عطرة بعبق البحر .

وعندما نزلنا في اراكليون ، في جزيرة كريت ، ذهبنا إلى كنوسوس ، وبرفقتنا فالح ولمى ، ووديع وجاكلين ، لنرى على الرابية المخضوضرة قصر مينوس – ومتاهة المينوتور . ما أروع الصخور التي هندسها ديدالس وهي ما زالت بخرائبها تتصيد أشعة الشمس قرابة اربعة آلاف سنة خلت ، لتحفظ سر غرام شبق رهيب ، رغم انفضاح خفاياها اليوم .. تحدثنا عن أريادنه وغدرها بابيها من اجل عشيقها الغريب ثيسيوس ، وتحدثنا عن اكارس ، وتساءل وديع : « ترى، اين جزيرة اكاريا التي وقع في مياهها بعد طيرانه؟ هل سنمر بها ؟ »

قلت : « هارب آخر ! ولكن جناحيه خذلاه . »

قال : « اكارس من ابطال صباي : لم يخذله جناحاه بقدر ما خذلته الشمس ... »

وفي بيريوس نزلنا انا واميليا وحدنا ، واستقللنا القطار إلى اثينا ، وصعدنا إلى الاكروبوليس ونحن ننضح بالعرق . والتقطت صوراً لأميليا بين خرائب البارثنون ، وانا اقول ان معجزة الحجر الابيض هذه اروع ما بنى الانسان في ثلاثين قرناً من عمارة ، ولكأن خرائبه الوهاجة نفسها جزء من فتنته الهندسية . « اذن، » قالت « لنشكر بحارة جنوى الذين قذفوه بالمدافع ! » « بل العثمانيين ، » قلت ، « الذين لم يجدوا مكاناً أفضل منه لتخزين متفجراتهم ! . »

بين الاعمدة الأيونية لمحت لمى وفالح ، وتعمدت التقاط صور لاميليا تبدو فيها لمى في الخلفية ، وقد رفعت رأسها على ذلك العنق الشهي ، تتأمل « الكرياتيدات » وهن يحملن على رؤوسهن سقف هيكل صغير . وهل كان ثمة ما ينسجم مع أعمدة البارثنون الشامخة اكثر من قوامها ؟ كنا نلعب لعبة القط والفأر ، عن وعي او غير وعي .

كانت اميليا تضطرب احياناً اذا لمحت الطبيب وزوجته على مقربة منا ، فكنت اضحك من هذه الايطالية التي ما كادت تعرفني حتى باتت تريد احتكاري . او هكذا حسبت . واكثر من مرة تحدثت عن لمى ، وسألتني عن زوجها : أجراح ناجح ؟ معروف في بغداد ؟ غني ؟ محبوب ؟ الاسئلة المألوفة التي تطرح دونما تركيز كثير ، لتلقى اجوبة لا تتوخى الدقة .

« ألم تمل تلك الفتاة اللاصقة بك كالذبابة ؟ » سألتني لمى مرة ، ونحن على انفراد . فقلت : « انها مسلية ، تحدثني عن الحياة في بيروت ، وأنا لا اعرف شيئاً عنها . وهي جميلة ، ألا توافقين ؟ »

ــ كذاب ، مراوغ !

فقلت مستمتعاً غيرتها : « ابداً . انها جميلة وذكية . وتعرف الكثير عن حضارة البحر المتوسط . »

ــ تتحدث مثل فالح ! ما كنت اعرف ان الرجال يحبون الذكيات إلى هذا الحد !

ــ فالح ؟ وهل يستلطفها هو ايضاً ؟

ــ سأكسر رقبته ان فعل !

وتركتني وهي تضحك لتنضم إلى وديع والآخرين .

اما وديع فلم اكن اعرف مدى اهتمامه الحقيقي بجاكلين . انه يفيض بالكلام من كل جانب ، فلا تستطيع فرز الحقائق عن الشطحات فيما يقوله ، كأنه يريد افراغ ما تجمع في ذهنه على دفقات كبيرة ، ولا يأتي إلى نهاية . « ما الذي ستفعل بجاكلين عندما تنتهي السفرة ؟ سألته .

فقال : « ارجو ان اكون قد انتهيت منهما معاً ، كحالك مع فتاتك الايطالية . انها تريد مني اهتماماً ما عدت استطيع مثله مع أحد ، امرأة كان ام رجلا . »

– نرجسي !

– غريب ! هذا ما قلته انا لجاكلين . قلت لها : انت نرجسيّة ، اكبر نرجسية . تشتهين نفسك عن طريق مرآتي . فقالت : وحضرتك ؟ فقلت : وأنا اشتهيك نرجسياً ايضاً ، ولكن كمرآة لك . أعني ، يلذ لي ان اعكس شهوتك ، فأشتهيك ، او اشتهيك فاعكس لك الشهوة التي ترقرق على جسدك .

– المصيبة يا وديع ، بالنسبة اليك ، الكلمة هي الجسد .

– وهل هناك ما هو اطيب من ذلك يا عصام ؟ لماذا نعمي اعيننا بالقراءة طيلة حياتنا ؟ وجاكلين تطرب لذلك . تريد ان تتعلم اسماء اعضاء الجسد واحداً واحداً ، باللغات الثلاث ! من الشعر الى النهدين الى البطن الى الفخذين . تتلفظ اسماءها كتلفظ الاغاني . كأكل التفاح . تشرب النبيذ . أسمع القرش اللذيذ تحت اضراسها . واشعر بالانسياب اللاهب حول لسانها . قلت لها ذلك ، فقالت لم اضحك في حياتي بقدر ما ضحكت هذه الايام القلائل . اضحك لانك تتلذذ بفضح خفاياي . لا خفاياي النفسية، بل ...، فقلت : قوليها يا سيدتي، الجنسية ؟ قالت : طيب ، الجنسية . ما كان بيني وبين نفسي سر مكتوم لا اكاد احدث به نفسي تعابثه أنت ، وكأنك تعابث طفلا بريئاً . تجعل الحب لعبة ، والمضاجعة اكلة تفاح ... تصور ، جاكلين نطقت بذلك ! وهي تعلم انها ستضطر يوم الأحد القادم لأن تعترف به لكاهن في الكنيسة . فيقول لها الكاهن : لمن قلت ذلك ؟ تقول : لعربيّ على ظهر السفينة . فيقول : عليك بتلاوة «السلام عليك» مئة مرّة ، و «أبانا الذي» مئة مرة . واحذري العرب بعد اليوم ، لان ليس بينهم من يقنع بامرأة واحدة ...

أغلب الظن ان يوسف رامز حداد ومحمود شعبان الراشد ركبا السفينة ايضاً في بيروت ، ولكننا جعلنا ننتبه لهما ، فيما اذكر ، بعد الابحار من الاسكندرية ، ونحن نقترب من السواحل الاغريقية ،

اذ أبدى يوسف اسفه على أن التريث في كل ميناء نرسو فيه لن يكون طويلاً بالقدر الذي نشتهي ، مع ان الهركيوليز ، وهي من سفن النزهات البحرية الطويلة ، كانت بطيئة عن عمد ، تتيح للركاب الاستجمام والاسترخاء : النوم الطويل اذا أراد ، والاحاديث الطويلة اذا اراد ، والعلاقات الممتعة التي قد ينشدها ، والنفس في بسطتها بين امتداد البحر وغفلة السماء . يوسف ومحمود : دون كيخوتي وسانكو بانزا . هكذا خيّل الي اول الامر ، اذ رأيتهما متلازمين. يوسف شاعر ، طويل القامة ، ضامر الوجه ، له لحية مدببة ، في عينيه بريق من لا يقنع بما يرى بعينيه . ومحمود ، بدين قصير ، ذو نظارة غايظة ، يكركر بين الحين والحين بصوت غايظ يئز ويصر فوق صوت رفيقه الحالم الهادئ ، وهو يكاد يركض وراءه . ولكن تبين ان من دأب محمود ان يستشهد بابيات من الشعر في كل مناسبة ، في حين ان صاحبه لا يذكر الا شعره هو — ولا يفعل ذلك الا نادراً . يوسف ابناني . اما محمود ، فلم استطع الجزم من اي بلد عربي هو . فقد كانت لهجته خليطاً من المصرية و «الشامية» ، وقد حسبته دمشقياً ، وايدني وديع في ذلك . ولكن لما سأله أحدنا مباشرة «من اي بلد الأخ محمود ؟ » أجاب : «اني اسافر بليسيه باسيه .» وقد علمت فيما بعد انه يحمل شهادة دكتوراه في القانون من جامعة جنيف ، اذ اهداني كتاباً من تأليفه مطبوعاً ببيروت ، عنوانه «شرعية السلطة ، بين الدستور والثورة» . وبالطبع لم يتح لي عندها ان اقرأ الكتاب .

هو الآخر ابدى اعجاباً بلمى — كأنما الاعجاب بلمى أصبح رابطة تجمع فيما بيننا — ولكن خيل الي ايضاً ان حواراً بدأ بينه وبين الدكتور فالح ينقطع ثم يستأنف ، معظمه سياسي يتناول احوال الاقطار العربية . غير انه لم يغفل عن عدد من الفتيات كن قد ملأن السفينة على غير توقع منا عند مغادرتنا الاسكندرية ، معظمهن طالبات يونانيات ومصريات .

«مأساتي هي اني لم اتشبث يوماً بامرأة ، » قال محمود . «احبهن

جميعاً . جميلات ، دميمات ، سمر ، شقر ، هات ما عندك . تماماً كما يقول الانكليز : اي شيء عليه تنورة . صديقي يوسف هو صانع الشعر ، وله ان يتدلل ما شاء له الدلال . اما انا فمستهلك الشعر ، والنساء في مذهبي شعر — عمودي ، حر ، مقفى ، بلا قافية . كل شيء فيهن ، كما في الشعر ، سحر حلال . ولكنني لا اتشبث بأي منهن تشبثاً خاصاً . ينقصني الجلَد على المتابعة . عندما تتفجر الدنيا بكل هؤلاء النساء ، أليس من السخف ان نركز على واحدة منهن دون غيرها ؟ في السياسة ، او الفلسفة ، أنا أحادي . اما في غير ذلك ، فأوثر الجمع . ليتني كنت في السياسة كذلك ! ذقت منها الامرين ، كمن تجلده زوجته كل ليلة ، فلا يزداد الا تعلقاً بها . اما المرأة ... اتدري انني لسنين طويلة لم اكتب رسالة لامرأة ؟ السبب ؟ لانني كنت اخشى ان انا كتبت لامرأة ، ان اغازلها . أو تحسب هي أنني أغازلها . لا انكر انني كثيراً ما كنت أجد الاغراء شديداً بذلك . فادفع يدي بعيداً عن الورقة ، لئلا تخط كلمة تكشف عما في النفس اكثر مما ينبغي ... وانا عندما اكتب ، على كل ، افضل ان اداور واحاور ليبقى الكثير طي الصمت — طي اللاقول . ولكن فلأعترف .. في المدة الأخيرة زلقت قدمي اكثر من مرة . هناك عذوبة ما ، حلاوة ما حارة منعشة ، تأتيني ، اذ أبدأ بالكتابة ، كشلال يبدأ بالتساقط شيئاً فشيئاً حولي ، ويهدد — او بالاحرى يعد — بان يغمرني من رأسي حتى القدم . قد اباعد بين نفسي وبين الشلال ، بهديره الطروب ولمساته الماجنة على الجسد ، وذلك بالتشبث بوعيي ومنطقي . ثم اراني اخاطب هذه التي اخشاها قائلاً ، لم لا أقتحم الشلال واستحم في طربه ؟ فالشلال يا عزيزتي هو أنت . اريد ان استحم بك ، بكلماتك ، بيديك بشفتيك . اريدك تتهاوين علي وانا صامد لدفقاتك ، الى آخره ، الى آخره ... »

لم يكن يسعني الا الضحك اذ اتخيل سانكو بانزا هذا وهو يسبح

في شلالاته الشعرية ، فاراه عارياً ورأسه المفلطح يهتز يمنة ويسرةً ، وبطنه يهتز علواً وسفلا ، وهو يطرطش مياهه الحبيبة على بدنه المكوّر ... وكان يوسف يضحك مثلي ، ويستحثه على المزيد . فقال : «اتدري يا يوسف ، أعجبت مرة بسيدة شقراء في بيروت . كانت تنظم الشعر بالفرنسية والعربية وتقرأ علي ما تنظم ، وانا لا افهم منه حرفاً واحداً.. فقلت لها يوماً : قصائدك جميلة . ولكنك قصيدة اجمل منها كلها ، قصيدة أريدك ان تقرأيها بملء جسدك ، من شعرك الى قدميك . اريد لسانك يدير قصيدتك على لساني . ترى ما الذي ستقولين عندئذ ، وبأية لغة ستقولينه ؟ فقالت : وهل للقول عندئذ من ضرورة يا محمود ؟ قلت : يداك ويداي ستعبر وتثرثر وتبدع ، وفمي يتصيدك بيتاً بيتاً .. اهصرك هصر السماء للارض في ليلة مظلمة ، انقب عن كل سر فيك ، وقد استخرجتك كلؤلؤة كبيرة من بين ثيابك .. »

«لا لا يا محمود ، تخنتها ! » قال يوسف .

— المهم ، هذا الذي حصل . اخرجت اللؤلؤة من محارتها .

فقلت : «وانقطعت الشقراء عن قول الشعر ؟ »

«لتلك الايلة على الاقل ! » وضحك محمود ضحكته الصريرية ، والتفت حوله لينظر الى سيقان الطالبات المستلقيات على ظهر السفينة ، واردف : «اللهمّ عونك ، اللهم سترك» !

أما يوسف فلعله كان يروي شيئاً من شعره حين سمعته يقول (مشيراً ولا ريب الى لمى ، دون غيرها) :

«اللمى ضحكتها
ضحكة الشفة الشهية
والثنايا اللؤلؤية
ضحكة الوعد بقبلة سكرى
وعضّة الشبق البربريّة .. »

في وسط ذلك الجو لحظت ان الدكتور فالح حسيب اقلنا كلاماً ، واكثرنا عزلة – رغم استحالتها . كان يتمشى وحده او مع لمى وفي يده كتاب. واكثر من مرة رأيته جالساً في الظل الى مائدة صغيرة ، والكأس امامه ، وهو يكتب . يمر به الناس ولا يراهم . وعندها تكون لمى بين جمع من الركاب تتحدث ، او تستلقي على انفراد في كرسي قماشي ، بمنظرتها السوداء الكبيرة وتقرأ . ولكن النوارس كثيرة ، تهوي من حيث لا تدري على كل ما يمكن لها ان تنشب مناقيرها فيه . فكانت لمى ، مهما حاولت الانفراد ، محط المناقير النهمة . وانا ارقبها من بعيد ومن قريب . أرقبها وان لم تكن هناك . تدور في مخيلتي دوران الشهوة ، والحقد ، والمرارة . واعلم كذلك ان زوجها يرى كل شيء وهو يشرب ويعلق ساخراً ، ويكتب . ما الذي كان يكتبه في تلك الساعات ؟

لم ادر الا فيما بعد ، في النهاية ، عندما قرأت بعض ما كتب . ولكنه لم يفته ان يعلق معي على النوارس . «يجب ان تراها في بحار الشمال ، في المياه الاسكتلندية . صارمة جارحة . رهيبة . انها غربان بيضاء . في العراق ، كما تعلم ، يسمي الناس النورس «نعيج الماء» . ولا أشك انهم يعنون بذلك «نعيق الماء» . النوارس نعيق . رغم بياضها الرائع ، فانها تتجمع ، وكلها نعيق ، على الفضلات ، على القاذورات ، تجمع الغربان على الجثث . انها غربان البحر . أكرهها ...»

كنت اكاد اخشى الحديث الى فالح ، اذ أبدو معه اشبه بفتى حالم يتحدث الى رجل تعبت اظفاره من الانغراز في ألياف الواقع ، في زوائد المرض ، في خلايا اللحم الانساني ، حيث لا محل للحلم ، او هراء العواطف . ذلك الهراء اللعين الذي جرتني اليه لمى جراً من جديد ، وهي تتظاهر بالجهل ، بالبراءة . «العواطف يا عصام ؟.اتضحك علي ؟ تقصد الجنس . ارجوك ، حدثني عن الجنس ، واترك الحديث عن الحب

والهيام للاطفال . كيف امورك الجنسية ؟ »

ــ زفت !

ــ حسناً . الآن فهمت ! لمى ، اسمعت ما قال عصام ؟ قال ان اموره الجنسية زفت. وصعد الدم الى خدّي لمى بحمرة الخمر. ثم قالت:

ــ الم تسمع بمشاكل المثقفين في بغداد ؟

فلم استطع الا ان اقول ماكراً «المتزوجون منهم أو غيرالمتزوجين؟»

ــ المتزوجون وغير المتزوجين ، سواء بسواء ...

فقهقه فالح على غير عادته : «بل المتزوجون ، اكثر من غيرهم . »

وجرع بقايا كأسه جرعة واحدة . فقلت في نفسي : ضحكتك يا فالح غير طبيعية . ترى كيف امورك الجنسية أنت ؟ كم مرة بلغت بلمى ذلك الجنون الرائع الذي بلغته انا بها مرات عديدة ؟

«عن كل أمل تخلّوا ، أيها الداخلون هنا» .

هذا ما كتب على بوابة الجحيم ، كما يروي دانتي . والناس يجدون التخلّي عن الامل أمراً عسيراً . فتدخل أفواجهم الجحيم وهم يبكون ويزعقون ، لأنهم تخلّوا عن الامل ـ او لأن الأمل تخلّى عنهم . ولكنني ما عدت آبه لذلك . فقد كنت من «الداخلين هنا» ، عرفت الجحيم طولا وعرضاً ، وخرجت منه ثانية . الأمل ؟ ما عدت أعرف عنه شيئاً . لدي عقيدتان او ثلاث لا استطيع التخلي عنها . وأما البقية فقد تغيّرت معانيها ، او انغلقت عليّ ، وكأنها تقال في لغة نسيتها . واليأس ، ما الذي يعنيه ؟ الجحيم ؟ واذا خرج المرء من الجحيم ؟ يعيش المرء كابوساً متواصلاً ، واذا الله يسبغ عليه من نعمته فيرى فجأة ، على غرار دانتي ، الفردوس وبياتريس تحملها له زوبعة عاصفة والبحر يخفق من ورائها ، فيمحي الكابوس ، وتنسى أهواله ، ليلة او ليلتين . مرة او مرتين لمحت بياتريس ، فكانت اللمحة ثورة أشدّ وأعنف من كل

ما عرفت . الأمل ؟ اليأس ؟ لا . ثمة منطقة أخرى وراء هذا كله ، حيث يقصر الأمل وتقصر الكوابيس . لقد دخلت الجحيم . ولما خرجت منه ، وجدتني في عالم غير الذي عرفته . كل شيء يبدو أشد بريقاً ، وأحرّ وهجاً . مدن غريبة ، بريقها كلألاء الصدف ، أزرقها وبنفسجها في لون السماء بعد المطر ، ضبابها في شفافية الدانتيل على نهدي غانية ، وضوضاؤها في حمرة الدم ، تقصف كالنار ، وتهسهس من خلالها أصوات النساء .

أكاد اشعر أحياناً انني اخادع البشر ، او اخادع الله ، اذ استطيع السفر من قطر الى قطر ، ومن قارة الى قارة ، واستطيع الاهتمام بما يجري حولي ، واستطيع الضحك بملء حنجرتي ، كأنني ما زلت واحداً من هذه الملايين التي لم تدخل الجحيم والتي ، لو رأت الأمر المدوّن على بوابته ، لارتعدت خوفاً . هذه سفرتي الثالثة الى اوروبا بحراً ، ولعلها السادسة او السابعة اذا عددت سفراتي بالطائرة ايضاً . ولكن سفراتي بالطائرة أشبه بالحلم ، وتنقضي كالحلم — غفوة بين صحوة وصحوة . ولذا كلما قلت لنفسي : هيّا يا وديع . سافر . شوف الدنيا ، سافرت بحراً . لا لأن البحر هو دنيا وحسب ، بل لأن السفينة تشعرك جسديّاً بانسيابك خلال الزمان والمكان معاً . الطائرة تكاد تلغي الزمان . فهي تلغي فيك ذلك الحسّ الانساني بالنمو والايناع والتغيّر ، وتؤكد على أنك انما تسافر في مهمة تجارية ، لا تجربة نفسيّة . ولدي ما هو حسبي من التجارة .

أكاد أقول أنني رجل اعمال رغماً عن انفي . اورثت التجارة عن ابي ، دون ان اكون مهيّأً لها . ومع ذلك ، فان عندي عملا طيباً . مكتبي التجاري في الكويت ناجح (أكاد أحسد نفسي ، والدهر قُلّب ! اذ نجحت شركتي هناك اكثر مما كنت اتصور النجاح ممكناً ، منذ اواسط الخمسينات ، وللشركة فرع مهم في بيروت . أضعت أرضي

في القدس ، واكتسبت مكتباً للاستيراد في الكويت ! نفيت عن جذوري وكوفئت عن نفيي بالبيع والشراء ! وبعد ان ماتت نعيمة في مخاضها ، وجاء ابني ميتاً ، لم أتزوج مرة اخرى . فالزواج ثانية بعد الخامسة والثلاثين أمر صعب ، وخاصة اذا كنت منقطعاً عن جذورك ، تستورد الحديد والاسمنت والسكّر والارز في بلد بعيد عن مسقط رأسك، حيث لا ترى من النساء الا المتزوجات . وبعد الاربعين يصبح الزواج أصعب . واذا كنت مهووساً بأحلام صباك وفتيات القدس اللواتي لا تراهن الا اسبوعين او ثلاثة كل سنة او سنتين — أراني احاول تبرير عدم زواجي من جديد . هناك في الواقع خمسون سبباً لعدم زواجي ، طيلة هذه السنوات . ومها الحاج تعرفها — عزيزتي مها ، الدكتورة مها ، التي لا أعرف الآن ان كانت في بيروت ام في روما . كلما عدت الى أمي العجوز في حي الشيخ جرّاح ، عادت الى موضوعها : «متى ، متى يا وديع ستتزوج ثانية ؟ فهمنا انك كنت تحب نعيمة . بس راح زمن طويل على وفاتها ، رحمها الله . ألا تريد ان تفرّحني برؤية اولادك ؟ كم سنة يحزن الأزواج؟» كأن المسألة مسألة حزن على زوجة ، او مسألة زمن . وهي لا تدري انني اشتهي الاولاد اكثر مما تشتهيهم هي . لقد رفضت حتى الآن ان اذكر لها مها الحاج ، خشية الحاحها واحراجنا حيث لا يجدي الحاح او إحراج . غير انني بالطبع حدثت مها عنها — ومها امرأة عطوف وقاسية ، معاً . تدمع عيناها لقصة ترويها لها ، ثم تتصرف معك كأن قلبها من بلاستيك . تقبل بالزواج كمبدأ ، ولكنها تماطل . تكتب الي رسائل ملتهبة وأنا في الكويت . فاذا ذهبت الى بيروت تذرعت عن عدم البت في أمرها بانها تريد المزيد من التروّي . واذا عقدت العزم في المساء ، نقضت العزم في الصباح . كأنني لم أبلغ الثالثة والاربعين ، وكأن أمامي اربعين سنة اخرى من الشباب والفحولة . او كأن ما جمعت من مال لا يكفي لما عقدت النية عليه . في الواقع ، لم اقم بهذه السفرة ، الا

لانني ظننت ان مها سترافقني – ان لم يكن كزوجتي ، فكخطيبتي ، او صديقتي على الاقل . بل انها هي التي حجزت لي مكاناً في السفينة ، ثم تركتني للبحر وحدي ، وصعدت الى السفينة في بيروت حانقاً ، ساخطاً ، أشتم النساء وكل من يريد الزواج والبنين في هذا العالم البربري الجائر . فلأسرح ولأمرح ! بارك الله الحرية ، في عصر انعدمت فيه الحرية . لتذهب مها الى روما بالطائرة وحدها . لتذهب الى مؤتمرها الدولي ، ولتتحدث عن امراض النساء الى أن يبح صوتها. قيد اخر كسرته عن كاحلي . الارض التي اشتريتها في مرتفع وراء كروم حلحول أفضل من ألف امرأة . سأزرعها بيدي . سأهجر بغاء التجارة . سأزرع الكروم وأشجار الصنوبر ، والبندورة ، والتفاح . سأحفر آباراً ارتوازية . هذه العشرون ألف دينار التي جمعتها ستكفي لأن أمد لي جذراً عميقاً في أرضي من جديد . فلأسرح مرة أخرى . وان انا غبت عن مكتبي عدة اشهر فان لي من اثق فيه في تسيير شؤونه . عندي اولا شريكي الكويتي خالد الفهد الذي كان لمساعدته المالية الفضل الاكبر في توسيع نطاق اعمالنا . وعندي ابراهيم عيسى وفخري صافيه . خصوصاً ابراهيم : ولد طموح ، عاقل ، دؤوب ، يتقن لغة التجارة ، ويأمل في ان اجعله شريكاً في ادارة المكتب . وسأجعله ، ان هو بقي على هذه الامانة ، وهذا الانتاج . فلسطيني آخر . اشتغل اولا ببغداد ، ثم انضم الى مكتبي . وتزوج ابنة حلال من رام الله اسمها مريم ، انهت دراستها في كلية بير زيت . آه ، بارك الله الحرية . ولاتمتع بوهمي هذا . فلسفتي بهذا الشأن واضحة لا لبس فيها : لك ان تتمتع بأي وهم تشاء ، ما دمت تعلم انه وهم . ولكن حالما تبدأ الظن بان وهمك حقيقة ، فانت في خطر.

سفرتي في هذه السفينة ، شكراً للعزيزة مها ، من اوهامي اللذيذة . فالبحر يوحي اليّ بالمغامرة . ولكنني أعلم ان المغامرات البحرية في عصرنا هذا لا علاقة لها بالسندباد . (لا اظن ان السفينة ستغرق واكون

الناجي الوحيد بين الركّاب) جلّ ما هناك انك قد تتعرف – وقد لا تتعرف ابداً – باثنين او ثلاثة لم يخطروا لك ببال من قبل ، فتجد في عشرتهم متعة . او قد تتعقد علاقاتك بهم ، فتحب هذا ويكرهك ذاك ، وتبلغ ميناءك الاخير وفي دفترك عنوان جديد ربما يعنّ لك فيما بعد ان ترسل اليه بطاقة بريدية او ، على الاكثر ، رسالة موجزة تقول فيها انك بخير ، وكيف حالك انت . وما اخبارك ، الى آخر ما هناك من عبارات القطيعة الطيّبة .

طبعاً ، هناك اسباب اخرى تجعلني أحب البحر المتوسط حباً خاصاً . أسباب عاطفية صرف . كنت اليوم اتحدث عنها ونحن في طريقنا الى خرائب قصر مينوس ، لشاب عراقي من بغداد يدعى عصام السلمان . لفت نظري هذا الشاب من بين العشرات من الركّاب لانه يشبه لوردا انكليزيا متنكراً في زيّ اعرابي – او بالعكس . فرز احدى الشخصيتين فيه عن الاخرى صعب (وغير ضروري) . ثم انه تعلق بي في الحال ، وهو لا يعلم انه تعلق من سيء الى اسوأ . أتصوره يقارب الثلاثين . كثير الاسئلة ، ولكنه ايضاً حسن الاصغاء ، ويسخر من نفسه ببراعة لا بد جاءته عن ممارسة فكرية ترفض الغرور في الذات كما في الآخرين . أكاد اجزم انه هارب من بغداد لسبب سياسي او .. لا ادري . كلّهم في حيرة ، هؤلاء الذين هم دون الثلاثين . ويحسبون أننا وجدنا طريقنا ، وانتهت حيرتنا ، لاننا سبقناهم اليها بعشرة اعوام او خمسة عشر عاماً . عرّفتني به أميلياً فرنيزي (من أصدقاء مها في بيروت ، حيث التقيت بها مرتين او ثلاثاً) . تقول انها وجدته في الليل على ظهر المركب يعدّ النجوم فراحت تعدّ النجوم معه ! سألتني بدهشة عن مها حالما رأتني . متظاهرة بأنها لا تعلم ان مها ، بعد خصام عنيف بيننا ، قررت عدم السفر معي قبل اقلاعنا بثلاثة ايام . قلت لها ان الدكتورة ستطير بعد ايام الى روما لحضور مؤتمر دولي عن الامراض النسائية . آ ، قالت مستضحكة ، اذن

ستلتقيان هناك ؟ فقلت : ربما . ولكن ، على الارجح سأذهب الى باريس بدونها .

الى باريس . كانت فكرة طارئة قفزت كلماتها الى لساني دون ارادة مني ، وانا اتحدث الى رفيقي في القمرة ، فرنندو غوميز . واقترح عليّ الذهاب الى مدريد . ولكنني لم اتابع فكرتي ، ولا اقتراحه . ليتني كنت كفرنندو ، ذاهباً الى بلدي الذي لم يشطر اجزاءه سيف أحمق . ليتني كنت مثله ذاهباً الى بلدتي ، قادماً من بلد غريب ، وفي جيبي حصيلة اسفاري ، فاحط الرحال في البلدة ، وآخذ الكمان مثله ، وابحث عن صديقين او ثلاثة يعزفون على آلات اخرى ، ونؤلف جوقة موسيقية فنعزف ويرقص الناس ، ونرقص مع آلاتنا وهم يرقصون مع نسائهم ، ونلاعب بأعيننا السليطة أعين الجميلات منهن ... من علبة ليلية ببيروت ، عبر المياه المتلاطمة في صيف مشرق ، الى أرض فيها عنب وتفاح ، ومعاصر للخمر تشربها النسوة مع الرجال : هذا فرنندو غوميز ، ذو الاربعين سنة ، والكرش الطيب ، والشفة الضاحكة ، والايمان بالله والعذراء . كاثوليكي مؤمن ، تصدّ الكنيسة عنه آلام الخطيئة .

أما انا فلا يصدّ عني آلام الخطيئة شيء . أقبل تبعاتها دونما ندم ، دونما تبرم . من اللحظة الاولى التي ارتقيت فيها سلم السفينة ، أحسست كأنني خلعت مها عني خلع المعطف القديم : كانت هذه السفرة لها هي ، ثم رفضتها في الساعة الأخيرة ، ولربما حسبت أنني سأقلع عن السفرة أنا ايضاً ، وأبقى في بيروت أترجى رضاها ، آخذاً اياها من مطعم الى مطعم . اصطدمت بجاكلين وجهاً لوجه عند مأمور الجوازات ، وصعدنا الى السفينة معاً . تبادلنا بضع كلمات تترنح بين العربية والانكليزية والفرنسية . سائحة عادت من زيارة القدس وبيت لحم ، وتحمل حول عنقها صليباً صغيراً . أقامت مدة في لبنان ، وحاولت ان تتعلم العربية ، او تضيف الى معرفتها الفصحى التي درستها في احدى الجامعات الفرنسية

شيئاً من العامية . لها وجه لوّحته الشمس ، وجه من يحبّ السير مسافات طويلة ، لا يثنيه عنه حرّ او برد . تكاد لا تستعمل مساحيق الجمال ، فيما عدا شيئاً من الكحل . وإن كنت أهوى الوجه الذي تتفنن صاحبته في تجميله ، أو اهوى الشعر الذي لا تتردد صاحبته في تصفيفه كل يوم على غرار جديد ، وتضيف اليه البوستيج المرسل الغدائر كلما اقتضى الامر ، فانني وجدت في جاكلين بشعرها القصير ، وبشرتها الملوّحة ، وجمالها الغلامي ، هوى يجعلني اتمتع بحديثها ، بصوتها ، بجسمها الرياضي المشدود كالوتر . حديثها ؟ لعلني أبالغ . فنحن نتحدث بمزيج من لغات ثلاث ، لا انا اجيد لغتها ولا هي تجيد لغتي ، فنتفاهم ، الى حد ما .

او لعلنا لا نتفاهم ، فتبقى العلاقة بيننا على شيء من الالتواء والتحفز . (طبعاً ، لو علمت مها لغضبت . ومن يدري ؟ لعل أميليا قد ارسلت اليها رسالة من الاسكندرية تقول لها فيها : ما كاد وديع يدير ظهره اليك ، حتى احتضن متشردة من مونمارتر !) مهما يكن ، فان التفاهم صعب . حتى في أحسن الحالات . هناك تساهل ، هناك تغاض ، هناك عدم اكتراث . أما التفاهم الحقيقي فشيء نادر . ذلك لانني ربما ما عدت آبه ان يفهمني الشخص الآخر ، لكي لا يطالبني بفهمه . اتركني في جزيرتي أرجوك ، في قلعتي ، في صحرائي الخاصة ، سمها ما شئت . صعب جداً الاّ تقبل بان تنخدع بشيء . تراهم كلهم يقفون وقفات الممثلين ، يشبّرون ويفترّون ، ضحكاتهم ترن ، وعياطهم يشق الآذان وتنخرط معهم كأنك واحد منهم : ولكنك تعلم ان وراء ذلك كله أنفساً بحجم كف اليد ، أو أصغر . حتى المحزونون منهم ، يعجزون عن اقناعك . المحزونون هم الامهات الثكالى فقط ، والذين عرفوا التمزق في الجذور . أما الآخرون فيسبحون على الاغلب في مياههم الضحلة ، مستسلمين «للموج» الذي يتخيلونه — ولو كان موجاً حقيقياً لما اقتربوا منه بأكثر من ميلين اثنين .ولم الاقتراب من الاذى ؟ ابعد

عن الشر وغنّ له . ابعد عن الحياة وغنّ لها . الهريبة ثلثا المراجل . اذن فالتفاهم غير مهم ، لأن التبادل يجري بين كميات مبهمة ، مهملة ، لا تفيد ولا تضر .

غير أني لا أفلح دائماً في الابتعاد عن «الشرّ» . الشرّ ، اذا كان معناه مزيداً من الحياة ، يجتذبني أحياناً كالمغناطيس . ربما لأنني اكثر من مرة حييت الموت عن قرب ، فحياني وفات عني . كأن قدري ، كقدر المتنبي ، يحاذرني . ولكنني اذكر ان المتنبي مات ، في آخر المطاف قتيلاً . لا بأس فانا لم أبلغ بعد الحادية والخمسين التي صرع فيها المتنبي او لعله يحاذرني لانني حتى اليوم لم اعطه ظهري ؟ ولأقلها هنا بصراحة : انا مقامر عريق ، لا يأخذني «البلف» بسهولة. ولا أقبل الخسارة بسهولة. خساراتي كثيرة ، ولكنني لا أقبلها . لم اقبل اخراجي من القدس بالرصاص والديناميت . لم أقبل رؤية فايز يتضرج بدمه بين يديّ . لم أقبل رؤية الخيام تتشبث بجوانب التلال فوق رؤوس أهلي . لم أقبل التنقل من بلد الى بلد بحثاً عن لقمة عيش مزرية ، عن سقف أقيم تحته أبي وأمي . لم أقبل أن ينظر أحد اليّ نظرة الشفقة او التأفف — خسارات كثيرة ، قامرت وأقامر دائماً للتعويض عنها . والخسارات الصغيرة التي أمنى بها كل يوم : هذه ايضاً لا يمكنني السكوت عنها . قد اسكت قولا ، الا انني لا اسكت فعلا . أقاوم ، على مهل ، بعناد ، على طريقتي . وهذا ما تعترض عليه مها أحياناً . تقول انني عنيد ، أركب رأسي ، لأنني لا اتخلى عما في رأسي لأحد . اصررت على اننا حالما نتزوج ، سنذهب الى العيش في القدس ، لاكون على مقربة من ارضي الجديدة ، وعلى مقربة من مجال العمل الحقيقي الذي أتهيأ له الآن . «وماذا افعل أنا في القدس ؟» فأقول لها : «تطببين . مجاناً اذا اقتضى الامر . » «وبماذا نعيش ؟ » « سنعيش كما يعيش الآخرون . » فتدفعني عنها ، كأنها تدفع عن نفسها سخافة غِرّ أبله : «لا أستطيع البقاء بعيدة عن بيروت يوماً

واحداً . » كيف تقنع امرأة تحبها بان في قلبك حباً آخر لا يناقض حبها ؟ وبخاصة اذا كان هذا الحب الآخر مما يحتّم عليك مجابهة العدو — مجابهة القتل ؟

أميليا ، هذا الصباح ، قالت لي — كأنها تُسمع صديقها عصام (ما مدى اهتمامه فعلا بها ؟) : «هجرت بلدي من أجل ميشال . ولكن امورنا لم تسر على ما يرام . ولو احببت رجلا آخر لذهبت الى اعماق البادية للعيش معه ، ان اراد لي ذلك . »

فضحك عصام وقال : «حتّى الى بغداد ؟»

فاجابت بحرارة : «اوه ، انها المدينة التي أحلم بها ! »

وكان على مقربة منا طبيب عراقي مع زوجة له سمراء بديعة الصنع كأنها من خلق خيال شاعر عباسي . سمعها ، فقال : «لن يكلفك الحلم الاّ اجرة الطائرة . »

— اجرة الطائرة يا دكتور سهلة . ولكن هناك مشكلات اخرى حلّها اشق واغلى بكثير .

فبادرها عصام : «اذهبي واسكني في منزلي .
لن اعود لمدة طويلة . »

لم تضحك اميليا . نظرت اليه بما يشبه الألم ، ثم قالت : «سأذكرك بدعوتك هذه عندما تنتهي السفرة . »

وعندما ذكرت لها فيما بعد أن مها متعلقة ببيروت كأن حبل السرّة بينهما يرفض ان ينقطع ، قالت ، دفاعاً عن صديقتها هذه المرّة : «ولكن كيف تركتها ، وجئت وحدك ؟ كيف طاوعتك نفسك ؟ » .

— اختلفنا .

— مهزلة . وهي التي حجزت لك المكان في السفينة .

— اتعلمين ذلك ؟

— طبعاً . الم تذكر لك كيف تمّ الحجز ؟ عندما علمتُ بانها

تنوي القيام بسفرة بحرية ، قلت لها انني ذاهبة في «الهركيوليز» ، فلم لا نذهب جميعاً معاً ؟ ولما وافقت ، ذهبنا معاً الى وكالة السفر في شارع ويغان ، وحجزنا قمرة لي ولها ، وأخرى لك انت . وقالت مها : عندما يأتي وديع من الكويت ، سأوفر عليه على الاقل هذه المشقة ! وبعد هذا كله تأتي بمفردك ، وتحرمني من رفيقة في غرفتي !

ماذا اقول لها ؟ أأحدثها عن عنادي ؟

قلت مشاكساً : «هل التقيت يوماً بجاكلين في بيروت ؟ »

فرفعت يديها في شيء من السخط : «من ؟ هذه الفتاة الفرنسية ؟ انتم الرجال ! ألغاز مخيفة ! أين نولّي هرباً من رعبكم ؟ »

وانتن النساء ، الغاز مخيفة . اين نولّي هرباً من رعبكن ؟

الباب الضيق . اذا ما تمّ عبوره العسير انطلقت النفس في رحاب كرحاب الفضاء ، حيث تدوّم الاصوات والأخيلة كما تدوّم الكواكب في عوالم أزلية مجهولة . هكذا كان عبورنا مضيق كورينث ، ذلك البوغاز الصخري الذي يفصل البلوبنيز عن بقية الارض اليونانية ، وكأنه حدّ السيف الذي يتحتم السير عليه لكل من اراد النجاة .

كان الممرّ من الضيق بحيث يبدو كأن السفينة اذا اقحمت رأسها فيه عصت عند الوسط ، او ضربت الصخور الناتئة على هذا الجانب أو ذاك . غير انها كانت قد اقحمت فيه من قبل مرات عديدة ، واعتادت على اجتياز المحنة بالمسافرين ، كل الى رحابه الخاصة . لقد ولجت فيه ولوجاً حذراً ، والركاب مزدحمون على الحواجز يلوحون بأيديهم لمستطرقين غرباء وقفوا على جسر نصب عالياً فوقهم ، وهؤلاء يلوحون

ويصيحون بتحياتهم المجانية ، وكأنهم ما وجدوا هناك الا ليؤدوا هذا الواجب لكل مسافر في سفينة . هلو ! هلو لكل راكب ! والسفينة تنساب بين فكيّ المضيق ، ومكبرات الصوت تبث انغام الناي والأوبو ليوهان سباستيان باخ ، لتفيض من بين أرجاء المركب وتنحصر بين جدران الصخر ، وتملأ الجو بنشوة من نشوات باخ الالهية . وهكذا يممنا نحو الشمس الغاربة ، ننزلق انزلاقاً الى عرض البحر ، لنخترق الواناً تمازجت المياه والسماء في أحمرها وأصفرها ، وصوب عتمة باهتة علقت بها بقايا من نور يومض ويخمد ، تتنفس في ثناياها الانغام تنفس الروح في الاشياء الحيّة . أهكذا يكون الدخول الى الجنة ؟ الرطوبة ، العتمة ، السقوف الشاهقة العتيقة ، والتراتيل البيزنطية من أجواق حناجرها تصدح كأبواق يوم القيامة . الامتداد ، العلو ، الفراغ ، الظلام ، الاشعة الراعشة تتلوى خلالها سحب البخور ، ويخالط الرائحة الطيبة عبق من دخان شموع — مئات الشموع ، والرهبان بلحاهم المربعة وشعورهم المسترسلة تتهادى على اكتافهم المسربلة بمآزر فضية وذهبية ، والكلمات لا تكاد تستبين من بين الالحان اليونانية الهادرة . ومئات المصلّين . انها دورة من دورات القيامة ... هذه الاصوات المجلجلة ، هذه الروائح المشحونة بالزمن ، بالعصور الغوابر ، بلوعات انسانية وقدها وقد شموع لم تطفئها الفان من السنين . ومن القيامة الى المغارة ، الى المهد ، الى ظلمة الصخور الجوفية الحانية حنوّ الرحم على الجنين ، ومن فوقها الاعمدة الضخمة المصقولة ، وقد لمّعتها أيدي المتبركين جيلا بعد جيل. ليلة الميلاد . البرد القارس ، ندف الثلج يهطل وينقطع ، نيران الكوانين الصغيرة تفرقع فيها حبّات الكستناء ، واصوات تنادي ، ونواقيس جذلى مدوية ، لناقوس منها ملاك ينزل من السماء ليقرعه . وفي الباب الضيق المنخفض ينحني الرجال والنساء عميقاً ليستطيعوا المرور من خلال الحجر ، الى العتمات الفسيحة بين الاعمدة : آلاف من البشر ، في

بصيص القناديل وقبس الشموع الصغيرة : تحت صليب ضخم شامخ الارتفاع ، يشاهدون الميلاد الجديد .. وأنا وفايز نتحشر بين الجموع لأن للميلاد الجديد ، كالقيامة بعد الموت ، معاني تشدّنا لهذا الليل الماطر المقرور ، لهذه الاناشيد الكورسية القديمة، لهذه الارض التي نُحت صخرها مغاور وصوامع وجوامع ، معلنة ديمومة المدينة عبر الحقب الطوال . لعل في باطن الصخر ناراً ترفض ان تخمد، كما في البعض منا . فهنالك نار قد تهبط على الواحد منا منذ الصغر ، فلا تترك آثاراً كجروح المسيح في اليدين والقدمين ، ولكنها تحط في القلب لتبقى مضطربة فيه الى الأبد ، كما في باطن الصخر . ربما انصهر لها الجسد ، فلا يبقى منه إلا ذلك العود الصامد ، في قوة الفولاذ ومرونته . ويبقى السؤال : من اين تهبط تلك النار ، ومن له ان يتلقاها ؟

على مقربة من بركة السلطان كانت تقام سوق الجمعة ، وهي سوق لبيع المواشي والدواب . في احدى غدواتي اليها ، لمحت صبياً جالساً في الشمس على حجر قرب حائط يرسم بقلم رصاص . كان يلبس قميصاً وبنطلوناً قصيراً ، وقد وضع دفتر الرسم على ركبته وراحَ يركّز عينيه في شيء ما امامه ، ويده تخطط بحركات قصيرة سريعة . سرت اليه ، ونظرت الى ما يرسم ،واذا هو يرسم بغلا استقرّ بمجرد الصدفة امامه . وقد ضحك اذ رآني واقفاً فوق رأسه . وقال : «لا هو بالحمار ، ولا هو بالحصان . يجب ان ادقق في تفاصيله لئلا يجيء حماراً ، او حصاناً ! »

وسألته بشيء من غباء : «لماذا ترسمه ؟ »

— لماذا ؟ لا ادري . ربما لأنه مخلوق آخر من مخلوقات الله .

«ولكن ، اسمح لي قليلاً ، » قلت متمعناً في الصورة ، «انه يشبه البغل تماماً ! »

رفع عينيه الى عينيّ، وابتسم ، كأن الشبه الذي حققه في الرسم أمر مفروغ منه ، وقال : «هل ترسم ؟ »

– احياناً . في المدرسة . إرضاءً للمعلّم . باذنجانة ، ابريق ، كرة قدم ، انت تدري .

– كما نفعل في مدرستنا . ولكنني احب الاشياء التي تتحرك . الناس . البنات . الحيوانات . البياعين . الفلاحات ...

كان وجهه ناحلاً ، وعيناه ، لشدة نحوله، كبيرتين. فيهما بريق وحرارة ، وايحاء بحماس أو حب ، أو شيء ما يشبه الرغبة الدافقة دون انقطاع .

عاد الى رسمه ، يظلّل بالقلم رأس البغل ، ويحدّد خطوط فكّيه وحلقات لجامه . وأنا أشعر بغيرة منه – غيرة طيبة جعلتني أحبه . الاّ أنني ابتعدت عنه دون ان اقول شيئاً ، وتجولت في السوق ، أصغي الى نقاش الباعة والشراة ، وعيناه ما زالتا تشعان في عيني . ورأيتني أعود اليه ، شبه مرغم . فقال :

– لم تجد شيئاً تشتريه ؟

– ما لي وللشراء .

– لم لا تجلس على هذا الحجر بقربي ، الى ان افرغ من الصورة ؟

جلست على الحجر وحدّقت في وجهه وهو مشغول بما يرسم . وجه مستطيل ، وأنف يبدو كبيراً ربما لضمور الوجنتين . سألته : «هل تسكن قريباً من هنا ؟»

– نعم . في جورة العنّاب . وانت ؟

– في الشمّاعة ، فوق.

– الله ! في العلالي !

– يعني . أتأتي كثيراً الى هنا ؟

– احياناً . أحب البركة لانها توحي اليّ بالبحر .

– هل رأيت البحر ؟

– مرة واحدة في يافا . هل رأيته انت ؟

– لا .

– زرقته عجيبة . قبل سنوات كثيرة وانا طفل ، أخذ أحد الرهبان جماعة منّا في سفرة الى يافا . وفي الميناء ، صعدنا الى احدى السفن التي كانوا يحمّلونها بالبرتقال ، بالونش . كانت رائحته لذيذة . اعني البحر . وكذلك البرتقال . سقط احد الصناديق من الونش ، وتحطم على حافة زورق ، وانتشرت حبّات البرتقال على الزبد الازرق يمنة ويسرة . الى الآن لم أنس ذلك المشهد . راح الحمالون يشتمون ، أما انا فكنت اتمتع برؤية الكرات البرتقالية وهي تتباعد وتتقارب ، تتأرجح وتتراقص على الموج .

جعلت الالوان تتأرجح وتتراقص في مخيّلتي أنا ايضاً ، وقلت : «يجب ان اذهب الى يافا لاراها . أبي يعمل في تجارة الاستيراد والتصدير وله وكيل هناك . سأرتب الامر معه . هل ترافقني اليها ، اذا ذهبت ؟

– يا ليت ! ولكن .

– ولكن ماذا ؟

– من الصعب ان احصل على أجرة السيارة .

– بسيطة يمكن تدبيرها . اين بغلك ؟

– عنفص ، وسرح بعيداً . ما رأيك ؟

اطلعني على الصورة بكثير من الزهو. واعترفت ، بشيء من الغيرة : بغل رائع ! وانا لا استطيع ان ارسم حتّى حماراً . كنت قد حاولت مرة واخفقت .

نهضنا ومشينا معاً . صعدنا الى الطريق ، وبعد دقائق كنا على عتبة عمارة قديمة ملطخة الجدران ، جلست في ظلها قرويات مع سلالهن المستديرة ، وقد عدن من «سويقة» باب الخليل ، بعد ان بعن ما كان لديهن من خضر وفواكه .

– نسكن هنا .

– في العمارة كلها ؟
– في غرفة واحدة منها ، في الاسفل ، من الناحية الاخرى . هذا شباك غرفتنا .
كان في جدار على مستوى القدم منّا ، فتحة مربعة لا يزيد ارتفاعها عن خمسين سنتمتراً . فقلت : «اذا اردت ان اراك ثانية اتسمح لي بالمجيء اليك ؟»
– ما عليك الا ان تنحني وتناديني من خلال هذا الشباك . اسمي فايز عطا الله .
عند العمارة ، كان الهواء اذ يعبر منطقة الظل ، يهب بارداً طيباً ، نافذاً من البوابة الى رواق حجري قصير ، في نهايته درج ينزل الى الحوش الاسفل . جلسنا على عتبة البوابة . ومرّ بنا بائع كعك فاشترى كل منا كعكة بنصف قرش ، ولما رحنا نأكلها مع الزعتر ، قلّب فايز اوراق دفتر كان مليئاً بالتخطيطات ، ثم استقر على صورة رفعها اليّ وقال : «انظر ! ألا تشبهه ؟ » كانت صورة بائع الكعك .
فقلت : «هو بعينه . هل رسمت اهل الحارة كلهم ؟»
فضحك وقال : «حتى العجائز !»
بعد مدة ، ذهبت لرؤية صديقي الجديد . وفعلت بالضبط كما قال : انحنيت الى الشباك الخفيض ، وناديت : «فايز ! فايز !» وبعد لحظات صعد اليّ . وقضينا ذلك النهار في كلام كثير .
– اتعرف صورة القديس يوحنا المعمدان التي رسمها بوتيشلي ؟
قلت : «من ؟»
– بوتيشلي . رسام ايطالي من رسامي النهضة .
– لا .
– رأيت الصورة في إحدى المجلات ، واقتطعتها . سأريك اياها .
– وماذا يهمك منها ؟ اتذهب الى الكنيسة كثيراً ؟

ـ ليس هذا هو الموضوع . كان يوحنا كما تعلم يعيش في البادية . عند البحر الميت . يعيش على الجراد والعسل . شبه عار . وجهه ضامر ، برزت فيه العظام . عيناه في اتساع الصحراء . يرى رؤى ، ويتحدث بالرموز، عن معمودية الماء، ومعمودية الروح القدس ـ معمودية النار. ضاوع صدره الناتئة تجابه المشاهد كالقسيّ الصلبة .

ـ يظهر أنك معجب به ؟

ـ معجب ؟ احياناً اراني مثله. اراني كيوحنا المعمدان، وجسده ينصهر بالنار التي تستعر في قلبه .

ـ صوت صارخ في البرية ؟

ـ تماماً. الا ترى ان ذلك خلاصة الشعر : صوت صارخ في البرية، وفي النهاية ، صوت تصغي له الانسانية كلها .

كان هو في شبه صورته اللفظية ليوحنا ، وفيما بعد ، اذ رأيت الصورة التي ذكرها مرات عديدة ، صرت لا اذكره الا في شبه المعمدان لبوتيشلي، وصور اخرى مثلها جعلت اقرنها بوجهه الفتي الناحل وعيناه تحدّقان بمتعة وتوق وتأجج . كان مثلي في الرابعة عشرة من عمره يومئذ ، ولكن فيه من النهم للرؤى ، من الهوس بقدسيّة نائية عن العالم رغم حبّه لكل ما يرى حوله من اناس ، ما لم أعرف عنه شيئاً في سنّي تلك . قدسيّة كتلك ، كنت اقول ، ستطيح يوماً برأسه أمام عيني حسناء فاجرة ، بأمر من حاكم فاسق بدين ...

كنا نلتقي بعد العودة من المدرسة عصراً ، اذ لم يكن بيننا اكثر من مسيرة بضع دقائق . اذا ما صعد اليّ ، ذهبنا الى حقل قريب يعلو حي المونتفيوري ، خلف فندق الملك داود ، حيث كانت اشجار زيتون نجلس تحتها على الصخور ونتحدث الى ان تغيب الشمس .

كنت قد قرأت كتاب «تاييس» لاناطول فرانس ، فأعطيته اياه ليقرأه . ولما اعاده غرقنا في جدل طويل حول الخير والشر . هل حقاً ان

الخير لا يوجد الا بوجود نقيضه ، الشر ، كما يحاول اقناعنا فلاسفة الاسكندرية في الرواية بسفسطة بارعة ؟ قالوا ان صلب المسيح كان ضرورياً لخلاص البشرية ، ولكن صلبه ما كان ليتّم لولا خيانة يهوذا الاسخريوطي . اذن ما كان خلاص البشرية ليتّم لولا قبلة الخيانة ! منطق مقلق . انها سخرية أناطول فرانس !

لقد أحببنا كلانا الناسك بافنوس ، واسفنا لمصيره المزري في النهاية عندما راح يلهث شبقاً في طلب تاييس بعد توبتها ... كيف كان ذلك السقوط ممكناً ؟ قد نفهم توبة المومس الارستقراطية ، ولكننا لم نفهم كيف ينتهي رجل الى الوقوع بين مخالب الشيطان ، بعد ان قضى حياته في صراع ظافر معه . هذا ما تفعله المدينة ! ماذا كان النبي يوحنا سيقول في بافنوس ؟ آه ولكننا لسنا كلنا من طينة الانبياء . جسدنا تأكله النيران التي حولنا ، لا النيران المطفأة في داخلنا : والمرأة فاتنة ، غادرة ، توقعنا وتنجو هي بجلدها ، الخ. ، الخ..

كنا في مثل هذا الحديث عند بوابة العمارة ، عندما وصل ابو فايز حاملا على ظهره كيساً ثقيلاً ، ساعدناه في انزاله عن ظهره . ثم حملناه انا وفايز معاً الى الرواق ، ونزلنا به الدرج الى الحوش الاسفل . كان الحوش الكبير يتوسط اربع غرف او خمس ، في كل غرفة منها تعيش عائلة جلس افرادها عند الباب . رجال ونساء واطفال من كل عمر . ولما فتحنا الكيس وجدناه مليئاً بما يشبه الامشاط الرصاصية . «خلايا البطاريات» ، قال فايز «يجمع ابي البطاريات القديمة اينما كانت ، ويكسرها ، ويأخذ خلاياها الرصاصية .»

– وماذا يفعل بها ؟

– يصهرها ، هنا .

في ركن من الحوش ، قرب باب غرفة فايز وأهله ، على مقربة من مرحاض قذر ، كانت الأثافي ما زالت ملأى بالرماد ، حيث كان

والد فايز يصهر الرصاص على غرار لا يمكن ان يكون ثمة ما هو اشد بدائية منه — كإنسان العصر الحجري عندما اكتشف المعدن لاول مرة . يشعل النار حول الخلايا الرصاصية ، فتنصهر ، ويسيل الرصاص بين الاحطاب المشتعلة. وعندما تخمد ، يكون الرصاص قد تجمد في كتل متفاوتة الاشكال والاحجام ، يشبه بعضها التماثيل . يبيعها لاهل المساكب فيما بعد بدراهم قليلة ، تعين عائلته على البقاء .

في هذه الاثناء خرج الينا شاب يكبر صديقي بسنتين او ثلاث : «اخي ابراهيم»، قال فايز. وانضم الينا ابراهيم في حديث استأنفناه عن تاييس وبافنوس . فسألته : «هل قرأت الكتاب ؟» فضحك وقال : «طبعاً . عندما ينصرف فايز الى دروسه في المساء ، آخذ انا الكتب التي قد جاء بها ، وأقرؤها ، مدرسية كانت ام غير مدرسية .»

وعلمت حينئذ انه نجار اضطر الى ترك المدرسة منذ سنين . ثم جعلت اتعرّف على جيرانهم واحداً واحداً : حجار كان فايز قد علـّمه القراءة ، غير انه انصرف عنها لضعف بصره عندما اصابت عينه شظية من حجر ، مسّاح احذية كثير السعال تخطى الخمسين من عمره ، له ابنة وقفت بالباب ترمقنا وهي في ثيابها المدرسية ، وعيناها في اتساع الدنيا ، وصباغ بيوت كان له ، كما خيـّل اليّ ، ستة اطفال على الاقل ، يملأون الحوش صياحاً . وفي الركن القصي كان رجل آخر ، في مقتبل العمر ، يروي لزوجته قصة احد الزبائن في المحددة ، ويشكو بخل الناس بصوت ضخم ، كأنه ما زال في دكانه وسط القعقعة والرنين ، وزوجته تقهقه .

لقد بقيت تلك الصورة جزءاً من خفايا نفسي منذ ذلك اليوم ، وقد احتل الوسط منها ذلك الصبي الناحل ، يرسم ، ويقرأ ، ويصهر الرصاص مع ابيه ، ويسهر في ضوء مصباح نفطي ، وامواج الصراخ والضحك والبكاء تحمله على متنها ، صاعدة نازلة ، وعيناه تشتعلان بالرؤى كقديسه المفضّل ، يحاول استكناه معاني معمودية الماء ومعمودية النار ، ويتطلع

الى مسيح قادم ينحني للماء الذي سيصبه على رأسه ، وقد احنت ظهره قبل ذلك آلام البشر . آلام البشر ! كانت الالفاظ الحارقة نفسها تنصبّ في نغمة من الشفقة واللوعة وترفض المرارة والحقد . كانت الحياة شاقة ، والاحوال في فلسطين في اضطراب دائم وثورة . ولكن الهواء البارد يعبر منطقة الظل ، ويمرّ بائع الكعك حاملا حلقاته السمسمية عابقة بالصعتر ؛ ويتحدث صديقي عن روعة الاصوات والوجوه ، والايدي وصمود الانسان الابدي . ثم نتناقش في «آلام فرتر» و «فاوست» و «يوليوس قيصر» . كنت معجباً بدهاء انطونيو ، أما فايز فكان معجباً بمثالية بروتس . وفي عودتنا من حقل الزيتون الى الشماعة ذات مساء ، استمرّ بنا الحديث ؛ فنزلت مع فايز على المنحدر الترابي في اتجاه بيته في «الجورة» . واذا المنحدر مزروع – بالرجال ! لم أصدق ان ذلك يحدث على بعد خمس دقائق من بيتنا ولا اعلم به . فقد حفر كل رجل لنفسه حفرة ضحلة تكفي لاستلقائه فيها يدرأ بها عنه ، ربما ، برد الهواء في هزيع الليل المتأخر . يلتفّ كلّ منهم بعباءة ممزقة ، وينام حتى الفجر في حفرته ... من جاء بهم هناك، ومن اين ؟ كانوا في الصبح يتفرقون الى كسب قوت لا يكاد يسدّ الرمق ، ليعودوا في الليل الى حفرهم ، يتسامرون فيها ، ويتلقّون تحيات العابرين ، في انتظار اليوم التالي والعودة الى الحفر نفسها . انها تعين لهم مكاناً من هذه الارض يؤبون اليه. «اين تقع نهاية البؤس، يا وديع ؟» سألته، «وهل رسمت هؤلاء ايضاً. ؟» فقال : «نعم . من الذاكرة . لهم أيدٍ جبّارة كأنها صنعت من الصخر ويصمدون كالصخر ...»

كالصخر . لقد جعلنا من «الصخر» سرّاً نتقاسمه فيما بيننا . قلنا ان الصخر يرمز الى القدس : شكلها شكل الصخر ، تضاريسها تضاريس الصخر . والصخر على حافة كل طريق في المدينة . اينما ذهبنا رأينا اناساً يكسرون الصخر – لرصف الطريق ، او للبناء . مقالع الصخر حول

المدينة . فلسطين صخرة ، تبنى عليها الحضارات ، لأنها صلدة ، عميقة الجذور ، تتصل بمركز الارض . والذين يصمدون كالصخر يبنون القدس ، يبنون فلسطين كلها . والمسيح ، من اختار من الناس ليكون خليفة له ؟ سمعان الصخرة . والعرب ، ما الذي ابتنوه ليكون من اجمل ما ابتنى الانسان من عمارة ؟ قبة الصخرة . وهؤلاء المزروعون في المنحدر ؟ في الايلة المقمرة ترى رؤوسهم وأكتافهم ناتئة من حفرها ، واذا هي صخر ! وبركة السلطان ، ما الذي نهواه فيها ؟ الصخر الذي يحيط به الماء ، كلما كان هناك ماء .. فلنتغزل بالصخر !

في يوم من أيام الربيع التي يتفجّر فيها الصخر زهراً ، اجتمع طلاب المدارس في فناء قبة الصخرة ، لينطلقوا منها في مظاهرة اخرى احتجاجاً على الحكومة البريطانية لسماحها باستمرار الهجرة اليهودية . والتقيت بفايز بين مئات الطلبة ، وهم يتخذون قرارات الاحتجاج . ولما خرجنا الى طرقات المدينة الضيقة نتدافع افواجاً ، كنا معاً ، والسقوف المعقودة ترجع هتافاتنا ، والناس يغلقون دكاكينهم وينضمون الى جموعنا . وعند باب الخليل وجدنا الجنود الانكليز وشرطتهم متهيئين لتفريقنا ، وسيل الفتية الهادر يتواصل دون انقطاع . واذا الجنود يطلقون البنادق ، ويهجمون علينا ، وتنهال الحجارة والعصيّ ، وحتى الاحذية ، من كل صوب . والهتافات تملأ الحناجر . وقع احد زملائنا أرضاً ، مجروحاً في ساقه ، ودمه يسيل الى حذائه ، ويرسم فراشات حمراء على الاسفلت . حملناه على اكتافنا ، ونحن نقول : الصخر ! واضربت البلاد كلها ستة اشهر طوال . وتفجرت صخور فلسطين بالثوار في كل مكان .

في ذلك الصيف الطويل ، قضينا انا وفايز اياماً كثيرة في التجوال بين الصخر والزيتون . اولعنا لمدة بقرية عين كارم ، لانها تجمع بين الصخر والشجر والماء ، وربما لانها كانت مسقط رأس المعمدان .

ولكن قرانا الصخرية الخضراء كثيرة. عند الظهيرة، ذات يوم حار ، وقد اخذ منا الجهد والظمأ ، وصلنا إلى قرية سلوان ، وتوجهنا نطلب العين . لم يكن حول العين الا امرأتان او ثلاث ، اذ كانت النسوة قد فرغن من ملء جرارهن وتنكاتهن في الصباح . وللعين كهف كبير ، زلق الدرجات ، لم يكن فيه في تلك الساعة أحد ، يغري المتعبين في القيظ ببرودته الندية .

« هل ثمة في العالم كهف يتفجر ماء محيياً أقدم من كهفنا هذا ؟ »

قلنا ذلك ، وكأننا قد اكتشفنا قارة جديدة . من تلك العين ، في ذلك الكهف، شرب أول بناة القدس في فجر التاريخ، واستمدوا حياة للمدينة التي اقاموها على صخورها المتصاعدة تصاعد سلم حجري إلى ذرى الرابية التي اضحت قلباً للقدس . نزلنا الدرجات الصقيلة إلى ارض الكهف وعلى جوانبه تنساب المياه دافقة عبر فجوة كبيرة تتسع عند القاع وتضيق قمتها على ارتفاع يزيد قليلا على قامة الانسان ، صخرها الاصفر الوردي الاملس في نعومة بشرة النساء اللواتي يردنها كل صباح ومساء . كنا ننضح عرقاً ، فارتمينا على وجهينا الحارين اللزجين نغمرهما في الماء البارد ونجرع صفاءه المتألق . وفي الحال خلع كلانا حذاءه ، ثم قميصه ، وجلسنا على الارض وارجلنا في الماء نتراشق به ، ونلعقه وهو يسيل على الشفتين قطرات لذيذة . وفجأة قال فايز : « اتظن ان احداً سيجيء الآن ؟ » وقبل ان اجيب رأيته ينزع ما تبقى عليه من ثياب ، ويقفز عارياً في فجوة العين ، وهو يصرخ كالمجنون : هاي ، هاي ، هاي ! وانا اقهقه . لقد بدا جسده في لون الصخر الذي اخذ يقتحمه . ما زلت ارى امام عيني لمعان منكبيه وظهره ، ورعشة إليتيه وكأنهما قطعتا صخر وردي ، وهو يخوض الماء متتبعاً انحناءات الشق العميق ، والبريق يداعبه منعكساً عن الماء الجاري في الكهف . هاي ! هاي ! صدى بليل ، خافق ،

حي ... ولم يكن مني الا ان نزعت انا ايضاً ثيابي ، وقفزت إلى داخل الفجوة المثرثرة . كان الماء يبلغ الركبتين ، والقاع ملساء تستجيب للقدم ، وفايز يتوغل حول المنعطف الذي جعل يضيق ويظلم . « هنا العِرْق ! هنا الجذر ! هنا الرحم ! » صاح فايز وقد انخفض السقف عليه ، وهو ينحني ما استطاع ليلمس بيديه سر ميلاد المدينة ... « صخر وماء ! » وجلجلت ضحكتنا في القبو الدافق العتم ، والماء يرقرق شهياً طرياً حول افخاذنا . وجلسنا في الماء القرير حتى انغمر منا الفم والعينان . ثم جعلنا نغني ، نغني يا ليل، يا ليل ! ونخبط الماء كالبلهاء ... وعدنا من مخاضتنا إلى الكهف قبل ان تدهمنا النسوة وتظن ان النبع قد انفلق عن صبيين عاريين من الجن ، مستغرقين في معمودية الماء والصخر .

وفي اثناء ذلك كنا نرسم – نرسم كل ما تقع عليه أعيننا . أنا ايضاً وجدتني اغامر بالخطوط والالوان . اين كانت متوارية تلك الموهبة ، لتنهال علي بغتة بحركة من يد فايز ؟ (كانت يداه جميلتين ، لا يصدق من يراهما ان صاحبهما يحمل بهما اثقالا من الرصاص والواحاً من الخشب ، وتنكات من الماء تملأ من حنفية عامة في وسط الحي .) لقد انصرفت إلى الرسم انصرافي إلى الدرس . ورسمت التلال واشجار الزيتون ، رسمت البيوت ، وقلعة النبي داود ، والقرويات وهن يبعن العنب والفجل والبندورة ، التي تستنبت من بين صخور الارض . الصخور ... امرأة رائعة ، هائلة ، ترتفع وتنخفض ارتفاع وانخفاض النهدين والبطن والفخذين . وبعد مدة عندما ابتاع ابي قطعة ارض في البقعة الفوقا ، كنت ، على عهدي مع فايز ، اغازل الصخر . وبنينا بيتاً على جزء منها ، وانا اغازل الصخر . وركضت وراء فتيات جميلات ، لانهن كن كالصخر ، كالأرض التي نشتق من بين صلاباتها طراوة الخضرة ونكهة الفاكهة .

وذهبت إلى الجامعة الامريكية في بيروت ، وبقي فايز في القدس ،

موظفاً في دائرة حكومية ، لانه لا يملك مالا يعينه على الدراسة الجامعية . ولكنني ما كنت اعود الا اليه في اشهر الصيف ، اناقشه ويناقشني في ما نقرأ من كتب لا تنتهي . لا ، لم يكن به حاجة إلى اساتذة : فالنار في داخله في تأجج دائم ، يمتحن كل فكر بوقدها . وارادته كالصخر .

كنت اراني احمله جريحاً ، تارة بين ذراعي ، وتارة على ظهري . كان الجرح في صدره . كنت أشعر بأن ركبتي تكادان تنهاران من وطأة العبء ، ووطأة الفجيعة . فقد كنت اعلم ، كما يعلم الحالم، انه ليس جريحاً فقط ، بل انه ميت بين يدي ، وانا احمله ولست ادري اين اذهب به . اراني احياناً اصعد به تلا وعراً تتهافت حجارته وحصاه تحت قدمي ، فلا اتقدم في صعودي الا قليلا وكلما صعدت ، تراجعت القمة عني وامعنت في العلو . واراني احياناً انزل به في ممرات ضيقة ، واقفز به وهو على ظهري من فوق جدران الحواكير ، واركض به بين اشجار الزيتون ، فتعلق بنا الاغصان وتعيق ركضي . واحياناً اضعه على الارض ، واذا هو شخص لا اعرفه ، او اذا هو ابي . وأحاول ان اتذكر كيف جرح ، فلا اتذكر الا خوفاً مبهماً : قنبلة او رصاصاً او لغماً انفجر تحت قدميه . واحياناً ارانا مطاردين فلا اعرف من هم المطاردون . ولكننا دائماً نبقى وحيدين ، انا والقتيل . فأصيح ، واصيح ، وليس من يجيب ، وافيق على صياحي من حلمي وفي حلقي نشيج .

في اوائل ايار عام ١٩٤٨ كانت القدس الجديدة ساحة قتال

بين العرب واليهود . لم يكن الجيش البريطاني قد غادرها ، وان كان قد ترك الامر للعرب واليهود ، متظاهراً بالحياد « التام » . وكان المجاهدون العرب ، وقد ضمنوا السيطرة على البلدة القديمة ، قد تمركزوا في بضعة احياء من المدينة الجديدة ، ولاسيما في الشقة الواقعة بين الطالبية والبقعة الفوقا ، حيث كانت دارنا ، وبقربها قطعة ارض كبيرة مليئة باشجار الصنوبر لم يتهيأ المال لنا لبنائها . وكان على مقربة منا معسكر بريطاني كبير ، من اكبر معسكرات فلسطين . وكان المفهوم ان الجيش سينسحب يوم ١٥ أيار ويسلم المعسكر بالكثيرْ مما فيه للمجاهدين العرب . ولما كانت البقعة الفوقا على الطريق إلى الجنوب ، المؤدية إلى بيت لحم والخليل ، حيث كانت تكتلات المجاهدين تسيطر على المنطقة ، وكنا نتوقع تقدم الجيش المصري في اتجاهنا بسرعة حال دخول الجيوش العربية . فاننا انا وفايز صممنا على البقاء في بيتنا ، كالكثيرين من شباب الحي . وقد اشترينا رشاشاً من طراز « ستين » وبضع قنابل يدوية وكمية من الذخيرة ، جربنا اطلاق بعضها من الرشاش — من قبيل التدريب .

اما ابي وامي واختي فقد ذهبوا إلى بيت عمي في البلدة القديمة ، واستأجر فايز فيها غرفة لامه واخوته (كان ابوه قد توفي قبل سنتين) . ولم يخطر ببالنا قط اننا سنجد اية صعوبة في الاتصال بهم لاكثر من بضعة ايام .

كان المناضلون والمجاهدون في نشاط مستمر ، وكانت هناك معارك على الضواحي الغربية من القدس نسمع عنها انها انباء متضاربة . غير اننا كنا في انتظار اليوم الخامس عشر من أيار ، يوم ينسحب الجيش البريطاني نهائياً ، وتدخل الجيوش العربية من الجنوب والشرق والشمال ، وننهي مهمة تطهير القدس ، وبقية فلسطين ، في اسبوعين او ثلاثة .

واقترب اليوم الموعود ، ومعنوياتنا عالية ، والاتصال بالمناطق العربية ما زال ميسراً . ولكننا فوجئنا بحركات الجيش البريطاني في الصباح الباكر من اليوم الرابع عشر من أيار ، ورأيناه يخرج بسياراته ومعداته ، ويتحرك قبل موعده بيوم واحد ... وفي الحال ادركنا ان ثمة امراً مريباً : فالجيش ينسحب، ويسلم المدينة الجديدة لليهود خطوة خطوة تحت حمايته . وشعرنا على حين غرة بالزحف اليهودي من كل اتجاه يملأ الفراغ الذي يتركه الانكليز في اعقابهم .

وخرجنا انا وفايز في سيارتنا نجول في شوارع « البقعة » ومعنا بعض الشباب من الجيران ، وفي السيارة رشاش وبضع قنابل يدوية . ومرت بنا جماعة من المجاهدين في سيارات لوري مسرعة في اتجاه المعسكر البريطاني ، قادمة من اتجاه الطالبية . كانت الشوارع قفراء ، واصوات القذائف والطلقات النارية تتجاوب من كل صوب ، فلا نعلم بالضبط ما الذي يجري حولنا . كانت منطقة الطوري – على مشارف المدينة – في ايد عربية ، تقابلها منطقة المونتفيوري اليهودية . وازاءها ، على الطرف الثاني من الوادي الذي يحوي على كتف منه الطريق الداخل إلى المدينة ، ترتفع اسوار القدس وقلعة النبي داود ، حيث كان المجاهدون يطلقون قذائفهم على المنتفيوري . لقد كانت مأساة المدينة ، كمأساة البلد كله ، ان اليهود كانوا عبر السنين، ودون وعي من الناس ، قد اقاموا مراكز مهيأة للقتال في مستعمرات موزعة وفق تخطيط عسكري بين المناطق العربية ، بحيث تستطيع عند الحاجة قطع المواصلات العربية . وحتى المعسكر البريطاني الذي كان خلفنا ، والذي كنا مطمئنين إلى تسلمه ، جاءه الغزو من حي يهودي إلى الشرق منه ... لقد ادركنا ان « البقعة » أصبحت في غضون ساعات ، منطقة مقفلة – جيبا غير منظم ، سيضيق العدو عليه الخناق قبل هبوط الليل .

وجاءنا خبر اضطربنا له : لقد قرر المناضلون الانسحاب جنوباً ، نحو دير مار الياس ، وشمالا شرقياً إلى الطوري ، ليتمركزوا في مواقع استراتيجية تكفل السيطرة على الظروف الجديدة التي طرأت ذلك اليوم .

كانت الساعة الثالثة او الرابعة بعد الظهر ، على ما اذكر ، عندما قررنا انا وفايز ان نترك البيت لنستوضح وضعنا . وخرجنا في السيارة متجهين نحو بيت لحم ، واذا بمصفحات اليهود على الطريق العام ، على مسافة منا ، غير انهم لم يأبهوا لنا . لقد راحوا يحتلون المدينة الجديدة ، ولعلهم كلما رأوا سيارة مدنية ، كانوا واثقين من انها سوف تستسلم لهم ، عاجلا او آجلا .

– والآن ؟

قالها فايز ، والرشاش تحت قدمه في السيارة .

قلت : « لن نستسلم بهذه السهولة . »

– لنذهب إلى الطوري .

وادرت السيارة إلى الخلف ، وسرنا باتجاه الطوري ، عن طريق الشوارع الثانوية التي تتخلل « البقعة » و « كولونية الالمان » ، حيث رأينا بعض الأجانب يتطلعون من النوافذ قلقين حائرين . وما ان اقتربنا إلى منطقة « مطبعة الحكومة » ، على مقربة من الطوري ، حتى حسبنا اننا قد بلغنا شاطىء الأمان ، لأن هناك تجمعاً عربياً مسلحاً . غير ان اطلاق النار كان هنا أشد مما كان في الاماكن الاخرى . وأقلقنا اننا لا ندري بالضبط من أين تطلق النيران ، بل اننا جعلنا نتوهم انها تئز من فوق رؤوسنا . ولكن ادركنا ان المعركة دائرة على بعد حوالي نصف كيلومتر منا ، عبر الوادي المؤدي إلى المدينة القديمة ، بين الطوري ومونتفيوري .

ولما جئنا إلى اقرب طريق إلى اليمين يخترق منطقة الطوري ، دخلنا فيه . غير ان مصفحة رمادية كانت قادمة حول المنعطف

انطلقت في اتجاهنا . لم يكن بيننا اكثر من ثلاثمئة متر عندما رأيناها . وأدركنا على الفور ان بقاءنا في السيارة في طريق بيوته كلها مقفلة الابواب ، وتبدو انها مهجورة ، والمصفحة اليهودية تتعقبنا ، هو موت محقق . كان الطريق ، حالما يبتعد قليلا عن الطريق العام ، يحاذي منكب الوادي المنحدر شرقاً ، والذي يستمر انحداره في اتجاه المنطقة العربية ، ويتصل اخيراً بقرية سلوان . وبدون تردد اوقفت السيارة وصحت برفيقي وانا افتح الباب « إلى الوادي ، يا فايز ! » وانطلقنا من السيارة : فايز يحمل الرشاش وانا احمل في جيبي معطفي قنبلتين يدويتين ثقيلتين ، وقفزنا من الطريق على حجارة اول المنحدر ، حيث كان الهبوط شديداً ، ينتهي إلى ثلاث او اربع دور حجرية ، متباعدة على غير نسق .

واذا وابل من الرصاص يضرب الحجارة ، ويثير التراب حولنا ، ويصفر فوق رؤوسنا . لقد وقفت المصفحة على مقربة من سيارتنا ، وامطرتنا بالرصاص على غير هدى . غير ان زاوية الانحدار الشديد ، والجدران الحجرية العتيقة ، لم تمكن منا صاحب الرشاش الذي في المصفحة فراح رصاصه يتناثر حيث لا يريد . فبقينا حيث نحن ، وقد احتمينا بجدار ، لا نأتي بحركة ، مؤملين ان ينتبه للمصفحة بعض المناضلين الذين في الدور العليا المشرفة على الطريق — ان كان فيها احد .

وبقيت المصفحة مكانها دون ان تطلق النار ، كأنها في انتظار بروزنا ثانية . وعلى مقربة منا كانت دمدمة الرصاص ، وفرقعات القذائف ، في استمرار لا نفهمه .

« اين هم ، أين هم ؟ » كنا نتكلم بصعوبة . وقال فايز : « هذه هي اخيراً . »

— ماذا تقصد ؟

— مجابهة القتل .

قبعنا في مكاننا ، وكل ثانية بطول الدهر . واذ استمر السكون المتوتر ، أخذنا نحسب امكاناتنا واحدة واحدة ، وقد اخذ ذهني يصفو صفاء غريباً : هل من الممكن مجابهة المصفحة بالرشاش ، ونحن في اسفل المنحدر ؟ مستحيل . هل من الممكن ان اقذفها بقنبلة يدوية ؟ هل استطيع ان اوصلها الهدف على ذلك الارتفاع ؟ مستحيل ايضاً . اذا زحفنا على البطن بين الحجارة ، صعداً ، كانت هناك صخرة ملأى بالفجوات لعلنا نستطيع بلوغها ، والضرب من ورائها . أم لعل الافضل ان نتريث إلى ان يقطع العدو الرجاء منا وينصرف ؟ لا بد ان الوقت ثمين بالنسبة اليه ايضاً ... أمسكت بقنبلة في يدي الراجفة ، وصديقي قابض على رشاش « الستين » متهيأ لأية مفاجأة .

وعندها سمعنا المصفحة تهدر ، كأنها تتحرك راجعة ، لعدم استطاعتها الاستدارة حيث هي ، وعلى الاثر سمعنا رشاً متواصلا من النار يئز ويصلصل : لقد راحوا يضربون سيارتنا برصاصهم ليعطلوها . فركضنا في اتجاه تلك الصخرة العليا ، وفجأة رأيناها فوق رأسينا .. ما الذي حدث ؟ لست ادري حتى اليوم ما الذي حدث بالضبط . انما اعلم ان فايز فتح النار على المصفحة وأفرغ مشط « الستين » في رشة عنيفة واحدة . وفي الوقت نفسه ، وبلمح البصر ، نزعت باسناني « تأمين » القنبلة ، وقذفت بها بكل ما اوتيت من عزم عصبي في تلك اللحظة ، وسمعتها تسقط عند المصفحة ثم تنفجر انفجاراً رهيباً . وصاح فايز : « ارمح يا وديع ! اركض ، لا تنظر إلى الخلف ! » ورحنا نركض ، ونقفز من حجر إلى حجر . ولم ننظر إلى الخلف . وقلت لنفسي : هي ميتة واحدة ، اذا اقبلت ... ولن تقبل، ضربناهم ... بعد قليل سنكون في سلوان .

ولكني بعد قليل ادركت، مصعوقاً ، ان فايز يتلكأ في سيره .. ويئن .. لقد اصبح خلفي . ولما نظرت إلى الخلف ، رأيته يقع على

وجهه على الحصى والشوك ، والدم يسيل منه على الارض وعلى رشاشه الملقى بجانبه .

وصرخت : فايز ، فايز ! »

وعدت اليه ، وقلبته على ظهره ، ووجدتني اصيح : « لا ، لا وربك ، مستحيل ... لا .. »

ولكنه رفع وجهه الي ، وقد غمره العرق ، وقال : « ما الذي .. حدث ؟ »

فتحت قميصه لأرى . وتلطخت يدي بالدم الدافق . كان الجرح فاغراً تحت كتفه الأيسر ، وقد بان اللحم كأنه تهرأ وتلزج ، والدم يملأ قميصه ويشخب على رسله . فقلت : « فوق القلب .. لا ، ليس الجرح خطيراً . انه فوق القلب . » وحاولت ان اوقف سيل الدم ، وقد نسيت اين نحن . نزعت معطفي ، اكفكف باطرافه الدفق الاحمر . غير ان فايز كان يتنفس بصعوبة . لعل الرصاصة مزقت رئته . ما الذي أفعله ؟ أخرجت القنبلة اليدوية الثانية من جيب معطفي ووضعتها جانباً وكورت المعطف كوسادة ، ووضعته على حجر ، واسندت رأس فايز عليه . وحاولت ان اتذكر ما كنت تعلمته ايام كنت في الكشافة عن الاسعاف الاولي . غير انني لم اتذكر شيئاً ، وفايز ينظر إلي مستنجداً كأنه يقول : الا تستطيع ان تفعل شيئاً ؟ وانظر اليه نظرة العجز والبلاهة .

رباه . ما الذي افعله ؟

كانت شمس العصر ما زالت حارة بغيضة . نظرت حولي ، فوجدت اننا بعدنا كثيراً عن كتف الوادي ، غير ان ثمة مسافة طويلة لا بد من اجتيازها قبل ان نصل إلى بطن الوادي المخضر باشجار الزيتون . وانتبهت من جديد إلى اصوات الطلقات وهي تردد بجنون حول تلك الأرض الصخرية المهجورة ، واسوار المدينة القديمة على بعد

شاهق منا . يجب ان انقل صديقي إلى المدينة قبل ان تغرب الشمس . ليس الجرح في القلب . سأحمله . سأحمله بين ذراعي . فأنا اطول منه قامة بقليل ، وكنت ايام الصبى من لاعبي كرة القدم ، وكنت اسبح في بيروت بكثرة . وفي بحر بيروت حملت بين ذراعي فتاة مسافة طويلة لأبرهن لها على قوة عضلاتي . سأحمله .

رفعت فايز بين ذراعي . فأنّ وتأوه ، ولم يقل شيئاً . حملته بجهد ومشيت . مشيت وهو يئن أنيناً خافتاً . كان عرقي يتصبب ويتساقط على صدره الدامي ، وقد كان الدم يتوقف عن السيل . لقد كان ثقيلا . ولكن ركبتي لم تهنا . لقد كانتا كافيتين لحمله وحملي معاً . والارض في انحدار . فلأحمد الله على هذه النعمة الصغيرة . يجب ان نصل إلى سلوان ، قبل حلول الظلام . ونذهب إلى العين وننزل إلى الكهف البارد الذي لم نره لسنين طوال .

ولكنني لم استطع السير طويلا ، تعثرت ولم استطع التقدم خطوة اخرى . وضعت فايز على الارض لنستريح . لقد اصفر وجهه اصفراراً مريعاً . وتمتم : « عطشان ... عطشان ... يا وديع .. » وانفجرت باكياً فوق وجهه الاصفر المرهق ، وجه فايز الضامر الجميل . وتمنيت لو استطيع ان اسقيه دمعي أو دمي .. طيب ، فايز . سأبحث عن ماء ...

ولكن لم يكن ثمة حاجة للبحث . لقد انتفض انتفاضات لم استطع وقفها ، وفمه ينفتح وينغلق بعنف طالباً الهواء ، او الماء ، او كليهما . وانا اصيح « فايز ، فايز ، فايز ... » ثم انطبقت الشفتان على خيط من الدم يسيل من زاوية الفم ، وبقيت العينان تحدقان في اسوار القدس كحجرين متلألئين .

لقد قتل صديقي وانا عند رأسه أعجز من امرأة ، أعجز من طفل . وغابت الشمس غير حافلة بالمدينة الجريحة ، وانا جالس عند رأسه

أكش عنه الذباب . هذه الارض العريضة – ما أضيقها . أصوات الموت تملأ الدنيا ، وما من أحد يعينني على زحزحة صديقي شبرين .

قمت وحملته على صدري كما يحمل الطفل، وقد سقط رأسه على كتفي ، وسرت به نحو اشجار الزيتون . لم اكن ارى موطىء قدمي ، ولكنني سرت به ، عاشق الصخر ، ثقيلا كالحجر ، على صدري . ثم انزلته عني لاستريح . وبعدها حملته بين ذراعي من جديد ، ولكننا سقطنا معاً على الارض ، وانا اتمنى الموت .

أضجعت فايز على ظهره ، وارتميت على وجهي بقربه ، أنشق التراب والحصى . كنت ألهث ، واحاول ان اوقف لهاثي عبثاً . وما عدت استطيع التفكير بشيء . فليأتوا ، فليأتوا وليدفنونا معاً ! فليأتوا ؟ من ؟ من يأتي هذا الوادي الذي هجره الله والناس ؟ أين الرشاش ؟ أين الرشاش ؟

وتذكرت عندها ان الرشاش بقي ملقى على الارض حيث سقط فايز اول مرة ، وان معطفي هناك ، مع قنبلتي الوحيدة .

وفي الحال نهضت ، وفككت حزام الرصاص الذي كان فايز متمنطقاً به ، ولبسته ، وانحنيت عليه اخاطبه – في تلك العتمة الرمادية لم يكن الا نائماً ، لسوف يستيقظ حين اعود ، ولا ريب – وقلت : « مشوار صغير ، ثم أعود اليك ، وحياتك . » وعدت ادراجي ، صاعداً التل الرخو التراب ، باحثاً عما تركنا وراءنا من سلاح .

كان المعطف مكوراً ملوثاً ، كمعطف شحاذ . وعلى مقربة منه التمع حديد الرشاش المخضب بدم فايز . فالتقطته ومسحته بالمعطف ، ثم رميت بالمعطف عني . وعلى بعد قليل استقرت القنبلة ،رمانة الموت . اخذتها وعلقتها بحزامي . اذا عزم المرء على الموت ، بان كل شيء هيناً ، ممكناً . حشوت المشط بما معي من رصاص . وصعدت التل ، نحو تلك الصخرة نفسها ، متلصصاً في الظلام. لقد جعلت اشعر ان لوقوع

قدمي في التراب ، على نعومته ، صدى في الوادي كله . لا بأس . لعله يستدعي بعض القتلة . ولكن يجب ألا يروني . على الاقل ، إلى ان انتهي من مهمتي .

كانت الطريق العامة ، من فوق، مضاءة. ولكنها فيما يبدو خالية . المعركة في مكان آخر – فصوت الرصاص لا ينقطع . وبلغت الصخرة التي دون الطريق بقليل . وانتظرت . ثم زحفت إلى الاعلى منها نحو حافة الطريق . واذا المصفحة ذاتها ولكنها ، وقد عطلتها قنبلتي ، ساكنة ، مهجورة ، كصرصار عملاق قبيح ، ميت . وسيارتي كطفلة صريعة على مقربة منها .

ودنوت منها اتفحصها ، مهشمة الزجاج ، مثقبة كالغربال . وسرت حولها ، اربت عليها كأنني اشجعها على البقاء . ولو رآني أحد في تلك اللحظة ، والرشاش بيدي، لظنني أحرسها . ولكن احدا لم يأت . وجعلت امشي جيئة وذهاباً ، وأصيخ السمع . ولا اسمع الا الرصاص المتبادل بين قلعة النبي داود والمونتفيوري .

فجأة سمعت صوتاً ثقيلا ، صوت مصفحة او لوري يقترب . وبقفزة واحدة كنت وراء صخرتي ثانية تحت حافة الطريق .

اقترب الصوت اكثر فأكثر . فشددت يدي على السلاح . وانتظرت.

وبرزت سيارة لوري كبيرة . هائل ! رائع ! لقد جاءت ووقفت عند المصفحة المعطلة . ونزل منها رجال يتحدثون بالعبرية . ما الذي جاؤوا يفعلون في ذلك الشارع المهجور ؟ لعلهم يتفرجون على المصفحة ، ثم يذهبون ؟ يجب ألا اضيع الوقت .

كنت قابعاً في الظلمة ، وهم – ثلاثة او اربعة شباب يلبسون الخاكي – في ضوء الشارع اراهم كأنهم على مسرح يمثلون . لقد راحوا يخرجون حبلا معدنياً غليظاً ، وحرك السائق السيارة ليجعل مؤخرتها ازاء مقدمة المصفحة . لقد جاؤوا ليجروا الانقاض !

أخذت الرمانة من حزامي ، وزحفت صعداً إلى ما دون الحافة ، ثم نزعت تأمينها بأسناني ، وصحت : « خذوها يا اولاد الزانية ! » وقذفت بها في وسطهم . ولما انفجرت ، شعرت كأن رأسي ينفجر معها ، واصطفقت اسناني لهول الانفجار . وصعدت إلى الطريق في الحال ، وانتصبت فوق مشهد الدخان ، وأفرغت الرشاش دفعة واحدة زاعقاً : « من أجل عينيك يا فايز ! »

واستدرت على مهل نحو المنحدر ، وسرت ببطء اولا ، ثم رحت اطفر بين الصخر والشوك ، إلى صديقي ، لكي أخبره بما فعلت . واخذت ابحث عنه في الظلام ، وظننت لوهلة انني فقدته . ولكنني وجدته . ركعت إلى جانبه وقلت : قتلت قاتليك . خيل الي انه سمع وتحرك ... فسقط رأسي على رأسه ، والتصق وجهي بوجهه . كان وجهه بارداً ، بارداً كالحجر .

لم استطع حراكاً . غرزت اظفاري في التراب . انتظرت لعل حركة تبدر من الجسد الملقى على ظهره مصلوب الذراعين ، مضرجاً بالدم الذي كنت اعلم ان وجهي قد تلون به ، ويديّ وقميصي . الصخر . الرعب . انشطار ذاتي شطرين ؛ اسلم شطراً منها للتراب والشوك . وصوت الرصاص يملأ اذني . كان علي ان اصطحبه إلى مكان ما – إلى اقرب مكان في سلوان .

نهضت اخيراً ، والمنحدرات مظلمة ، لا استبين فيها ممراً اسلكه . بين الحين والحين يبدد الظلام انفجار مفاجىء ، ثم تستأنف الدمدمة والصلصلة عبر الوادي كله . لم اكن لاترك فايز وحده ، حتى ولو وقعت في يد العدو . أجلسته على حجر منفرج الساقين ، ثم قرفصت امامه بحيث وقع على ظهري ، وذراعاه تتدليان على صدري ، فأمسكت باحداهما ونهضت بكل ما لدي من قوة عضل ، ويدي الاخرى ترفع احد فخذيه حول خصري فانكفأ على ظهري ، كطفل

كبير . هل انطفأت النار في قلبه ، ولم يبق لي الا ان اشيل الجسد المنصهر واوسد رأسه بعنقي ؟ مشيث بين الزيتون على الشوك ، بين الصخور ، والرشاش معلّق على كتفي تحت ذراع فايز المهدلة . وقعت . التقطت انفاسي . شلته من جديد . سمعت صوتي وانا اتكلم ، كأنه صادر عن كهف عميق . رحت احدثه بانفاسي المتقطعة . الاهل . سلوان . القدس . مجنونان في برية من الموت . وعندما وضعته عن ظهري لاستريح ، أقسمت انني سأعود . بشكل ما . غازياً ، او متلصصاً ، او قاتلا ، سأعود . حتى ولو قتيلا . على صخرة .

الايل طويل بغيض .

عند الفجر مرت بنا جماعة من المجاهدين .

سلمنا الشهيد إلى ذويه ، مع شهداء آخرين ، عصر ذلك اليوم . وبين البكاء والنحيب كتمت انفاسي على قسم اتذكره كل يوم ، لاكثر من خمس عشرة سنة (مها ، أتفهمين ؟)

بوغاز كورينث أمسى وراءنا . البحر اليوناني يحتوينا في ليله المقمر المليء بالاساطير . أساطير الحب ، والقتل ، ، وعبير الارض يجتذب يولسيس الهائم بين أهوال البحار . لا بد من عودة ، لا بد .

أقيمت حفلة الرقص . كانت جاكلين بين ذراعي في خفة الريح ، رغم ازدحام القاعة . عندما اشتدت الموسيقى الحاحاً ووحشية ، ارتمت على صدري كأنها تبغي ان تندس بين عظامي . ذكرت فايز . ذكرت الصخور . ذكرت الموت والميلاد . وفمي يمسد شعرها القصير ، ويتحسس اذنها الصغيرة . واذا هي تسحب أذنها عن شفتي وتهمس ضاحكة : « أوه ، انك تثيرني . هل حقاً تفكر بي ؟ »

عندما اخذني وديع عساف إلى قمرته ، والليل كاد ينتصف ، لم ادر انه يريد ان يفاجئني بسر من اسراره . كنا قد قضينا معظم المساء في الرقص . أنزلني إلى قمرته ، التي يشاركه فيها فرنندو غوميذ ، واذا فرنندو مضطجع على فراشه الضيق ، يقرأ . فاعتذرنا له عن ازعاجه ، غير انه عبر عن سروره بنا بكرم اسباني .

اخرج وديع اضبارة على شيء من الكبر . فحسبت انه يريد ان يطلعني على خرائط او تخطيطات هندسية قد تهمني ، لعلمه بانني مهندس ، ولما فتح البورتفوليو ، وجدته مليئاً باوراق سميكة كبيرة كلها خطوط والوان . وأخذ ينشر أمامنا رسوماً زيتية . لبضع لحظات وقفت امام اول صورة اقامها على الفراش الضيق ، مشدوهاً لا أعرف كيف استجيب .

سألته وقد جلست على سريره :

– من رسمها ؟

ـ أنا .

ـ انت ؟ اهذا ما تفعله عندما تدير ظهرك للاستيراد والتصدير ؟

ـ نعم .

وقبل ان اعلق على الصورة اخرج اخرى أطبقها على السابقة . ثم اخرى . ثم اخرى . جعل ينثر الرسوم ، وكلها على ورق ، ذات اليمين وذات الشمال . لقد كانت رسوماً مريعة لا ازعم انني فهمتها . تعج بالوجوه . وجوه مشطورة ، وجوه نائمة ، ميتة ، خضراء وحمراء وصفراء ، حولها اقمار وشموس ، واغصان ملتوية يابسة ، وايد كبيرة مخيفة الاصابع .

قال : « من عادتي ان ارسم على ورق ، لان حمل الصور الورقية سهل كلما احتجت إلى سفر . »

فقلت : « ولكن رسومك رهيبة . من يعرفك من كلامك ، ودعاباتك ، لن يخطر له ان في ذهنك خواطر مرعبة كهذه . »

ـ كوابيس أصح من « خواطر » .

قالها وعلى شفتيه ابتسامة ، كأنه يهزأ بي وبفرنندو ـ او كأنه يضحك من نفسه . ثم أكمل : « ولذا ، فمن الصعب على المرء ان يعايش رسوماً كهذه . »

ـ ولكنك تحملها معك اينما ذهبت ، رغم ذلك ؟

ـ نعم ، من قبيل حمل المرء صليبه اينما راح .

كان فرنندو صامتاً طيلة الوقت ، يتأمل الصور ، واخيراً نطق : « هل هذا ممكن ؟ انت غويا العرب ! هذه « اهوال الحرب » ـ مرة اخرى . واذا سمحت لي ان اقولها ، فيها شيء من الجنون . لا ؟ »

فضحك وديع وقال : « الكثير من الجنون . ولكن الذين يرسمون الانهار والجبال وحقول القمح قد يكونون ايضاً على شيء من الجنون . والذين يرسمون الوجوه الجميلة ، والعاريات الكبيرات

النهود الرشيقات الافخاذ قد يكونون هم ايضاً على شيء من الجنون. لا ؟ »
– هذا يدعو إلى شيء من الويسكي .
واخرج فرنندو من الدولاب الصغير زجاجة جديدة واكواباً بلاستيكية صب فيها الويسكي ، وقال : « لا أشربه الا صافياً . »
قال وديع ، وانا اتذوق اللذعة الطيبة :
« كلنا فينا شيء من الجنون باقدار متفاوتة . ننسحب من الواقع المزري إلى عالم خبيء في الداخل مليء بكل ما نشتهي . واحياناً بكل ما نرهب . كالمجاذيب . »
قلت : « ميكانيكية دفاعية لا بد منها ، للحفاظ على عقلنا عندما نخرج من عالم المجاذيب ، ولو للحظات » .
« العالم الذي ننسحب اليه ، في نظري » ، قال فرنندو ، « ربما كان أعمق حقيقة من عالم الواقع . كنت هذا الصباح أتصفح مجلة « فوغ » في الصالون . عالم « خبيء » مليء بكل ما نشتهي . اناث حريريات لدنات ، واسعات العيون ، غريضات الافواه . انا ، كما تعلمان ، اعمل في ملهى ليلي ببيروت . اي انني لست غريباً عن عالم الاناث . ولكن النساء هناك ، كما نراهن نحن وراء الكواليس ، حادات ، صلبات ، كالمسامير . كل شيء فيهن صبغ وطلاء وشعر مستعار ، وتكالب على الليرة . أما عالم « فوغ » فانه عالم الشبق المترف ، حيث الجنس ارفع من العهر . او هكذا يبدو . أجمل خلق الله ، في اجمل الاوضاع ، بين الطنافس والزهور ، بين خرائب اليونان وايطاليا ولبنان ، او تحت اشجار انكلترا الخضراء – مرتديات او شبه عاريات ، لا فرق . وقد تجاهلن ان اغراءهن يثير فينا العهر والشهوة والفحش . انهن يلتهمن الرجال – هؤلاء الحوريات الرقيقات ، دونما عواطف . طريق مختصرة إلى الخدر ، والوهم ، والانسحاب من بين شدقي وحش النهار . أعطني نساء « فوغ » الوهميات ، وخذ كل ما في

الدنيا من واقع . أجنون ؟ »

قال وديع : « إلى حد ما ، ربما . أو وهم ، على الاقل . والوهم تفرضه علينا الطبيعة نفسها فرضاً . ما النوم ؟ انه انسحاب إلى الداخل إلى الظلمات الطرية اللذيذة . فالوهم أخو النسيان . والنسيان بلسم الجراح ، كما يقولون – إلى ان تفاجئنا الكوابيس . وهنا بيت القصيد . جزء كبير من الحضارة ما هو الا تنظيم الوهم ، والتمتع بالوهم ، والاغتسال بشلالات الوهم . ولكن تبقى الكوابيس . الكوابيس هي الخلاقة الحقيقية في النهاية . النساء الحادات ، الصلبات كالمسامير ، مضروبات بمئة مليون ، مرفرعات للقوة ن ».

فقلت : « يعني رسومك هذه . وحياتي ، وحياتك . ولكن السؤال هو : حضارة الوهم هذه ، أنهرب منها ، أم اليها ؟ »

– يبدو اننا من الذين ظلمتهم الطبيعة ، فلم تتح لنا الا النذر القليل من الوهم . . ألا ترى كيف انني افرغ في هذه الصور كوابيسي ، كما تفرغ الغيمة شحنتها ؟

– ولكن يبقى السؤال الذي يسأله الناس دائماً : لماذا تفرض كوابيسك على الناس ؟ انهم ينشدون قليلا من النسيان ، قليلا من خداع النفس .

– اذا لم يكن الفن متصلا بجحيم النفس ، فانه لن يتصل بفراديسها . الفنانون الذين يستجيبون دائماً لما يريد الناس طراشون ، صباغون ، بغايا ، سمهم ما شئت . لا يعرفون تلبد السحب السوداء ، وما يتلوه من صواعق ورعود . من امطار وخصب . الصورة التي لا تنتهي إلى اخصاب في نفس المشاهد ، كيف يمكن ان تكون اكثر من ضحك على الذقون ؟ مصيبتنا اننا نحاول رفض الحضارة اذا كانت حضارة وهم ، ولكننا جزء من حضارة الفنتزة ، رغماً عن انوفنا ، إلى ان يفاجئنا الكابوس ، ويتجسّد امامنا العدو الذي نتحايل عليه لكي ننساه

او ينسانا . فنعود راكضين في حلقتنا المفرغة – إلى بعض من وهم .

– ربما إلى بعض من حقيقة ؟ اني ارفض ، فأهرب ، لأبحث عن واقع اتكافأ معه .

– هل انت مستعد لأن تقتل ؟

– أقتل ؟ لا أرى للسؤال علاقة بالموضوع . وبعد كل الذي رأيت من قتل .

– اذن ، فأنت أيضاً تؤثر الهرب من اجل الهرب .

ازعجني باصراره ، وأنا اعلم انني هارب ، وأنني لا اريد القتل . وتذكرت عندها ما كنت دوماً اتخوف من ذكراه : ما فعله ابي وانا طفل صغير . القتل ؟ لعل وديع يفكر بفلسطين . بقتل العدو هناك . غير انه عندما ذكر القتل ، نكأ فيّ جرحاً من نوع آخر . لماذا قتل ابي جواد الحمادي وانزل بحياتي لعنة ما زلت اعانيها ؟ تمرد ، وقتل ، ثم عاش منفياً عنا . الكل قال : حسناً فعل . لقد رفع رؤوسنا . لا بأس . ولكن الآلهة ظلت تطالب بالانتقام ، وعلى نحو مهين . فرضت عليه الحياة بعيداً عنا ، وجعلت منه مجرد اسطورة . ولم تستنكف من ان تفقدني المرأة الوحيدة التي احببت – وتبقيني معلقاً بها من بعيد . قلت :

« أؤثر الهرب ، بمعنى ايجابي . هل هذا ممكن ؟ كالقائد الذي يتراجع ، لكي يلملم أشتاته ويكيف خطته بالنسبة للظروف التي استجدت ، تهيوءاً لهجوم جديد . لست ادري . انك تخلط علي الأمور . هل عرفت انت القتل ؟ »

رفع أحد حاجبيه ، كما كان من عادته ان يفعل ، وصوّب الي نظرة غريبة . لم يجب على سؤالي بل قال :

« اتفقنا اذن . الامور مخلوطة عليك ، وعلي ، وعلى كل من في هذه السفينة . فلنعد إلى قضية الجنون . »

لما كان بعض حديثنا بالعربية ، فقد اشغل فرنندو نفسه بالتمعن في الصور ، يتناولها واحدة واحدة ويهز رأسه ، عن رضا او غير رضا . واذا هو يخبط بظاهر يده ويقول بالانكليزية :

« عندما لا افهم الصورة ، اتمتع بها . هذه مثلا . لا افهمها ، ولكنني اشعر انها تتغلغل في ، ولو عن غير حق . انها تؤذيني . ولكنني اتمتع بها . ماسوكي ؟ لم لا ، ان كنت اتمتع ؟ »

فقلت وانا اتأمل اللوحة :

« متعتي ، انا ، ذهنية صرف . انا اتلذذ بروية النسب والعلاقات والتقابل بين الخطوط والاجسام . انها المتعة التي تجدها في حل مسألة رياضية معقدة . »

ولكن ، قال وديع ، « ليس في الفن من حلول . المسألة ، هي المهمة . اما الحل ، ففي العدد القادم الذي لن تشتريه . انا اتمتع بما يمزقني من الداخل – بما يشعرني بانني اسير يميناً وشمالا في وقت واحد . أتدري ؟ نحن ، معظمنا ، كذلك الرجل الذي يحب امرأتين في آن واحد ، احداهما سمراء ، والاخرى شقراء . »

فضحك فرنندو ضحكته الضخمة ، قائلا :

« ترتيب معقول ، اذا استطعت ان تدبر امرك مع الاثنتين . »

واستمر وديع بعد جرعة اخرى من الويسكي :

« هذا الرجل يرى في كل منهما مثال الجمال الشهي ، ويقرن بهما في خلواته كل ما يتمناه في المرأة من كلام وأحاسيس . ويرى نفسه متنقلا بينهما ، يقبّل الواحدة ، ولعاب الاخرى ما زال ندياً على شفتيه . وهو يظن ان الواحدة لا تعرف بالاخرى ، وان لعبته سر من اسراره . غير انه في ساعة شيطانية من الخيال ، يراهما تتحدان في غزل غريب . تضحكه الفكرة ، وتقلقه ، ويصرفها عن ذهنه . واذا هو يوماً يكتشف انهما تفعلان ذلك بالضبط ، وانهما مساحقتان شاذتان

كاذبتان ، تعذبه كلتاهما لتسليتها ولا تجد لذة حقيقية الا في رفيقتها .. انه يرى نفسه يغار على كلتيهما – من كلتيهما . من امرأة ! من امرأة يعشقها وكان يحسب انه يخدعها ويخدع بها عشيقته الاخرى ... هكذا نحن نتمزق . نتمزق باستمرار ، بين الاشياء التي نحبها ، او نتوهم اننا نحبها ، والتي تحب نفسها وتتمسك بمنطقها الخاص وشذوذها الخاص اكثر بكثير مما تأبه بنا وبما نشتهي . حياتنا في المجتمع مثل على ذلك . السلطة وتناقضاتها . المال ، المقتنيات ، الزواج ، الأبناء : كلها تمزقنا ، تمزقنا باستمرار . وفي النهاية نلجأ إلى عالم « فوغ » . لا ألم . لا تمزق . وحلم قد يدوم بعض الساعة . »

فقلت :

« فلأطلق لحيتي اذن . »

« فلأترهب » ، قال فرنندو .

واستمر وديع :

« ترهب . اطلق لحيتك . لا بأس . قليل من الجنون خير من الجنون المطبق الذي هو نهاية الكثير من الناس . يولدون باكين . كما قال احد الشعراء ، ويموتون في زوبعة من الرعب . وما الذي هناك بين الولادة والموت ، سوى زوابع من الرعب متلاحقة ، منها الخفي ومنها الظاهر ، منها النفسي ومنها الجسدي ، مع فترات من الصحو كصحو الظهيرة في الصحراء – سماء لا تنتهي ، وأرض لا تنتهي . وصمت مليء باحلام المتصوفين ، حتى تهب الزوبعة من جديد . لقد اجتاحتني الزوبعة اليوم ، فعاودتني الكوابيس – الكوابيس التي اخشاها ، فاتخلص منها برسمها على الورق ، اذا استطعت . يقولون ان الكابوس للرجل امرأة شبقة تهاجمه في الليل تريد امتصاص حياته للذتها . فيرى ما يرى . ولكن لماذا لا أرى الا مجازر بشرية أكافح لكي انجو منها ، فلا انجو الا إلى اماكن كلها خرائب وقاذورات ؟

ما معنى النجاة على كل حال ؟ إلى اين نحن فارون ؟ أنا قد أفر إلى هذه الرسوم التي لا أطلع الا الاقلين عليها . او انكفىء على صمت يلازمني اياماً بطولها ، اغازل فيها افكاري . انها افكار تدور حول بلدي وحول الصمت ـ انه صمت داخلي ، اشبه بليل كوني لا تحد رحابه . صمت مفعم ، هائل ... قبل سنين كثيرة كتبت شيئاً عن اجراس الذاكرة وهي تجلجل في كهوف جوفية ، صامتة صمت الزمن السحيق الذي يلف تاريخ الانسان ، هذا التاريخ الصارخ الهادر . صمت مليء بالذكرى والرؤى . بأربعين سنة من جلجلة الحناجر ، اربعين الف سنة من الصياح والعشق والغضب ... والرؤى مهمة ، مهما تكن غامضة . كم من الناس عبر العصور اصروا على رؤاهم ، بل قبلوا بالاستشهاد من أجل ما يرون من رؤى ... هذا المساء ، والشمس على وشك المغيب ، عبرت بي احدى تلك التجارب الرؤوية التي يكاد يكون الكلام عنها مستحيلا . انها لا توصف ـ غيوم متراكمة تأججت فيها الوان الغروب كأنها لهب مندلعة وذهب مسفوح ، كالسماء في صور تييبولو تعتلج فيها الدرامة لا لسبب ظاهر . ولكن ما الذي تذكرت ورأيت ؟ أشلالات من لذائذ ، وبحاراً من توق وصراع ؟ ربما ، او ليس ذلك بالضبط . سديماً وغباراً وأضواء وبراكين . الصمت الباهر ، صمت افراح عنيفة ، ومآس انتهت وهي على وشك ان تبدأ من جديد . الشيطان في الداخل وقد انفجر الشيطان المستقر في البواطن السحيقة استقرار الاله ، حيث الشيطان والاله لا يفترقان . ولا يمسكان . ولا تطردهما صلوات او قصائد . واربعون سنة من حياة تضطرم وتتصاعد وتتهافت على ايديهما . والغيوم يمزقها الذهب المسفوح والنيران المندلعة .

« كانت السفينة صاخبة بالموسيقى . كانوا يروحون ويجيئون حولي ، يتفرجون على الغروب ، يتنهدون ويضحكون ويتغازلون .

وأنا كالابله مأخوذ بما ارى ، ربما اتوهم ، أحاور الله والشيطان معاً . قد تقولان ان المسألة جنسية ، على طريقة فرويد . المحرومون جنسياً يتوهمون انهم جبابرة الكون — او حشراته . ولكن المسألة ليست بهذه البساطة . لقد اصبحت المسألة معي قضية حياتية ، ضرورة من ضرورات البقاء . أعني ، بعد ان يزعم المرء ما شاء له الزعم ، يبقى الوهم امراً لا محيد له عنه ، كأنه يقول : ارفع الوهم ، تسدل الظلام . فليغن عتابا وميجانا . الغناء كله وهم . الطيبات كلها وهم . ارفع الوهم ، تضمحل المتعة الاخيرة ، ولا يبقى الا الملح . يجيش بي الوهم ، فاشعر انني اود الاسترسال بالكلمات إلى ما لا نهاية وان تكن صامتة . ولكن يعود فينحسر ، فتتعثر الكلمات في حلقي ، ثم تنقطع . ما هذا الذي ينتابني ؟ ما هذا الطيف الساحر الشرير ؟ هل له نبض ، واسنان ، وانف ، ويدان ، وساقان ؟ هل يقرش كحبة الاوز ، كحبة الفستق ؟ هل تتجاوب فيه الاصوات بالكلمات كالاجراس ؟ هل يتصاعد ويتساقط بين ذروة وحضيض ؟ هل يملأ الراحتين بالدراق والعنب ؟ لعلها اكذوبة اخرى تأتيني كفاكهة عبرت المسافات والشواسع اضيفها إلى سلة ملأى بفواكه من كل لون . وقصر الصمت تكدست فيه سلال كهذه . الموسم أخصب مما ظننت !

« في نفسي دائماً ركض على التلال ، وسير طويل بين صخور الجبل ، بل حتى على امواج بحيرة طبريا . المسيح يلازمني ، حافياً ، كبير القدمين ، تقطر اصابعه الطويلة بالمعجزات ، وهو يكاد لا ينطق . ثم تأتي ساعات الصحو ، ذلك الصحو العريض ، الفسيح حيث تبرز الناس والاشياء محددة ، صلبة ، واضحة لدرجة الايذاء . ما الذي نحن فيه ؟ اي فردوس مجانين هذا ؟ في هذه الساعة بالذات ، ونحن في هذه القمرة الصغيرة نتأهب للخروج إلى البحر ثانية ، وقد أرهقتنا الفلسفات والاوهام ، ربما كان غيرنا — رحالة انكليزي ،

او فرنسي ، يقطع الربع الخالي مثلا ، يغامر بحياته في رمال البوادي ، محاولا السيطرة على لغة تعصى على لسانه وحنجرته ، ويجد متعة في شرب حليب الناقة بعد ان يغسل وعاء الحليب ببولها . ما الذي نعرفه نحن عن صحارينا ، والفيافي المفتوحة للمغامرين من خلق الله ، والمغلقة دوننا ، عن البدو مثلا من امتنا ، هؤلاء الذين يرسمون معالم الطريق وسط اوقيانوس الرمال بكومة من الحجارة ، كمن يرسم مسار هذه السفينة على الموج بفلينة عائمة ... هؤلاء المغامرون ، هل يبحثون عن النفط ؟ ربما . عن المعادن ؟ ربما . يمسحون ما أهمله حتى الله من أرض ليرسموا له خطوط طول وعرض شرقاً وغرباً على خريطة ؟ ربما يخدمون اغراضاً خفية لدولهم ؟ ربما . المهم هو انهم يقذفون بانفسهم في بوادي المجهول ، ليعودوا بما يمكن ان يعلم ، ويحدد . وفي تلك الاثناء يكونون قد قارعوا الشمس وعايشوا النجوم ، وقهروا العطش ، وعاشوا على حفنة من التمر ، وهزأوا بعض عجيزتهم على رحال ابل لم تخلق لهم . ولا ريب ، ولا ريب ابداً ، ان بعضهم ايضاً هارب من امر ما . هارب من مجتمع لا ينسجم معه ، او امرأة يخشى زواجها ، او راحة تنخر قلبه كالسوس في الخشب . ولكن الهرب لديه هو نحو الاصعب والاشق — والاجدى . خمس سنوات يقضيها رحالة بين الاعراب يتعلم لهجة من لغة لن يقرأها ولن يكتبها . ويعود إلى لندن او باريس عودة قائد مظفر من معارك نائية ، ليصف طلوع الفجر على خيمة مرعز سوداء ، وكيف تتلقى الحصى اولى الاشعة البنفسجية فتتوهج كالآلىء ، ملقية وراءها ظلالا زرقاء طويلة ... انه يكتشف الانسان في جوهره ، وقد اغتنى بالله ونفسه عن كل شيء الا الاقل الاقل : كلمة جميلة واحدة تطربه ، وكلمة حارقة واحدة تلهبه . حيث المروءة تتبدى كل يوم ، حيث الحياة هي الشجاعة المتجددة ولا يبقى للجبان الا موته المتكرر . وفي النهاية يكتب الرحالة

٦

كتابه وينشره ، ونقرأه نحن بلغته الاجنبية لنعرف شيئاً جديداً عن أنفسنا ، لنعلم اين بعضنا منا . »

تناول فرنندو الزجاجة ، وصب لنا المزيد من الويسكي . كان وديع وهو يتكلم قد استلقى على فراشه ، وقد قمت انا عنه وجلست مع زميله على الفراش المقابل ، والرسوم مبعثرة عند اقدامنا . وأخذ خط تفكير هذا الفلسطيني يتضح لي شيئاً فشيئاً : حسبته يناقض نفسه اول الامر ، ولكنه بالعكس ، كان منسجماً مع اتجاه منطقه الكثيف .

قلت : « رغم كل هذا ، فان مغامريك هؤلاء ، كما قلت ، هاربون ، نحو الاصعب ، والاشق ، والاجدى . صحيح . ولكنهم هاربون . انهم غرباء في بلدهم ، وفي غير بلدهم . يكتشفون المجاهل في الاماكن النائية لينسوا غربتهم . ليقضوا عليها . ليعودوا مظفرين إلى عالم يريدون منه احتضانهم . ولكنهم ، ككل المغامرين ، ككل سندباد ، لن يبقوا في احضان الناس طويلا . سيستبد بهم حس الغربة ، والشهوة في الهرب من جديد . »

— « ولكن الا ترى ان لهم مرتكزاً يعودون اليه ، ويقاسون به ؟ هنري لايارد يعود إلى المتحف البريطاني بالثيران المجنحة ، والسندباد يعود إلى بغداد محملا بالجواهر . فالغربة نفسها هي غربة عن مكان ، عن جذور ، وهذا هو جوهر الأمر . الارض . الارض هي كل شيء . نعود اليها محملين باكتشافاتنا . ما دمنا معلقين من اهدابنا بالسحب الراكضة ، فاننا في فردوس المجانين هذا . نهرب ، نهرب باستمرار . وعلينا الآن ان نعود إلى الارض ، حتى لو اضطررنا فيما بعد إلى انطلاق جديد . يجب ان تكون لنا تحت اقدامنا ارض صلبة ، نحبها ، ونخاصمها ، ونهجرها لشدة ما نحبها ونخاصمها ، فنعود اليها . »

فقاطعته ، مندفعاً باتجاهه : «الارض ؟ كان أبي فلاحاً ، في جنوب العراق . ذهب الى بغداد ، وقتل فيها رجلاً «مهما» في وضح النهار .

من أجل الارض . طعنه بخنجر ، من اجل الارض . »
فادهشني اذ قال : «اعرف ذلك . »
— تعرف ذلك ؟
— اخبرني بذلك الدكتور فالح . كان ذلك منذ اكثر من ربع قرن ، اليس كذلك ؟
— قضية وانتهت .
— المهمّ هو ان الارض بقيت لكم .
— القليل منها .
— وها انت الآن ...
— نعم ، اهرب منها. ارفضها . أرفض ذلك الصراع الماحق ، الاسود ، العقيم .
— عجيب ، يا عصام . انا ، حيثما ذهبت ، ومهما توهمت ، فانني اركض باستمرار في اتجاه ارضي التي احاطوها دوني بألف كيلومتر من الاسلاك الشائكة . اركض نحوها وفي يدي قنبلة. وانت ترفض ارضك؟
— بعت معظمها . فرحاً ، طرباً ، غير نادم .
فاقترب مني ، وثبّت عينيه الجحراوين في عينيّ ، وقال :
— ما الذي انت هارب منه ، بالضبط ؟
فاجبته مباغتاً :
— من لمى .
فسكت . وسحب نفساً عميقاً من سيكارته ، ثم نفث لجج الدخان من شفتيه الشهوانيتين ، واعاد : «من لمى ! » وبعدها نهض من على الفراش ، وانحنى فوق الصور المبعثرة ، وراح يجمعها واحدة واحدة ، لا يقول شيئاً ، وأنا أرقبه ، مؤملا ، بعد أن اعترفت له بسرّي بكلمتين ، ان يكون في صمته اشارة الى تفكيره بأمري ، بانقاذي . ولكنه ما ان اقحم الصور في البورتفوليو ، واغلقه ، حتى قال :

– امرك منته .
– ماذا تعني ؟
– اعني ، عليك ان تأكل هواء وتسكت .
لم يفهم فرنندو كلماتنا الاخيرة . ولكنه كان يتتبعنا بعينيه ، كأنه يفقه بنظره لا بسمعه . واخيراً قال بانكليزيته : «آه ، لمى ؟ أتهمك السيدة لمى ؟ تو باد ، تو باد ...»
غير ان وديع بقي على اصراره . قال : «الارض . الارض هي السرّ في حياتك . مع لمى او بغير لمى . ستجرك الارض عودة اليها من جديد مهما فعلت ، اينما ذهبت . لمى هي التراب ، الزرع ، الماء . انها الارض مهما تصورت ، مهما فشلت في الامساك بها بيديك . رغم كل فلسفاتها..
لا ادري لماذا ضحكت عندئذ . ضحكت عن نقاء ، عن فرح . كأن لمى فجأة تجسّدت في الغرفة وجلست على ركبتيّ ، كما كانت تفعل في لندن . «الارض ،» قلت «تهمك لانك نزحت عنها مكرهاً ، الا ترى يا وديع ، ان حرمانك ليس جنسياً ، بل «أرضياً» . المحرومون من المرأة لا يكفون عن الحديث عنها . وانت محروم من الارض –»
فضحك وديع واخذ بذراعي ، بعد ان ودعنا فرنندو ، ليخرج بي من القمرة الضيقة ، وهو يقول : «ولكنني قضيت هذه السنين كلها مصرّاً على الزواج منها – اعني ، الارض . أجمع الفلس الى الفلس من اجلها ، من اجل نور عينيها . انا انتهت غربتي ، او كادت . لقد نقلت اموالي الى القدس ، واشتريت ارضاً واسعة في قرية قرب الخليل . وسأشتري أرضاً أخرى في بيت حنينا . وسأبني بيتاً كبيراً من حجر . وازرع البندورة والتفاح ، ولو أنني لست فلاحاً . سأطبق احدث الطرق . سأهشم الصخر ، وافرش عليه تراباً من تربتنا الحمراء الخصبة الجميلة . سأستنبت الحجر ، وربك ! سأحفر بئراً ارتوازية . سأجمع قطرات المطر آ .. وسأتزوج حالما ارجع ، لكي اجمع بين المرأة والارض .

في العمر ، بعد ، شيء من متسع . اريد ان انجب عشرة اولاد قبل ان ابلغ الستين . سأبحث عن امرأة عرف عنها انها منجبة . ارملة ما ، ربما . سأزرع ، ولو الفجل . — وسأرسم . سأرسم كثيراً . سأرسم صخورنا واشجار الزيتون ، وجدران الحواكير ، وقروياتنا بفساتينهن الزرقاء والبرتقالية و «حطاتهن» البيضاء الضافية ... تعال زرني هناك ، والبس حذاء ضخماً ، لاني سأمشي بك في الوعر ، والطين . طبعاً سأزوّد نفسي بألف اسطوانة موسيقية . فيفالدي وباخ وتلمان وجوسكان دوبري ، وبرامز ، وسيبيلوس ، وسترافنسكي ، وموسيقى اليكترونية حديثة . هذه حشيشتي وانا من المدمنين عليها . ولكنني سأعيش مع الارض ، مع التراب ، مع الصخر . ستزورني هناك ، بعد سنتين . سأكتب اليك رسائل طويلة . ليهنأ غيري بالسفر في الطائرات والسفن . لن اسافر يومئذ ، الاّ في ربوع بلدي . وكلما جُن البشر من جديد ، زرعت مئة شجرة أخرى . انا أعرف انني لا أستطيع ان انقطع عن الدنيا . ولكنني سأحاول الانقطاع عنها ، لأكون على صلة اشد بها . سيصطرعون فوق رأسي ، هذا لا شك فيه . وسأخفي في بيتي بندقيتين وبضع قنابل . ولكنني سأزرع ، وارسم ، وأربي عشرة اولاد ، سيضيفون الى روعة الحياة — وان يضيفوا الى مآسيها كذلك . ومن هناك سأعمل على تقريب الساعة الحاسمة .

«بوسعي والله ان اقف على قمة رابية من روابينا ، بين الصنوبرات العتيقة ، فوق منحدرات الدوالي والتين والمشمش والزعرور ، اقف هناك وارفع يديّ الى السماء كالمجنون واصيح باعلى صوتي : أصنا في الاعالي !

Osannain excelsis سبحانك اللهم سبحانك على هذا العطاء ، هذا الاندلاق العجيب لكأس نِعمائك على ارض البشر ، هذه الخيرات التي تسربل بها الهضاب والوهاد ، وتفيض عليها من شموسك

وأقمارك بحاراً من ضياء وفتنة ونور وحُبّ ! ولكنني أعلم ان هناك من حولي صراخاً من الدمار والويل والجوع والظلم ، صراخاً يشوّش عليّ كل كلمة اقولها ، كصفير لعين يشوّش على محطة تريد ان تسمعها من المذياع . اذن ، سأزيد من رفع صوتي ، سأشق حنجرتي بالصياح ، لكي يسمعني ربي ، لكي يسمع كلمات الشكر – وكلمات الاحتجاج كذلك .

«والآن يا عصام ، هذه السيدة البغدادية الجميلة ، ما حكايتك معها؟»

– الايمان لا يحتاج الى تعليل . ايماني ببعض الاشياء ، وهي قليلة ، لا أرهق نفسي باثباته بالبراهين .

كنا نتحدث ، أنا والدكتور فالح حسيب وزوجته لمى ، ومعنا ثلاثة أو اربعة آخرون كان بينهم يوسف حداد ومحمود الراشد . كان من عادتنا ، قبل الغداء ، إن لم يكن البحر مضطرباً ، أن نذهب – وقد يكون معنا عصام وجاكلين – الى مقدمة السفينة ، ونتكئ على الحاجز عند الجوْجوْ بالذات وننظر الى أعماق المياه التي تشقها السفينة ، بعنف متواصل ، فتبدو اذ تنشطر وتنساب على صفحتيّ السفينة المباردة أشبه بشيء حيّ يرفض التخلّي عن حياته ، فيلتئم ثانية عند المؤخرة ، منقلباً الى بياض مرمري مزبد يستطيل كذيل لا ترى نهايته . وكثيراً ما كنا نرى اسماكاً كبيرة في المياه الشفافة ممعنة في هربها من بوز الباخرة المسنون كأنها تهرب من وحش يريد التهامها . فتمعن زرافات في انطلاقها الرائع غير أنها تغلب أخيراً على أمرها ، فتنزاح الى الجانبين ، وتختفي . واذا باسماك اخرى تدركها السفينة ، وتطاردها ، ونحن نرقبها ، كأنها في

مباراة لا تنتهي .

قالت لمى : «مسكينة هذه الاسماك . انها طريدة المجهول .»

فقال زوجها : «ولكنها تعرف المراوغة ، أو تتعلمها في اللحظة الاخيرة .»

ـ ألا تموت بارتطامها على جوانب الباخرة أو بقعرها ؟

ـ طبعاً لا . انظري هناك !

على الجانبين كانت الدلفينات تنطنط عابثة ، فتبرز رؤوسها فوق الماء كالعديد من الكرات يلعب بها بهلواني بارع . تعلو وتنخفض تظهر وتختفي في لعب متواصل .

وفجأة نظرت لمى اليّ بتينك العينين اللتين كانتا تنطقان بأشياء غير مسموعة ، غير مفهومة ، ولكنها تحرّك خفايا النفس ــ على الأقل ، هذا كان فعل عينيها في نفسي ، رغم غيرة جاكاين الصريحة . نظرت لمى اليّ وقالت ضاحكة : «ما رأيك يا وديع ، هل تؤمن الاسماك بشيء ؟»

فقلت ضاحكاً : «طبعاً .»

فقال يوسف حداد : «ايمانها ، كايمان وديع ، شعري بحت .»

فقلت : «الايمان كله شعري بحت .»

استدارت لمى بظهرها الى البحر ، وقد ارتدت فستاناً صيفياً برتقالي اللون بغير أردان ، عميق الياقة حتّى منتصف الصدر . فكانت ذراعاها السمراوان الطويلتان ، اذ تلتقي يداها ، تؤلفان مع ترائبها دائرة عارية شهية تحتضن نهديها النافرين .

وقالت : «ولكن الايمان الشعري هذا ــ ايمان الاسماك ــ الا يعلله شيء من التفكير ، من المنطق ؟»

لم ادرِ أكانت تجد او تهزل في سؤالها ، غير أنني قلت : «الايمان لا يحتاج الى تعليل . ايماني ببعض الأشياء ، وهي قليلة ، لا أرهق نفسي

باثباته بالبراهين . »

وانقلب وجهها السادر الكسول الى وجه حيّ مشعشع ، يعكس شعشعة البحر الذي حولنا ، وقالت — وبدت اسنانها البيضاء اللألاءة كأنها تقضقض مني المنطق نفسه : «ولكن ، وديع ، ألم تقرأ القديس توماس أكواييناس — ما الذي يسمى بالعربية ؟ توما الأكويني ؟»

بهتني بسؤالها . كان لي ان اتوقع منها الف سؤال ، الا سؤالا كذاك . توما الأكويني ؟ فقلت : «لمى ، لقد صعقتني . حطمتني . تذكرين اذن ماذا يقول توما الاكويني بشأن الايمان ؟ يا الله ! كم سنة مرت منذ أن قرأته أنا ؟ اتعلمين ماذا درست في الجامعة الامريكية ببيروت أيام زمان ؟»

— ماذا ؟

— لا تضحكي ، أرجوك . فلسفة . رغماً عن ارادة ابي الذي كان يريدني ان ادرس الطب . كان توما الاكويني ورفاقه اشد اغراء من جثث التشريح . ولكن ، ما الذي يقوله توما الاكويني عن الايمان ؟ لا اتخيله يصر على دعمه بالحجة والبرهان ؟ »

وراحت لمى ، بين ذاك الجمع من الرجال ، ويداها تتحركان في تأكيد مستمر لحيوية عينيها ، حيوية وجهها ، حيوية تفكيرها ، تحدثنا عن توما الاكويني ... «لعلك تذكر طريقته في المنطق . يبدأ بما يسميه بالاعتراضات اولا ، ثم يجيب على الاعتراضات واحداً فواحداً . الايمان دون حجة فضيلة ، هكذا يبدأ اعتراضه الاول . كقولك تماماً . ويكمل الاعتراض ، فيقول : ولذا ، ان أتى الايمان ، نتيجة للحجة ، زالت عنه الفضيلة . »

وجعلت أتذكر الطريقة . وتذكرت معها اشياء كثيرة . وتذكرت حياتي كلها كطالب في بيروت . وتلك الروحات والرجعات بينها وبين القدس — تلك السفرات بالسيارة على محاذاة البحر من بيروت جنوباً الى

رأس الناقورة ، فحيفا ، فالقدس . رحمك الله يا توما الاكويني ... كلما عدت في الربيع ، كانت الطريق كلها ، طوال السفرة ، تضوع بشذى زهر البرتقال . وقلت : «لا ريب انه يجيب على ذلك بقوله : ان الحجة تزيد من الايمان ، وبالتالي من فضيلته ؟»

فضحكت لمى وقالت : «تماماً . ولكن هل تذكر طريقته المنطقية في اثبات ذلك ؟»

وهنا تدخل الدكتور فالح ، الذي كان يرقب الدلفينات وهي تنطنط في البحر ، وقال : لا . أية طريقة منطقية ؟»

– طريقة توما الاكويني .

– طريقة القرون المظلمة ؟ كلام فارغ والله . ليتك درست الطب يا سيد وديع . الايمان ليس ضرورة ، ولا فضيلة . هناك قناعة علمية ، أو غير علمية . والقناعة العلمية هي الوحيدة التي تستحق البحث .

– ولكن ، فالح ...

قالتها لمى ، ثم سكتت .

فقلت : آسف يا دكتور . ليست لديّ قناعة علمية مطلقاً . ايمان فقط . وبأشياء قليلة فقط .»

فقال يوسف حداد : «انه ايمان الشعراء ، لا ايمان الفلاسفة .»

فقالت لمى : «غريب . كنت أظن ان الايمانين متشابهان . طبعاً ، يتوقف ذلك على فهمك للفلسفة . برغسون مثلا يضع الحدس الشعري فوق البرهان العقلي . »

فرفع يوسف يديه وقال : «ومن اين لي ان اعرف ذلك ؟ اذن سأستمر في نظم الشعر دون الشعور بالخجل ! »

فقال محمود الراشد : «خذوا الحذر يا جماعة . اذا قال يوسف ذلك ، فانه يعني أنه على وشك ان يضع يده في عبه ويخرج قصيدته الاخيرة ...»

كان يوسف في حدود الخامسة والثلاثين : لبنانيته بيّنة عليه جداً ، على نحو ما . كانت له «سكسوكه» جميلة تطرق اليها البياض ، تضفي عليه هيبة الراهب . غير أن عينيه كانتا تقدحان باستمرار . لا ، لم يكن فيه من الرهبان شيء . فقد كان كثير النكات ، واكثر نكاته تضطره الى الانتظار ريثما تبتعد النساء عن حلقتنا لكي يستطيع روايتها .

قال الدكتور فالح : «يمكن وصف كتابتك الشعر على نحو علمي مطلق ، فتقول مثلا ، انك «تفرز» الشعر ...»

فصاح يوسف : «لَه يا حكيم ! الإفراز شيء .. قبيح .. كافراز الـ...»

– كافراز دودة القز خيوط الحرير ، يا استاذ ...

فقال محمود ضاحكاً : «هائل ! هائل ! »

في تلك اللحظة علا صوت بالصراخ على بعد قليل منا ، بلغة لم افهمها ، تلته صرخات أخرى ، واناس يركضون الى حاجز السفينة الايمن ، وبدر صوت آلي ضخم من السفينة نفسها ، كأنها ارتطمت بصخر ، وكادت تدور على نفسها قبل أن تقف في وسط العباب . وبحركة تلقائية ركضنا جميعاً الى حيث تراجع المتجمهرون نحو مؤخرة السفينة ، وخرج البحّارة باعداد كبيرة غير متوقعة ، وكان صياح باليونانية ، ولغات اخرى .

لقد كان هناك ، حيث كانت اسماك الدلفين تتقافز ، يدان تعلوان وتنخفضان – يدان انسانيتان ، ورأس يكاد لا يستبين . هل انقذف ذلك الرجل الى البحر ؟ لا ، لا. لقد رمى بنفسه فيه . رأيناه يقفز من على الحاجز . وقذفنا له بطوق نجاة ، ثم بطوق آخر ، فآخر . بولوني ، لا ، تشيكوسلوفاكي ، بل مجري ، أو ...

كان هناك صفير متواصل ، وفوضى تحولت بعد قليل الى حركة منظمة . ورأينا بحّاراً يقفز الى اليم في اتجاهه . وأنزل قارب نجاة بسرعة

عجيبة ، وفيه بحاران او ثلاثة . وفجأة هبط على الجميع سكون واجم قلق ، جعل لموج البحر الرتيب صوتاً عدائياً قاسياً ، بينما راح القارب يصارع الموج ليقترب من الرجل المنتحر .

التفتُ في وسط المحتشدين ، فوجدت لمى بقربي ، والى جانبها عصام الذي لم اكن قد رأيته ذلك الصباح. لقد كانا يتهامسان، وعلى وجه لمى امارات الفزع والاضطراب . واذا هي تقول لي : «وديع ، هذا المنتحر ، الا تظن أنه علّل ايمانه ؟»

فقلت : «تقصدين علّل يأسه ؟ ما رأي القديس الأكويني في ذلك؟»

— سأبدي لك رأيي : حسنا فعل . شجاع .

فقال عصام : «أكيد ، هارب ...» كان وجهه ممتقعاً ، وتكاد شفتاه ترتجفان .

قلت : «كلنا هاربون ... ها يا لمى ؟ »

— هل لديك ما تعلمني عن الهرب ؟

— الكثير . وان كنت احاول دائماً ان أرفضه . اسألي عصام .

— عصام ؟ اكاد لا أعرفه .

— لا تعرفينه ؟

— أين يهرب الانسان ؟

فقلت : «الى الموج . ولكن عيون الحساد يقَظة . سينتشلونه من الموج ، ويفرغون الماء من جوفه ، ويعيدون اليه عافيته ، لكيما يعاقبوه . »

فالتفت الى عصام وقال بصوت جهوري : «أتسمع ؟» .

— العقاب كجلد حصان ميت . سيموت صاحبنا .

بيد أن صاحبنا لم يمت . عندما دنا زورق النجاة منا ثانية ، وبعض من فيه يسعفون المنتحر ، لم يخطر لاحد انه سيعيش ، فقد بدا وجهه ، حتى على ذلك البعد ، كأنه صنع من زجاج ، او شمع ازرق . أصعدوه الى السفينة ، وأخذوه الى المستوصف ، وتفرّق الناس وهم في لهفة لمعرفة

مصيره (كان السؤال : «كيف يتخلصون من الميت في السفينة ؟ هل يحفظ جسده الى ان تبلغ السفينة الميناء التالي ؟ أم يجنّزونه ويسقطونه في الماء ، فيكون مثواه صخور البحر وبطون الاسماك ؟») استأنفت السفينة اقلاعها ، وأقبل الركاب على البار يتخاطفون الشراب . لم يعرف أحد ، على وجه الدقة ، من كان المنتحر . قيل انه لم يخالط احداً ، وانه كان قليل الكلام . دبلوماسي من احدى الدول الشرقية ، ربما . غير ان فرنندو أصرّ على انه من سكان الاقطار الشمالية – الجرمانية او الاسكندنافية . «كلما اقترب الانسان من البحر المتوسط ، ازداد تشبثه بالحياة. وكلما ابتعد عنه ، هان عليه الموت . هل سمعت باسباني أو يوناني ، او عربي ، انتحر ؟ قد يُقتَلون تحدّياً – أما ان ينتحروا – فمن المستحيل .» ولكنني ذكّرته بان الشائعة هي انه بولوني أو مجري أو تشيكوسلوفاكي . فضحك ، كدأبه كلما استسخف رأياً ، وقال : «شائعة يروجها أعداء الشيوعيين ، ولا ريب .

وظهر فيما بعد ان المسكين هولندي . وقد عاش .

اذيع النبأ من مذياع السفينة بعدة لغات ، وبشيء من الفخار . لقد انقذ المنتحر من انتحاره . اذيع النبأ قبيل الغداء . فلما حان موعد الغداء ، لم يكن هناك من لم يفرح بعودة المجهول الى حياته المجهولة ، ومشكلاته المجهولة – اللهم الا الهولندي المجهول نفسه .

في مساء ذلك اليوم اجتمعنا مرة ثانية في مقدّم السفينة . حركة السفينة على أشدها دائماً عند الطرفين : فهما في علو وهبوط ، مهما يكن البحر هادئاً ، مما يجعل معظم الركاب يتجنبون المقدمة والمؤخرة ، خشية الدوار . غير ان جماعتنا ما عادت تخشى الدوار – لقد كان البحر ، في الواقع ، رفيقاً بنا معظم تلك الايام الحزيرانية الصاحية . ولما التقينا تلك الليلة من جديد كان في البحر هدوء يكاد يكون رهيباً غير معقول ، كأنه صفحة من زيت ، تتألق عليه مويجات فوسفورية كنثار من الفضة . وطلع

علينا قمر متأخر ، لبريقه اللجيني المخضوضر فعل الجنون في النفس . ما الذي يريد هذا البحر منا ، بهذه الروعة الهائلة ، بهذا الجمال الغامض الظالم ؟ كان في الجنون القمري شيء من كآبة ، ولوعة ، وهول — وشيء من حب مبهم مشترك بيننا . لقد انجذبنا جميعاً الى ركننا القصي دون ترتيب مسبق . وصلت هناك مع عصام ، ونحن نتحدث عن الجزر الاغريقية ، وعن لعب الورق — الذي لا يطيقه صديقي — وعن الانتحار الذي بات عصام منذ الظهيرة يردّد ذكره ، واذا تلك المرأة الايطالية التي تحوم حوله بلا انقطاع تأتينا راكضة من بعيد ، مرتدية البنطلون ، ومعرّية معظم الصدر . وبعدها جاءنا الطبيب وزوجته يمشيان الهوينا ، وقد ارتدت لمى فستاناً اسود ضيقاً يعلو الركبتين ، وفي اثرهما فرنندو وجاكلين ، وفي يد فرنندو ذلك الشيء الوحيد الذي كنت أمقت فيه — راديو ترانزستور لا يتخلى عنه ، كأنه قطعة من ذراعه . وبعد قليل اتسعت الحلقة بمجيء آخرين ممن نعرف ولا نعرف من الركاب .

جلسنا ، واقتعد بعضنا الأرض . رفضت لمى المقعد الذي قدمته لها ، وتربعت على الارض على مقربة من زوجها ازاء عصام . كان المرح بادياً على الجميع — فقد شرب اكثرهم العرق اليوناني بكثرة قبل العشاء وبعده ، بل ان الدكتور فالح أخرج من جيبه «نصفيه» بلاستيكية من الويسكي يشرب منها ، وتكرر ذلك اثناء الحديث — فيما راح فرنندو يدير عقرب الراديو من محطة الى محطة . وكلما أصاب محطة عربية كان الغناء لأم كلثوم ... فاذا انتصف الليل العربي ، ملأه صوت أم كلثوم من كل مكان — حتى في البحر اليوناني . ورغم ان فرنندو كان يبحث عن انواع اخرى من الموسيقى ، فقد كنا نصرّ دائماً على التريث عند ام كلثوم . واذا بأميليا ، ونحن في غمرة من الحديث والضحك ، تقوم وترقص وحدها رقصاً شرقياً على طريقتها على انغام أم كلثوم . فلحق بها فرنندو بحركات كاريكاتورية ، يهز بطنه يميناً وشمالاً — وعلا صوت

التصفيق وعلت القهقهات . واذا لمى ، التي كانت في الصبح تتحدث عن توما الأكويني ، والتي كانت اسماء دوستويفسكي وابن العربي واليوت تتطاير من حديثها رغم الضحك ، ونحن نتناقش حول النشوة والغيبوبة والجحيم الذي وصفه دوستويفسكي بالبؤس الذي يجد المرء نفسه فيه عاجزاً عن الحب – اذا هي ايضاً تقوم وترقص على أنغام أم كلثوم .

وفي لحظتين انسحب فرنندو وقد غمز اليّ وأتى بحركة بشفتيه كأنه يقول : ما هذه الروعة ! وانسحبت اميليا ، محتجة بالتعب ، وجلست ارضاً مكان لمى ، ولمى ضاحكة ، ضاحكة ، ضاحكة باستمرار ، ترقص رقصة شرقية على غرار راقصاتنا المحترفات . انعقد لساني ، والجميع يحدّقون في هذا الجسد البديع المتفجّر من الفستان الضيق ، وهو يتلوى ويتماوج ويُفعي ، مؤكداً دونما خجل على الثديين المنتفضين ، والخصر الميّاس والردفين يتكوران ويستويان ، ويستديران ويترجرجان فوق فخذين طويلين مستدقين يميلان وينتصبان ؛ فلا يعرف المرء في أي عضو يركّز النظر ... كانت ترفع يدها هازلةً الى شعرها بحركة الاغراء تلك التي تحترفها الراقصات ، ولكن في هزلها أضعاف الاغراء الذي في جدهن . وكان الطبيب يتتبع تماوجها واستدارتها بعين الفخور آناً وبعين المحرج آناً ، غير أني لمحت عصام جامداً في مكانه لا يتحرك ولا يصفق ولا يأتي بصوت : كانت عيناه مظلّلتين بسواد كثيف ، ولكنني كنت ارى فيهما ناراً تتقد كأنها تنبع من اعماق رأسه . كان فمه مفتوحاً ، فتحة الدهشة والهلع – والشبق ... وقد جاءنا آخرون في تلك الاثناء ، والتفوا حولنا ، واشتد التصفيق ، ورفع فرنندو صوت ام كلثوم على أعظمه ، ولمى ترقص رقصتها الانثوية العنيفة ، وتضحك ، وتهزل ، ولا تتعب ... وأنا أكاد أخشى ان يتمزق ثوبها المشدود عن جوارحها الثائرة .

قد يبالغ المرء في بعض مشاعره بفعل الظروف المحيطة بما يرى :

بفعل الليل والبحر والقمر والويسكي واستسلام النفس في السفينة . ولكنني نسيت كل تلك التفاصيل المحيطة بلمى . لقد كانت شيئاً مستحيلاً . الهة تترنح ، بين الحلم والحقيقة ، أو جسداً شيطانياً لفظته الأمواج من قمقم قديم . كانت عيناها مكحلتين بأسود يمتد في خط من الجفن في اتجاه الصدغ : فتبدو العينان واسعتين تجسّدان توق الشعراء والرسامين واوهامهم اللذيذة . الغانية الذكية ، فريسة الهوى التي تفترس محبيها ، سيرسه التي تحول عشاقها الى خنازير — ولكنها في رقة ضوء القمر نفسه ، وحتى جسدها وهو يتثنى ويتكسر ويبرز الخفيّ والشهيّ ، يبدو لوهلة ما كأنّه يذوب في النسيم ويشف ، ويتلاشى ... ولكن القديس توما الاكويني — ما الذي يفعله بين تينك الشفتين الوامضتين ، ووراء ذينك النهدين المخمورين ؟ اين تتوارى افكارها الفلسفية عندما تجمّد نفسها من الخصر فأسفل ، لكي تنفض بالكتفين فتركّز الهمّ في الثديين الرجراجين ، ثم تجمّد الصدر وترهز بالردفين ؟

تململ الطبيب ، ثم قال بصوت نصف مسموع : «كفى يا لمى .» وبدا على وجهه مزيج من الحرج والغضب . ثم كرّر : «لمى ، كفى ! »

غير أن لمى لم تسمع — او تجاهلت — أمره ، واستمرت تُفعي على صوت ام كلثوم ، والصوت يردّد ويردّد وهو في قبضة هوجاء من الهوى ، واذا فالح ينهض فجأة ، ويرفس الراديو ترانزستور الموضوع على الارض كالمعتوه ويمسك بمعصم لمى ويجرّها بعنف من بين المصفقين والمعجبين : غير ان الراديو رغم انقذافه بين الأرجل بقي يلعلع ، وقد كفّ الجميع فجأة عن التصفيق واللغط ، وفي السكون الفجائي بان صوت ام كلثوم كأنه يملأ البحر كله — يرافقه صوت أقدام فالح ولمى وهو يجرّ بها ركضاً ، بعيداً عنا .

وأخذ عصام بذراعي ، واندفعنا نحو أواسط السفينة ، مبتعدين عن جاكلين واميليا والآخرين ، وعصام يقول وهو يرتجف غيظاً : «ما هذا

الاضطهاد ؟ ما هذا الاضطهاد ؟ »

لم يكن من الصعب ان أدرك ما بينه وبين لمى من توتر ، ولكنني قلت متجاهلاً :

«حق الزوج على الزوجة » .

– فليضطهدها كما يشاء ، او فلتضطهده هي . لن يهمني من ذلك شيء . ولكن لماذا تضطهدني أنا ؟

– يجب ان تفرح لذلك .

– أفرح ؟

– الحب أعظم اضطهاد في الدنيا . اذا كانت فعلا تضطهدك فهي ، من الواضح ، تحبك .

– يا أخي لا أريد حبها اذا جاءني في مثل هذا الاضطهاد . كل حركة منها طعنة في جسدي . لن استطيع التحمل كثيراً .

– ولا أظن زوجها يستطيع التحمل كثيراً .

– ماذا تقصد ؟ اتعتقد أنه .. يعلم ؟

– فالح ؟ لا اظن . فالح . كما اراه ، من النوع الذي يظل بليداً الى حد معين : فاذا بلغت الامور به ذلك الحد ، وقع في غيرة لن يستطيع تحديدها . سيغار عليها منك ومني ومن كل ملاّح في هذه السفينة . سترى . ولكن لا بدّ أنه اعتاد على نزوات زوجته ، كما لعله اعتاد على جمالها . منذ متى تزوجا ؟

– منذ ثلاث او اربع سنوات .

– اسمع ، عصام . لا أريد التدخل بشؤونك . ولكنني سأسألك سؤالاً ، لك ألاّ تجيبني عليه ان شئت . هل كان لقاؤكما في هذه السفينة امراً مرتّباً ؟

– أبداً إنه صدفة . ولكنها صدفة غير معقولة . ما كان يخطر ببالي أنها تسافر الا بالطائرة .

ـ غريب . غريب جداً .

ثم قلت : «عن قريب سنبلغ مضيق مسّينا . انه من اجمل مشاهد البحر في الليل . »

قلت ذلك مستطرداً ، لأنني لم أصدق كلامه اولا ، ولأنني ، ثانياً اردت ترك الموضوع . غير أنني عدت فسألته :

«لماذا كنت مضطرباً هذا الصباح ، عندما حاول الهولندي الانتحار ؟ لمى ايضاً بان عليها الفزع . »

ـ صحيح ؟

ـ المعذرة ، لعلّني أقحمت نفسي .

ـ أبداً . هل ثمة في الدنيا عاشقان لم يفكّرا بالانتحار اذا منعا عن الزواج ؟

ـ اذن قصتكما قديمة .

ـ جداً . وارجو أنها قد انتهت . ولكن ـ هل صدّقت ؟

ـ لم لا اصدق ؟

ـ الواقع ان لمى كانت تقول لي ان زوجها هدد بالانتحار اكثر من مرة في الآونة الأخيرة . وكلما سمع بانتحار أحد عاد إلى ـ لم ألح على عصام بالاستمرار . لقد حدست بان الأمر اعقد مما هو في الظاهر ، ولم أشأ أن أحشر نفسي في قضية لم تكن في الأرجح لتنتهي الى حل بسيط.

في القمرة كان فرنندو جالساً في بيجامته على فراشه ، وبيده قدح كبير من الويسكي ، والراديو ملقى جانباً ، وهو صامت . كان الامتعاض يملأ وجهه حين دخلت عليه ، وهاجم موضوع امتعاضه مباشرة .

قال : «اتدري ان الدكتور لم يعتذر اليّ ؟ كنت أحسبه جنتلماناً .

خطر لي والله ، وهو في وسط حد ته على زوجته ، ان الحق به والكمه على انفه . »

فضحكت قائلا ، وانا اخرج بيجامتي من تحت الوسادة : «ألم لم تفعل ؟»

— لأنني جنتلمان .

— سيعتذر اليك غداً ، ما في ذلك شكّ .

جعل الامتعاض يزايل وجهه شيئاً فشيئاً ، وقال :

«الامور ليست على ما يرام بينهما ، لا ؟»

— لا .

— مسكين . يجب ان يستمر في الشرب . أحسن علاج . ما الذي تظن انه سيفعل بها من الان حتى الصباح ؟

— والله لا ادري كيف يحلّ المتزوجون مشاكل من هذا القبيل .

— اذا لم ينم معها ...

— ستعلم غداً . اذا رأيته يشرب منذ الصباح .

— وماذا غير ذلك ؟ وبالمناسبة ، لماذا تركت انت جاكلين وانصرفت ؟ اعتقد انها فرحت جداً بما رأت ...

— لا ريب ان الكلّ قد فرحوا . ولو رأوا المسكينة تتخلص من زوجها وترمي بنفسها الى الامواج ، لفرحوا اكثر .

— في الواقع هذا ما راحوا يقولون .. انها ستحذو حذو الهولندي . ولكنهم لا يعرفون ان العرب لا ينتحرون . هه ؟

فقلت وانا استلقي على الفراش : «كالاسبان ، تماماً .»

عصام السلمان

لو خطر لوديع ان يقول لي : اقفز في البحر ، لفعلت . هكذا كنت اشعر كلما جعلنا نتحدث ، على ظهر السفينة او في احدى القمرات . كدت اكرهه لتلك السيطرة التي بدا لي أنه يحققها عليّ ، كأنه ينومني مغناطيسياً فيشلّ ارادتي . رجل في حدود الاربعين ، له وجه يصعب تحديد هويته . فهو كأنه قد قُد من الصخر ، تلتمع فيه العينان العسليتان كجوهرتين او كعيني هرّ في الشارع يقع عليهما ضوء السيارة في الليل . واذا الوجه فجأة يتشقق ويتهافت ، وينهار البطل الى ضحيّة . لا ، لم يكن في الامكان تحديد هويته . هذا الكلام الدافق — من اين كان يأتي به ؟ كثيراً ما شعرت أنه يهزأ بي . يخدعني بتهاويله كما خدع صديقيه القرويين بقصة تلك الفتاة المحجبة التي «توهم» أنه يلتقي بها في المقبرة . بضعة أيام كانت كافية لأن يوجد شبكة يلقي بها عليّ كلما أراه ، فأتمتع بالتخبط بين خيوطها . كلما تذكرت ذلك ، دهشت وغضبت . لعلني كنت مسلوب الارادة ازاء لمى ، فاستغلّ ، بشيطانية منه ، ضعفي

واستسلامي. ولو قال لي: اقفز في البحر، لقفزت، لأنني كنت بذلك سأنجو من اشياء كثيرة. ولكنني – وهل لي ان انكر ذلك – كنت ايضاً في بحران من النشوة. ذلك النوع الخطر، عندما تجد في نفسك استعداداً لتقبل كل شيء حتى المهانة، إبقاءً على النشوة. كنت أراه كبيراً، مهماً، ضرورياً للحياة. لماذا، كيف، لست أدري. رجل مثله لا يمكن ان يكون هارباً. انه يقبل، ولا يدبر. رجل كذاك، كنت اراني اقول، يمشي نحو فوهات البنادق، والمدافع، وتعجز كلها عن اصابته. لم يدهشني ان يتعلق به جاكلين تعلّق الكلب بصاحبه. حتى اميليا كانت قد بدأت ترفرف حوله كطير يلذ له الوقوع في الفخ. ويوسف حداد، ومحمود الراشد، وفرنندو، حتى الخدم والملاحين، لم يكونوا في منجى من شخصيته.

لقد خيّل اليّ، رغم تكتمه، انه يشارك في نشاط خاص يعمل على تحشيد فدائيين منتخبين وتدريبهم للتوغل وراء حدود الصهاينة وضربهم في الارض المحتلة نفسها. حديثه عن الارض على هذا النحو الذي لا ينقطع لا يمكن ان يكون مجرد هوس صوفي. انه يريد للعرب عودة الى الارض، تشبثاً عضوياً بالتراب. من السهل على من قضى صباه وشبابه في القدس ان يوحّد بين الله وبين الارض – أو، كما يقول بين المسيح وبين الصخر. ولكنه يوحّد ايضاً بين نفسه وبين المسيح والصخر معاً، فيرى كلها في هذا التمازج الثلاثي الذي، اذا اضطرب وتجزّأ، كان لا بد من استعادة تكامله من جديد. وديع عساف لن يكون نفسه، كما يقول، الا اذا عاد الى الله والارض معاً. فاذا احتل اليهود الارض، فقد احتلوا الهه: لقد احتلوا نفسه، هو الان اذن كمدينته مشطور، منفصم، وعليه ان يعيد الى النفس وحدتها: لا بد من استعادة الثالوث باكمله – بالدم. ومن هنا كانت ضرورة التحشيد، ضرورة الفداء.

بمثل هذه اللغة يحاول اقناعي أحياناً ، مع أنه يعلم ان تفكيري ، ولا سيما في السنوات الاخيرة ، يضيق بالمصطلح الصوفي ويؤثر ما أتصور انه موضوعية علمية . ولكنني ما عدت بحاجة الى اقناع . لو قال لي احمل بندقيتك واتبعني ، لتبعته . وقد تأكد لي ان للبحر فعله المساعد في مثل هذه الامور ، كما في امورنا مع النساء . فالمشاهد لا تتغير الا عندما ننزل الى الموانئ، واذ تعتاد العين رؤية مستويات السفينة وسطوحها، وزرقة الموج والسماء ، وتعتاد الاذن هدير البحر ودمدمة الباخرة ، مع ما في نفس المسافرين من تهيؤ لكل ما هو جديد ومثير ، يشتد الحس بتلك الاشياء التي تبدو في تغيّر مستمر : اشكال الناس ، اجسامهم ، وجوههم .. ثم اصواتهم : ما يقولون ، وكيف يقولونه . يصبح السمع حاداً ، وتتخذ الكلمات وضوحاً ومفعولاً غير عاديين . يسمع المرء كل ما يقال فيلتذ به او ينفعل له . حتى اقل الغضب ، او اقل العاطفة ، يبدو مهماً ، ويصعب التغاضي عنه . واذا جاءت الحجج مشحونة بمثل حرارة وديع وصوته وثقته ، تغلغلت في الذهن وضربت جذوراً فيه .

ولكن ما الذي استطيع فعله ارضاء له ؟ انه يتجاهل أبعاد مشكلتي الحقيقية . لقد وجدت بعد سنوات انني لا استطيع قهر مشكلتي الا بتركها حيث هي ، والانصراف الى شأني مع مستقبل بريء منها ، مهما عانيت من أجلها .

رجل واحد وقف ازاءه وقفة المتعض ، الكاره ، الرافض : الدكتور فالح . لم يكن للطبيب ان ينحاز اليه ، لأنه كان ولا ريب يعلم ان وديع هو القوة الخفية الكامنة في العدو. فلو انحاز اليه ، لفقد لمى. لا لوديع . لان وديع لم يكن ليلقي بشبكته في اتجاهها . بل لي انا . لقد ادرك فالح ان وديع سند لي . ولا بدّ أنه ادرك ايضاً أن لمى في تحطّم سريع . فكان ، بعد اقلاعنا من اراكليون كثير الشرب . كان يشرب باستمرار ، ويكاد يشتم باستمرار . كل شيء وكلّ أحد . حتى بدا لي

انه لا يحب حتى زوجته . ولكنه كان يفولذ أعصابه احياناً في الأماسي ، فيجلس الى مائدة الورق ، ويلعب مع كل من اراد اللعب ، حتى وديع عساف ، دون ان يظهر عليه سيماء كراهية او تبرم . لعله كان يصبر على المحنة التي حسب انها لن تدوم لأكثر من اربعة او خمسة ايام أخرى له بعدها ان ينفعل وينهار على هواه ، بعيداً عن هؤلاء «الصحب » . هكذا ظننت .

لم يكن فالح يكبرني باكثر من عامين او ثلاثة . وهو في الأصل من اسرة بصراوية قديمة غنية ، انتقل الكثير من أفرادها الى بغداد . ومعرفتنا الواحد بالآخر تعود الى ايام المدرسة ، فقد تخرج كلانا من الثانوية نفسها في الكرخ ، ولكنه سبقني الى ذلك بسنوات ثلاث – فبقيت علاقتنا علاقة التلميذ الاقدم بالتلميذ الاحدث : فكأن ذلك يعطيه الحق في ان ينظر اليّ دائماً نظرة الكبير الى الصغير . وقد سمعت انه ، في كليّة الطب كان من المبرزين ، لا في الدراسة فحسب ، بل في النشاط الاجتماعي ايضاً ، يشارك في الحفلات والمناظرات ، ويكتب في مجلات الطلبة ، ويتميز باطلاعه على كتب ما كان يحلم زملاؤه حتى بمعرفة عناوينها . وكانت بينه وبين لمى علاقة قُرْبَى عن طريق الأم ، مما جعل الطبيب الشاب ، الواعد بالكثير ، مكان تبجيل وتعظيم عند اهل لمى . وبعد تخرجه من كلية الطب قضى سنة او اكثر في ادنبره عاد بعدها جرّاحاً مؤهّلا للوضع الاجتماعي الذي كان يشعر أنه اكتسبه عن جدارة ، لا عن وراثة . وعندما تزوج من لمى شعرت أن عليّ أن أتلاشى ، فلا التقي به الاّ بحتمية الصدف . ولم أعرف قط هل أخبرته لمى بما كان بيننا ، وهو أمر مستبعد جداً . غير ان السنة السوء كفيلة بكل شيء .

كان يعلم بالطبع اننا كنا متعاصرين في انكلترا ، وأننا على شيء من الصداقة . ولكنه في اثناء الرحلة ، والسفينة تشق البحر المتوسط مرحة ، صاخبة ، يكاد لا يضطرب لها طرف في ذلك الصيف الرائق ، أحسّ

بكل ما يخشى أي زوج أن يحسّ . واشتد به احساس الزوج المتشكك الى ان بدا أنه يعزله عن كل من في السفينة .

والواقع ، ان تلك كانت نتيجة خشيتها منذ البداية . لقد سعيت جهدي ألاّ أبدي أي انجذاب مني الى لمى قد يثير الشك . حتى وديع لم يلحظ شيئاً ، لولا أنني وجدت نفسي عاجزاً عن الكتمان ازاءه . كيف متى ، لماذا ، جعل الطبيب يرى فيّ عدواً له ، لست أدري . وحينما اختلى بي فجر أحد الأيام ، وقد شحب وجهه واصفرّت شفتاه لأنه ، كما اعترف ، لم ينم طيلة الليل ، ولم يحلق ذقنه بعد — حينما اختلى بي وقال : «بالله كيف تستطيع ان تتحمل هذا المعتوه ، وديع ، » عرفت انه بدأ يجاهر بموقفه .

أنا ايضاً تلك الليلة لم أنم . لقد رقصت لمى في تلك الليلة رقص العواهر ، وأضرمت في كل عرق فيّ ناراً لم اكن لاستطيع النوم بعدها .

قلت : «وديع ؟ لا أظنني قابلت رجلاً هائلا مثله منذ زمان . »

— مغرور . ربما اثرى في الكويت ، فجعل يرى الدنيا صغيرة بين يديه .

— غريب ! لم أجد فيه غروراً بشيء . لعله يحب الحياة اكثر مني ومنك ؟

— لا يا عصام . انه كأكثر الفلسطينيين . مهووس بنفسه .

— مهووس بماضيه ، قطعاً . اكثر الفلسطينيين مهووسون بالبراءة التي فقدوها ، ويريدون استعادتها .

— بعد يومين ستجعل منه بطلا .. اسمع عصام ، (وهنا تردّد ، وتنحنح ، وزاغت عيناه من فوق كتفي نحو زرقة البحر المستفيق مع أول أشعة الشمس ، ثم أكمل دون ان ينظر اليّ) ما الذي أيقظك مبكّراً ؟

فضحكت وقلت : «مهما قللت من النوم ، فلا بد لي ان انهض مع

الفجر . انها من عادات الطفولة التي عجزت عن التخلي عنها . ولكن — أنت ... ما الذي أيقظك في هذه الساعة ؟

— اردت ان ارى البحارة وهم يغسلون ظهر السفينة ... لم أنم ، قل يا عصام ...

وادركت انه يريد ان يسألني عن لمى ، ولا ريب . لقد اتصلت اسماؤنا كلها بذهنه باسم لمى . عندما جرّها من يدها لتكف عن الرقص في الليلة السابقة ، قلت سيقتلها ، ويتهمها بنا جميعاً . غير انه لم يسأل ما يريد ان يسأل ، بل قال : «كم سنة قضيت في انكلترا ؟»

— كلها معاً ؟ حوالي سبع سنوات . لمى طبعاً كانت في اكسفورد عندئذ . محظوظة . اما أنا فكنت في لندن ، كما تعلم .

— نعم . لمى اخبرتني بذلك . هل كانت لمى معروفة بين اوساط الطلاب ؟ أعني العراقيين ؟

— بالكاد . اعتقد انها كانت تدرس العلوم الفلسفية ، وهي موضوع صعب يحتاج الى درس كثير . لا اظنها كانت تكثر من الخروج بين الطلاب .

(كاذب ! قلت لنفسي . ولكن من النبل ألاّ تطعن الطعين مرتين .)

وفجأة تغيّر شيء في وجه فالح . تغيرت القسمات القاسية الشاحبة الى ذل مريع ، حتى خيّل اليّ ان شفتيه ستنسحبان الى الزاويتين في صرخة من الألم . غير انه جمع شفتيه في زمة صفراء حاقدة وقال : «متى ستنتهي هذه السفرة ؟»

— أتريد الحق ؟ انا لا اريدها ان تنتهي .

— أما أنا فلا أتحمل البحر كثيراً .

فقلت في شيء من اللوم : «اتصاب بالدوار ؟»

— الدوار ؟ أبداً ، انما انا كلوستروفوبيك . لا أتحمل الانغلاق في سفينة او غير سفينة .

— وهذا البحر كله حولك !
— وانتم كلكم حولي !
غير انه نكص في الحال عما قاله .
آسف . آسف يا عصام . أعصابي متوترة . كلما أعلم انني في الصباح سأرى — «ولم يكمل .
لم يكمل شيئاً . وهممت بأن اتركه ، غير انه أخرج علبة السكاير من جيبه ، وقال :
«المعذرة . سأحاول ان آخذ الطائرة مع لمى الى لندن حالما ننزل في نابولي . ماذا تقول ؟»
— ولم لا ؟
— سيكارة ؟
واشعل لي السيكارة التي أخذتها ، ثم سيكارته . وقلت له : «يظهر انك لا تحبنا .»
— لا ، العفو . ولكن — ما الفائدة ... ان لم اشرب ، أمت . على كل ، من السخف ان اقطع السفرة ، وهي على وشك ان تنتهي . هل لحظت ذلك الفرنسي الذي يجالسنا ، أنا ولمى ، على المائدة .
أدهشني استطراده . «أي فرنسي ؟»
— هذا الذي يشاركنا في المائدة منذ ان رحلنا عن بيريوس ؟
— ما به ؟
— أتعلم انه اصرّ على ان ترافقه زوجته في رحلتها الاخيرة ؟
— رحلتها الأخيرة ؟
فضحك ضحكة باهتة .
— زوجته ماتت في أثينا . فأصر على نقل جثمانها معه بحراً الى مرسيليا ، ومنها الى باريس . انها الآن في صندوق حديدي — في قمرته .
— فظيع !

– قلت له ، لماذا لم تنقلها بالطائرة ؟ فقال انه يخشى ركوب الطائرة اولا ، وانه لاسباب عاطفية – اسباب عاطفية ، أسألك بالله ! – شعر أنها يجب ان ترافقه بحراً ، وهي ميتة ، كما كانت ترافقه دائماً وهي حية ترزق ! تصور ! تحدث عن ذلك ونحن على المائدة ! أخبرنا بذلك ، ثم انقطع عن الكلام نهائياً .

– لعله الحب ؟

– الحب ؟ فظيع .

قال ذلك والقى بقمع سيكارته الى الموج .

وانصرف ، وهو يشحشط قدميه . «فظيع . فظيع »

قبيل الظهر اجتمعنا في البار . لا أظن أن فالح كان قد انقطع عن الشرب منذ الليلة السابقة ، ولكنه كان الآن حليق الذقن ، يلبس بدلته بأناقة ، رغم تساهل الآخرين في هندامهم . وقد خيّل اليّ أنه بات يراقبنا جميعاً في كثير من الضجر ، وربما الحقد ، لست ادري . وقد راح محمود الراشد يحاول اقناعه أن السياسة كالطبّ : تستخدم الدواء مرة ، والايحاء السيكولوجي مرة ، والجراحة مرة . والاّ مات المريض .

منذ بداية السفرة كان اول ما لفت نظري في محمود الراشد قصر قامته ، وأنه رغم قصره ، رجل لا تستطيع تجاهله . كان رأسه كبيراً وشعره القصير أشبه بفرشاة مسطحة تقادم عليها العهد ، فتآكلت في اماكن كثيرة .له عينان كبيرتان ، او هكذا تحسبهما ، اذ تبرقان من وراء نظارته الغليظة العدستين والاطار . يصر صوته صريراً اذا نطق ، ولكنه صرير وئيد عنيد ، يثير الاعصاب اول الأمر الى ان تعتاد عليه ، فتتنبه الى ما يقول ، ثم تنسى صوته ، وتشعر بالتحدّي الذي يجابهك به ،

فتضطر الى أخذ الحذر في ما تقول لئلا يسفّه منك كل رأي .

يبدو انه هو ويوسف حداد كانا مسافرين معاً ، فهما ينزلان في القمرة نفسها . وقد جعل كل منهما الآخر متكأ لنفسه كلما اقتضى الأمر ، وكأن الطبيعة قد يسرت ذلك بان جعلتهما مختلفين كل الاختلاف فيوسف ، صاحب اللحية ، طويل ، انيق ، خفيض الصوت ، قليل الشرب . ولا ينطق الا اذا دار الحديث حول الموسيقى والنساء ، ولا يهمه ان يأخذ بتلابيبك ليسمعك ما يريد ان يقول . على عكس محمود الذي يوحي اليك بانه يخشى انك لم تسمعه او تفهمه ، أو تعره ما ينبغي عليك من اهتمام ، فيعيد التأكيد من جديد .

وقد انتبهنا جميعاً اليه وهو يقول للدكتور فالح ، ويجيل عينيه المؤطرتين بيننا : « اتدرون ما هو أهم شيء في الحياة ؟ »

فقال احدنا : « يا ساتر ! »

« أهم شيء في الحياة » ، قال محمود غير آبه ، « هو ان يستطيع المرء تحمل الألم دون ان ينطق . وفي السياسة، يعني ذلك ألا يخبر أحد على أحد ، مهما حدث . »

وقال فالح : « تعني ، يجب على الرجل ان يتعلم بلع الموسى ؟ »

« اكثر ، اكثر . القضية أخلاقية صرف . وكل سياسة بلا قاعدة أخلاقية مصيرها الفشل حتماً . »

لم يكن لدي شك في ان صاحبنا قد اشترك في نشاط سياسي كثير ، نشاط سري على الارجح ، يعمل وراء ما كان يرفعنا ويخفضنا طيلة السنين الماضية من حماسات جامحة متقلبة ، نحن الابرياء . كان بوسعه ان يحدثنا عن ذلك طيلة النهار . غير انه التفت إلى لمى ، وقال : « اعتقد ان السيدة لمى تؤيدني . »

فاستضحكت لمى ، وقالت : « اولياتك هذه تخيفني . هل تستدرجني إلى نتيجة لن اتوقعها ؟ »

فرفع كأسه باتجاه الدكتور فالح مستنجداً : « دكتور ، دخيلك ، أنقذني ! »

نظر وديع إلي عبر كأس « الجن » الذي في يده ، والسيكارة بين اصبعيه تطلق خيوطاً من الدخان حول وجهه ، وضحك .

وقال الدكتور : « انقذ نفسك . لقد تورطت ! »

فقال محمود ضاحكاً : « أتعلم ما قاله أحمد شوقي في الجراح علي باشا ابراهيم الذي اشتهر في العشرينات والثلاثينات في القاهرة ؟

عليّ ، لقد لقبّتك البلادُ بآسي الجراح ، ونعم اللقبْ
تعالج كفاك بؤس الحياة فكفٌ تداوي ، وكفّ تهبْ
كأنك للموت موتٌ أتيح فلم يرَ وجهك الا هربْ

قالت لمى : « عال ! أرجو انك تقصد فالح بهذا الشعر ؟ كلكم في مأمن من الموت اذن . اليس كذلك يا فالح ؟ »

فقال الدكتور : « يا محمود ، عندك اعتراف بدأت تفيض به . الأعراض واضحة . تكلم ، وسنحاول ان ندفع عنك عزرائيل . هل بلعت الموسى يوماً ؟ »

— أمواساً ، يا دكتور . شيء غريب . لأن الذي اذكره الآن ، ليس ما تحملته انا من اجل الآخرين بل ما تحمله شخص آخر من أجلي . كنت ولداً صغيراً ، في الصف الرابع الابتدائي ، أجلس على المقعد مع زميل لي . وذات يوم ، في الدرس الاخير بعد الظهر ، وقد تعبنا من الدروس والتململ على المقعد الخشبي ، طلب منا المعلم الهدوء لان المدير الجديد كان يقوم بجولة على الصفوف ، وهو على وشك بلوغ صفنا ليعطينا بعض النصائح قبل الانصراف إلى بيوتنا . فسكن الاولاد لحظتين ثم عادوا إلى التململ . وارتفعت الهمهمة بينهم ، اذ راح كل واحد يحادث الآخر ، أو يشاكسه ، او يقرصه ، أو

ينخزه بمسطرته ، فيضحك هذا ضحكة حبيسة ، ويحتج ذاك — ثم يصيح المعلم : سكوت ! وينقطع الضجيج باعجوبة — لحظتين أخريين .
« تأخر المدير . وهمس زميلي إلي : شفت المدير الجديد ؟ مربي مناخيره بقدر الجمل ! فأمسكت وراء شفتي المزمومتين وأنفي المسدود بضحكة كادت تنطلق مني . واذا المدير يدخل ، ويقول المعلم : قيام ! جلوس ! وقمت وجلست وانا انظر إلى المدير . ومنخاره الهائل . وانفجرت في وسط السكون العميق الضحكة الحبيسة من بين شفتي ، رغماً عني ، وأحدثت دوياً فاضحاً في الغرفة .
« فصاح المدير ، ناظراً في اتجاهنا ، انا وزميلي : من الذي ضحك ؟ فتظاهرنا كلانا بالجهل . من الذي ضحك ؟ وجاء نحونا. سمعت الضحكة من هنا . اليس كذلك يا ولد ؟ فقال الولد الذي أمام زميلي : بلى ، يا استاذ . من ورائي .
فقال المدير الانوف لزميلي : انت الذي ضحكت .
قال : لا ، استاذ .
اذن من غيرك ؟ انت الذي ضحكت يا كلب . وصفعه صفعة رنت لها جدران الصف .
« كان زميلي يعرف انني انا الذي ضحكت . ولكنه لم ينطق بشيء سوى : لا ، استاذ . وهوت كف المدير على وجهه مرة اخرى . ثم أخرى ، وهو يقول : اعترف ، اعترف !
« احمر وجه زميلي من الصفعات ، وانتابني خوف شديد . لم اعترف لكي انقذه . وقلت ، سيخبر المدير عني ، فيأتي دوري . ولكن زميلي أصر على عدم القول . اذن من ضحك ، يا كلب ! وهوت الكف مرة خامسة وسادسة . ما كانوا يتورعون عن ضربنا بفظاظة في تلك الايام . ثم قال له : قم ، سأجعل منك درساً للآخرين . اذهب إلى غرفتي لتأكل عقابك بالعصا !

« وانفض الصف دون سماع النصائح الغالية . وساق المدير صديقي امامه إلى غرفته ، سوق الشاة . أما انا فلم اعرف كيف اخرج .

« دفعت قدمي دفعاً ، رتلكأت في الرواق . وقال الاولاد :

راح يأكلها ! اقتربت من باب غرفة المدير ، ولكنني انتظرت . يا للجبن . سمعت صياح المدير : اعترف ! افتح يدك ! واحدة ! اعترف ! اثنين ! اعترف ! وكنت اسمع فرقعة العصا على راحة يده .

« وفجأة علا صوت صديقي ببكاء فظيع . وقال : نعم ، نعم ، استاذ . انا الذي ضحكت ! أنا ، أنا .

« وصرخ به المدير : قسماً بالله ، ان ضحكت مرة اخرى في الصف ، لأطردنك! قصاص: اكتب على ورق نظيف مرتب هذاالسطر الف مرة : الضحك امام المدير جريمة . الف مرة، فاهم؟ ما اسمك ؟

« وقبل ان يخرج رفيقي ، رحت اركض في الرواق فالردهة ، إلى الباب الخارجي . وانتظرته هناك . واذا هو قادم وقد ازرقت وجنتاه واحمرت عيناه من البكاء الذي حاول كتمه . اقبلت عليه وهممت بمعانقته ، غير انه ابعدني عنه ، وقال : أعجبك ؟ رضيت عن نفسك ؟ لم اعرف كيف اعتذر اليه ، ولكنه قال : آمل ان تفعل مثلها يوماً — من اجلي . »

رفع محمود نظارته عن عينيه الجاحظتين ، وقد بدا عليه الارهاق . واخرج منديلا راح يمسح به العدستين . والتفت وديع عساف إلى لمى وقال : « هل نصدقه ؟ »

فأجابت : « لم لا ؟ »

قال وديع : « أخشى يا محمود انك انت الذي اكلت الضربَ ، وبلعت الموسى ، وصديقك صامت . »

— لا والله .

— يعلم الله كم موسى بلعت منذ ذلك اليوم !

فاعاد محمود نظارته إلى عينيه ، وعمر كأسه من جديد ، وقال :
« كان علي في حياتي ان اكفر عما سببته لصديقي ذلك اليوم . ان اكفر عدة مرات . وبشكل يتعدى مجرد الصفع على الوجه . او كتابة الف سطر من كلام سخيف . من أجل صديق ما رأيته منذ سنين — فقد هاجر صديقي ذلك إلى الارجنتين — كان علي ، من اجل الآخرين — »

فقالت لمى : « ماذا ؟ ان تنهار ، وتعترف بما لم تقترفه ؟ »

— تحت التعذيب ، يا سيدتي . المهم ، لم يخبر أحد على احد .

— ولكن كم واحداً يستطيع الصدود تحت التعذيب ؟ والله لو ضربوني ، لاعترفت بكل ما في الدنيا من جرائم وهمية . تحت التعذيب ؟ هل هناك فترة في التاريخ تكرر فيها مثل هذا الألم والرعب كما يتكرر في فترتنا هذه ؟ عصرنا عصر الوشاية ، والاتهام ، والتشهير . أف ! لنبحث في شيء آخر .

« عصر الدودة ! » قال زوجها . جرع كأسه ويده في رجفة ظاهرة . « اني العن هذا العصر . في وسط هذا الجو المليء بأنغام المسجلات وحشرجات « الخنافس » الجنسية ، كل انسان منا ، كل واحد منكم ، مسيح ويهوذا معاً . كل واحد منكم يخان ، ويصلب ، ويسقى العلقم . ويفعلها لغيره . ما عاد يهمني ان يخبر أحد على أحد . دودة تلتهم دودة . اننا في مملكة الدودة . »

فقال وديع (وظننت انه يريد تلطيف الجو) : « ما دمنا في مملكة الدودة ، اذن ، زماننا هذا قد صفا ، والوجه استدار إلى القفا . ألا يا زمان الشقلبة ، زمان التباهي بالحفا ، والعنكبة ... رحمة الله عليك يا عوض شنوده ، سيد أهل مملكة الدودة . »

خيل إلي ان الطبيب حدج وديع بنظرة شزرة ، كأنه توهم في كلامه هزءاً به ، فأردف وديع :

« كان عوض شنوده ، يا دكتور ، بدوياً من بني تَغْمَر . كلما

جاء إلى حيّنا ، قالت النسوة ، وقال الاطفال : جاء عوض شنوده ! جاء الشاعر . فنخرج اليه ، وقد جلس على عتبة احد الابواب المغلقة لنسمع « شعره » أو بالأحرى سجعه . نأخذ اليه قطعة خبز ، أو عنقود عنب ، او حبة بندورة ، وبقدر ما نعطيه يعطينا — كلاماً . كان يعرف قصة الزير وابي زيد الهلالي سلامه عن ظهر قلب ، فيتحفنا بشيء من الراوية . ولكن أطيب ما لديه كان كلامه المسجوع . كان ادعج العينين ، له شارب ابيض ضخم يفتل أطرافه ويعقصه نزلا وعلواً كضابط الجيش العثماني ، وشعره المفضض يتدلى من تحت كوفيته على جبينه ، وهو يقول : هذا زمان العنكبة ... ولما سألته يوماً : ما العنكبة يا شيخ عوض ؟ قال : عجيب ، يا ابن الأريب ، ألا تعرف ما العنكبة والشقلبة ، والعقربة والجندبة ؟ انها صفات هذا الزمان ، هذا الزمان التعبان ، فزماننا هذا قد صفا للتباهي بالحفا ... والآن بعد ثلاثين ، اربعين سنة من الحياة والعمل مع الناس بدأت أفهم ، وصرت اذكر عوض شنوده بالخير . كما قلت يا محمود ، العمل السياسي ، بل العمل كله ، مهما كان نوعه ، بلا قاعدة أخلاقية ، ليس في النهاية الا عنكبة وشقلبة ... »

فقال محمود ملتفتاً إلى يوسف : « على ذكر العنكبة ، اين قصيدتك العنكبوتية التي قرأتها لي هذا الصباح ؟ »

فتردد رفيقه وقال : « دعنا منها يا شيخ . ولنتحدث عن عوض شنودة . »

كانت الخمر قد فعلت فعلها في محمود . فألح على يوسف قائلا : أعطني اياها اقرأها عنك . أليست في جيبك ؟ جيوبك محشوة بالاوراق . لا تخجل يا رجل . كلنا أخوة في هذه السفينة ، الصاحون والسكارى سواء بسواء . »

اخرج يوسف من جيبه رزمة من اوراق مطوية ، مضطربة ،

بحث بينها عن ورقة وجدها ، دفعها بوجه محمود قائلا : « هاك ، اقرأها أنت ! »

– المصيبة انها من الشعر الحر . رحمة الله عليك يا احمد شوقي !

لا بأس ، لا بأس ، وحياتك اقرأها .

فأذعن يوسف على مضض ، وراح يقرأ ببطء ، بصوت غليظ أبح ، غير انه صوت اخذت الالفاظ تتلون به ، تدريجياً ، كما بحيلة بارعة :

« مَن الشمس مِنّا ومَن القمر ؟
من العنكبوت ومَن الذبابة ؟
فلتكوني العنكبوت وأنا الذبابة ،
او فلتكوني انت الذبابة وأنا العنكبوت .
ألتهمك وتلتهميني
كما يفعل الصخر والبحر .
فلأكن انا الصخر
ولتكوني البحر – أم ان البحر انا ،
أهدر هائجاً من حولك كل يوم
فتصدّين وتعطين ،
تحتوين الموج وتطلقينه ؟
وإن كنت انا الصخر
عانقتُ عُنُقَك ناعماً
في هجوم وانحسار .
أصراع حب أم ضغينة ؟
من يعرف الفرق فليقل !
وليصف تآكل العنكبوت والذبابة
والصخر والبحر ، حباً وضغينة ،

في تجدّد كتجدّد الليل والنهار :
مَن الشمس منّا ومَن القمر ؟
من العنكبوت ومن الذبابة ؟ »

وعلى غير توقع فحّ الطبيب بقهقهة خفيضة شامتة ، وقال : « عنكبوت وذبابة ! دودة تلتهم دودة ! إني العن عصر الدودة هذا ! »

وضع عنه كأسه بطرقعة على المائدة ، ونهض دونما اكتراث بأحد . ودون ان يشير إلى زوجته لمى ، خرج من البار وحده .

وعندها بدر مني قول عضضت على شفتي حالما نطقت به ، لأن الآخرين كلهم سمعوه :

« لمى ، من العنكبوت ومن الذبابة ؟ »

غير ان لمى لم تغضب . استدارت نحو وديع وقالت :

« ما الذي يقوله توما الأكويني في الشيطان وتجربة المسيح ؟ »

فأجاب : « اسألي عصام . »

قلت : « يقول ، لا فضيلة بلا تجربة . »

فقالت ، وهي تهز برأسها الجميل وتضحك : « ألا يا زمان العنكبة ! »

ونهضت . ونهضنا . وخرجنا إلى ظهر السفينة وقد غمرتها شمس حارة طيبة : ولمحت أميليا ، على بعد خطوات ، تقول شيئاً للطبيب ، غير انه لم يتريث طويلا . عندها لحقت به لمى ، وقبل ان ينتبه إلى نفسه ، كانت ذراعها تلتف حول خصره .

ومر بنا ملاح يقرع الصنج : لقد ازفت ساعة الغداء . ورافقتني اميليا إلى قاعة الطعام ، وهي تقول :

« الشمس رائعة ، البحر رائع ، وأميليا الرائعة تموت جوعاً ! »

من الواضح ان الطبيب لا ينسجم معي . او انني لا انسجم معه .

ومن الواضح ان الطبيب ناقم على الحياة ، لأسباب خاصة به ، ولكنه يسقط نقمته علينا جميعاً حتى في هذه السفينة الصغيرة .

ومن الواضح ان له من الذكاء ما يجعل لنقمته اوجهاً عديدة ، ومعاني كثيرة ، وان تكن زوجته ، في اعتقادي ، السبب الاول في هذه النقمة . فالح بيوريتاني ، متزمت ، يخشى اللذة . ولكنه اصر على الزواج من امرأة توحي بالحرية ، والانفلات ، واللذة . ولها هي أيضاً من الذكاء ما يجعل لجمالها الف وجه ومعنى ، ازاء نقمته على الحياة .

ومن الواضح انني لا يمكن ان اكون الا من جانبها ، لو كان ثمة مجال للخيار . ولكنني غريب عن عالمهما ، وهما غريبان عن عالمي . فلم هذا التوتر الذي لا حاجة له بأي منا ؟ أيام قليلة وينقضي كل شيء بيننا .

ولكن الاضداد تتجاذب ، رغماً عنها . يلقاني فالح ، فيربت

على كتفي أو أربت على كتفه . يماحكني واماحكه . لو كنت مقيماً في بغداد لربما انتهى التضاد بيننا إلى انسجام من نوع لا استطيع تصوره . شهوة الحياة وشهوة الموت قد تتحدان حينئذ في صدفة فذة ، دون ان ينال اياً من الشهوتين شيء من الوهن .

« اننا في حالة يرثى لها ، » يقول .

« ولكن تغيير هذه الحالة رهن بنا » ، أقول .

« تتفاءل ، ونحن في طريقنا إلى المقصلة ؟ » يقول .

« اتفاءل ، لأن امامنا مهمة هائلة يجب ان ننجزها ، » أقول .

– والمقصلة ؟

– نهدمها .

– لأن المهمة الهائلة في انتظارنا ؟

– كميناء نحن مسرعون اليه .

– احلم .

– لا بأس ان احلم . ولكن القضية قضية حسابية صرف .

– أهكذا تجري حساباتك التجارية ؟

– وأربح .

– أخشى اذن انك تغش .

– لا ضرورة للغش . ولكن الذي أجده مفيداً هو شيء من الفلسفة .

– للغش اسماء كثيرة .

– اذا كانت الفلسفة أحد اسماء الغش .

– العفو ! لا أقصد أنك تفعل ذلك عن وعي . اقصد ان الكيان النفسي كله يتكيف ، مراوغة للواقع . وهذه المراوغة لها اسماء كثيرة .

– ولكن الربح عملية مجابهة للواقع .

– تقصد عملية استغلال للواقع .

– عملية اخضاع للواقع . وهنا نعود إلى مقصلتك . نخضعها ،

ونهدمها . وننجز المهمة .
— وما هي المهمة ؟
— المهمة يا دكتور ؟ كل شيء . فلسطين ، المستقبل ، الحرية .
— وهل ترى بين هذه صلة تستطيع تعيينها ؟
— هذا ما اراه ، ولا أرى الا غيره .
— والمقصلة ؟
— المقصلة ، كما افهمها ، هي العدو .
— اتفقنا اذن !
— دكتور هل حقاً اتفقنا ؟
— ماذا تشرب ؟
— ويسكي .
— ومع الويسكي نستأنف حواراً آخر .

« ذات مساء ، حوالي منتصف الليل ، دعيت بالتلفون لعيادة حالة خطرة مستعجلة ، » يقول الدكتور ، شرح لي اهل المريض ، بالتلفون ، كيف أجد منزلهم ، على طريقتنا ، كما تعلم : في المنطقة الفلانية ، بعد الجامع المضاء بشارعين إلى اليمين . وفي وسط الشارع تجد قطعة ارض كبيرة غير مبنية . تأخذ الشارع إلى اليسار منها ... وهكذا . وبغداد مدينة في اتساع دائم وفراغاتها ما زالت كثيرة ، حتى في الاحياء العامرة . قلت لزوجتي انني لن اتأخر اكثر من ساعة ، وخرجت بسيارتي ، حسب الوصف . ويشاء الحظ اللعين ان ادخل شارعاً فيه عدة فراغات ، وجزمت انه ليس بالشارع الذي اريد .

« وفجأة ، بَنْشَر ! طقطق دولاب السيارة فاوقفتها . نزلت لانظر إلى الاطارة المعطلة . شارع مهجور . منازل متباعدة . لا بأس ، قلت ابدل الاطارة في بضع دقائق . واذا بي أجد ان رافعة السيارة ليست في الصندوق . لقد سرقت ! فجعلت اشتم . انتظرت قليلا لعل سيارة

تمر . ولكن لم تمر اية سيارة . فقفلت السيارة ، واتجهت نحو الطريق العام حيث يشتد احتمال عبور سيارة اجرة . وما كدت ابتعد عن سيارتي مسافة عشرين متراً ، حتى انطلق في اتجاهي كلب ينبح . وعلى اثره، رأيت كلباً آخر يأتي من بعيد . ثم ثالث ، فرابع . كلاب سائمة تعيش في هذه « الفراغات » التي تحتلها أحياناً الاكواخ والصرائف . تصور : ستة كلاب او سبعة ، ضخمة ، سوداء ، ارى بريق انيابها حتى في ذلك الظلام ، وقد تهيأت لنهش لحمي ، احاطت بي في حلقة ضارية ، وعواؤها وحده يكفي لارهاب عشيرة كاملة . لم ارتعب في حياتي كما ارتعبت في تلك اللحظات . اقشعر بدني ، وأخذت اصرخ كالمجنون ، وأضرب الهواء بيدي الفارغة — لم اجد حتى حجراً في متناولي اضربها به — لعلها تفزع مني . عبثاً . واقترب مني احد الكلاب اقتراباً خطراً ، وصياحي يمزق حنجرتي ، وقد جف حلقي ولساني . وبلمح البصر خلعت معطفي وجعلت اضرب به ، وانا ادور على عقبي دورات لولبية ، سريعة ، في اتجاه سيارتي . ادور وانفض المعطف حولي كأنه الدرع ... لك ان تضحك يا وديع . لقد ضحكت انا ايضاً فيما بعد ... ولكن لما بلغت السيارة ، بعد ذلك العذاب ، كانت ابوابها مقفلة ، والمفتاح في احد جيوب المعطف الذي كنت ادرأ به عني الأنياب الجائعة . وهلعت عندما تصورت ان المفتاح ربما سقط من جيب المعطف في اثناء تلويحي به . واذ جعلت ابحث عنه ، وأرفس الكلاب استقرت انياب احدها في بطة رجلي ، ولما نهرتها بقوة ، اندفع عني وهو يحمل بين اسنانه شريطاً من بنطلوني وشريحة من لحمي ، ولكنني كنت قد وجدت المفتاح ، واستطعت فتح الباب ، وارتميت إلى الداخل لاهثاً ، واقفلت السيارة على نفسي .. »

فقلت : « يا فاعل الخير .. »

— ها ! مغامرات طبيب ! أترى ماذا اقصد بالمقصلة ؟

ـ العدو ؟

ـ انت تفكر بالخارج ، وانا افكر بالداخل . من الصعب ان نتفاهم . العدو في الخارج لا بد من التهيوء له . طيب ، اتفقنا . ولكن العدو في الداخل ؟ الأنياب الصماء التي تطبق على لحمك وانت في طريقك إلى انقاذ الذين هم على وشك الموت ؟

ـ وما الذي صار من المريض ؟

ـ لا ادري . لانني قضيت الاسبوعين التاليين في المستشفى . ولكن لا تراوغ . انت تفهمني ، ولكنك تراوغ .

ـ والله يا دكتور ، انا ايضاً لحقت بي الكلاب ، ونهشت لحمي . في عصر احد الايام ، قتلت الكلاب من كان أعز علي من اخي ، وكادت تقتلني .

ـ أجاد أنت ؟

ـ نعم ولكنني ، ولا تسلني كيف ، استطعت قتل بعضها . لن اروي لك القصة ، لانها طويلة .

نظر إلي نظرة متسائلة ، ثم ابتسم .

قلت : « كأساً اخرى ؟ »

كان الصباح في عنفوانه ، وحركة الركاب في الباخرة على اشدها ، كأن الشمس الحارة تطلق طاقاتهم الكامنة . يركضون ، ويضحكون ، ويصرخون ، ويلعبون كرة المنضدة ، ويستلقون على ظهورهم وبطونهم في كل اتجاه ، والترانزستورات الصغيرة التي يحتضنونها تتجاوب بانواع من الموسيقى والغناء ، عوالم صغيرة تؤكد على فرديتها وتناقضاتها .

عندما انضم الينا محمود الراشد ، أتته لمى بكتاب سميك وقالت ، مشيرة فيما يبدو إلى حديث سابق بينهما : « هذه هي الرواية . لم انهها بعد . ولكنني وضعت خطوطاً تحت الاسطر التي ذكرتها لك .

باي ، باي ! » وتركتنا .

« الأبالسة ، لدستويفسكي . لم أقرأها بعد . » قال محمود ، وراح يقلّب الاوراق ، بحثاً عن الاسطر « المؤثرة » اريد ان ارى ما الذي يثير اهتمام السيدة لمى . »

فقال فالح : « دعني اخبرك . آراء شيغالوف . فلمى هذه الايام تردد عباراته : انني أبدأ من الحرية التي لا حد لها ، وانتهي إلى الاستبداد الذي لا حد له . وهي تناقشني ، وتناقش الآخرين ، حول هذه الفكرة التي تقلقها . »

استقر محمود على صفحة كثيرة الخطوط ، فقال : « اسمعوا . » وراح يقرأ بالانكليزية :

— « انه يقترح كحل لهذه المسألة تقسيم البشر إلى قسمين غير متساويين . فيتمتع العشر الواحد بالحرية المطلقة والسلطة غير المحدودة على التسعة الأعشار الاخرى .وعلى الآخرين ان يتخلوا عن كل فردية ويصبحوا اشبه بالانعام ، واذ يخضعون خضوعاً لا يُحدّ ، يتجددون مرة بعد اخرى إلى ان يدركوا تلك البراءة الأولى ، كأنهم في فردوس عدن جديد .. » يا ويلك يا روسو ... وهنا عبارة أخرى : « وهو يقترح نظاماً للتجسس . فكل عضو من أعضاء المجتمع يتجسس على الاعضاء الاخرى ، ومن واجبه أن يشي بها وينم عليها . فكل واحد ملك للجميع ، والجميع ملك لكل واحد ... » إلى آخره . ثم : « ليس في وسع الادمغة الجبارة الا الاستبداد ، وشرهم دائماً اكثر من خيرهم ، لذلك فانهم سيفنون ، أو يعدمون . شيشرون يجتث لسانه ، وكوبرنيكس تفقأ عيناه ، وشكسبير يرجم بالحجارة ... » اسمعوا ، لم انته بعد ...

حاولنا ان نوقفه عن المضي في القراءة ، ولكنه أصر على قراءة بضع جمل اخرى . « فلتسقط الثقافة ! كفانا علماً ! لدينا بدون

العلم مواد تكفينا لألف سنة ، ولكن على المرء ان يتعلم الانضباط . ان الامر الوحيد الذي ينقص العالم هو النظام . أما التعطش إلى الثقافة فتعطش ارستقراطي . وحالما تؤلف لنفسك روابط عائلية ، او تحب أحداً ، تنبثق فيك رغبة في استملاك الاشياء . سنحطم تلك الرغبة . سنستخدم السكر والتشهير والتجسس . سنستخدم الفساد الذي لا يصدقه العقل . سنخنق كل عبقرية في مهدها . سننزل بالجميع إلى القاسم المشترك الاصغر ! مساواة تامة غير منقوصة ! »

« المقصلة ! » قال فالح . وضحك .

أما محمود فبقي يتمعن في أسطر الكتاب ، ويهز برأسه . ثم قال : « اذا غضب دستويفسكي على شيء ، تكلّم بنار الانبياء . »

قال فالح : « ولكن ما قرأته الآن ليس نار الانبياء . انه رؤيا الرعب القادم ، والذي لا شك في قدومه . »

قلت : « الكتاب كله ، رؤيا العدمية التي كان دستويفسكي يخشى انها سوف تجتاح لا روسيا وحدها ، بل العالم كله ، اذا تخلى العالم عن تعاليم الكنيسة الارثوذكسية الروسية . »

قال فالح : « فيه أفظع انتحار قرأته في رواية . انتحار مدروس ، يتهيأ له المنتحر ، كما قد يتهيأ الانسان لسفرة ، أو صفقة تجارية ، مع التأكيد على جني الربح — السياسي ، الانساني — لا ادري . معظمنا ينتحرون دون ان يستطيعوا حتى تعيين الاسباب . محمود ، هل فكرت يوماً بالانتحار ؟ »

— ابداً .

— وانت يا وديع ؟

قلت : « ربما ، كقضية فلسفية . أي أفضل ، سيزيف يدفع صخرته عبثاً كل يوم ، أم الانتحار ؟ ولكن كامو أبرع منا جميعاً في بحث الموضوع . »

– قرأت كتابه « اسطورة سيزيف » ، ولم أقتنع . الانتحار ما زال هو التحدي الأهم ، بالنسبة إليّ .

اغلق محمود الكتاب ، ووضعه في حضنه ، وقال واصابعه الغليظة تدق على غلافه المصور : « لم يتح لي وقت كاف للتأمل في الانتحار . التحدي الأهم ، بالنسبة اليّ ، هو السلطة . السلطة كشرعة اتفق عليها البشر ، منذ ايام السومريين والفراعنة . اين الحد الفاصل بين السلطة والاستبداد ؟ بين السلطة كرعاية ، والسلطة كاستغلال ؟ السلطة كتنفيذ لارادة الأمة ، والسلطة كتنفيذ لارادة العشر الواحد، كما يقول صاحبنا هنا ، في حق الاعشار التسعة الاخرى . »

واذا الطبيب يحدق في شفتي محمود كأنه جعل يسمع أنغاماً تهتز لها اوتار قلبه . « تعني ، السلطة كفتح طريق مسدود ، والسلطة كمقصلة ؟ »

– أعرف ما الذي ترمي اليه يا دكتور . تاريخنا الحديث معقد ومتشابك –

فقاطعه فالح : « أبداً ! انه واضح وضوح يدك هذه . ولكن الويل لك ان انت حاولت تحديد هويته ! »

غير ان محمود بقي على هدوئه وترويه ، كأنه يبغي ملاحقة تسلسل افكاره رغم الاستطراد ، وقال :

« كان التاريخ دائماً كذلك . التاريخ ، كما يقول البعض ، هو قصة صراع الحرية مع الطغيان ، صراع الروح مع المادة . ولكنني أرى ان كمية الطغيان في اية فترة في العالم ، تساوي كمية الطغيان في اية فترة اخرى . وهكذا الحرية ، على الارجح . »

قلت : « رغم الصراع بينهما ، تبقى الكميتان على حالهما ؟ »

– بلد تزيد فيه الحرية ، وبلد آخر يزيد فيه الطغيان . فئة تنطلق ، وفئة تنغلق . وهلم جراً .

– طبعاً ، كثيراً ما يجري الخلط في التسميات ، فيسمى الطغيان

بالحرية ؟

– طبعاً . قليلون هم الطغاة الذين يعترفون بانهم طغاة .

– الا العباقرة المجانين منهم . كاليغولا ، نيرون ، الحجاج . اذا كان ما يدعى بالحرية هو ايضاً في الغالب طغيان ، الا ترى اذن معي ان الكميتين ، كما قلت ، غير متساويتين ؟

– المهم الرغبة في الحرية ، الصراع من أجلها .

فسأله الطبيب بعصبية : « ونحن ، اين مكاننا من ذلك كله ، يا سيدي ؟ »

– مرة هنا ، ومرة هناك . في الواقع ، اننا – لا نحن فقط ، بل الانسانية كلها – تدور في حلقات مفرغة . تحلم الانسانية بالمساواة المطلقة ، وتقوم ثوراتها في كل جيل ، وتبقى المساواة حلماً رغم هذه الثورات كلها . ولكن التاريخ يستمر ، صراعاً بين الحرية والطغيان . وعلينا ان نستمر به نحن ايضاً . الصراع لا بد منه . انه الدليل على ان الأمة حية . عندما تتحجر الأمة ، وتجف قوة الصراع ، تبقى ارادات الافراد . فاذا ظهر افراد يستمرون بالصراع ، في آرائهم ، في تجاربهم –

وقاطعه فالح : « متحدّين المقصلة ... »

– فان الأمة لها ان تأمل في التحرك نحو المستقبل من جديد . في حياتنا ، ما زال الأفراد هم المصارعون .

– وأي صراع ! صراع في عالم من الشر . يقولون ان الخير اذا لم يكن ازاءه شر يتحداه لا توجد الحضارة ، عال . ولكن الشر اذا بقي ممسكاً بالخير من خناقه ، أية حضارة ثمة ممكنة ؟ انه عالم شيغالوف . عالم التجسس والقذف والشتيمة . عالم العبيد .

لم يخف علي ما في يد الطبيب من رجفة ، وهي تمسك بكأس الويسكي ، حين قال ذلك . كان يتكلم كمن ابرز رأسه من حفرة

أطلقت عليه فيها الثعابين ، يحاول الخروج منها ولا يستطيع . « اني ارفض العالم الذي لا يتيح لي ان ارفع صوتي محتجاً ، او مطالباً ، او او مصراً على انسانيتي ، دون ان يضربني على رأسي . »

بدا على محمود شيء من الحرج ، وقال مبتسماً : « طبعاً وأنا ارفضه كذلك . ووديع يرفضه . »

– لا ، لم تفهمني يا محمود . أنا اشعر انني في عالم فرض علي فيه الخيار بين الصمت ، او المقصلة . لماذا يتحتم علي ان اردد ما كان يردده أهل القرون المظلمة ، « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ؟ »

– ولكن المتكلمين كثيرون يا دكتور .

– طبعاً كثيرون . عندما يكون الكلام نفاقاً محضاً ، أو كذباً محضاً ، يكثر المتكلمون . ما الضرر ؟

فصدرت عن محمود قهقهة غليظة خفيضة ، كأنه لا يريد اطلاق سخريته كلها من صدر مليء بالسخرية ، وهو ما زال ينقر على رواية « الابالسة » ، ويتجنب اثارة فالح اكثر مما استثير . وقال : « لعل ذلك جزء من الصراع ؟ »

غير ان الطبيب كان قد بلغ نقطة لن يتراجع عنها : « الصراع ؟ الكذب لا يمكن ان يكون الا كذبا . الكذب لا يحمل ضجة التحدي ، ضجة الكبرياء . والحياة لا يصنعها الا المتحدون ، ذوو الكبرياء . أف ، هؤلاء الكذابون ! الصحفيون يكذبون . الادباء يكذبون . السياسيون يكذبون . الاساتذة يكذبون . نفاق لا نهاية له . يتحدثون عن الانتهازية ! اعطني ما اريد وخذ ما تشاء من كلام ، شتيمة ، مدح . يكفي ان تكذب مرتين او ثلاثاً لتستمرىء الكذب . يخافك الناس ، لأنهم يعرفون انك بارع في الكذب . والكذب يجر الى المزيد من الكذب ، عالياً وسافلا وفي كل اتجاه . واذا الحياة كلها تتقولب على

التظاهر ، والزعم ، والدجل ، ويصبح رأس اللسان أخطر من رأس الرمح . كيف استطيع والحالة هذه ان اقرأ جريدة ، ان اسمع خطبة « وطنية » او سياسية او اجتماعية ؟ الكلمة تعني عكسها ، والعكس لا يعني شيئاً . والكل يعلم انه يكذب . اكذب عليك ، وتكذب علي ، والشاطر من يجعل اكذوبته أروع ، او افظع ، او افتك ، او اتفه — حسبما تقتضيه الظروف — والظروف مؤاتية لخمسين نوعاً من الكذب . هذا يقول انه يؤمن بالحرية : انه يكذب . انه يهيء لك زنزانة . وذاك يقول انه يؤمن بالشعب : انه يكذب . راجع حسابه في المصرف بعد مدة . انظر إلى البيت الذي ابتناه في هذه الاثناء . إلى قناني العطر التي تراكمت على منضدة زوجته او خليلته . وكلما انقلبت الاحوال ، ظهرت فئة جديدة من الكذابين . والصادق واحد في الألف ، ضائع ، مستسخَف ، ساذج ، حائر بائر ، لا يفهم لماذا لا يتقدم في الحياة . امواج الكذابين تتدافع من حوله ، وهو لا يدري ، وأحياناً لا يصدق ، ولا يعرف ماذا يصدق . أخيراً يغلق اذنيه عن الضجيج . يسد فمه . ويتمنى لو يغمض عينيه ، لولا انه ما زال ، لسذاجته ، يريد ان يرى بهما ، لا بأذنيه ، وليكن ما يكون . لا ، لقد سئمت . زهقت . قرفت . لا اريد ان أقرأ جريدة ، او اسمع مذياعاً ، أو احضر حفلا عاماً . ليتزوج الكذابون الكذابين . وليدفن الكذابون الكذابين .

فقاطعته : « ما الذي بقي لنا اذن ؟ »

— الكتب الجيدة وحدها لا تكذب . الجسد وحده لا يكذب . المبضع وحده لا يكذب . انها قد تخطيء . ولكن أخطاءها شريفة ، لانها لا تكذب . في ساعة من ساعات مرحك يا وديع ، وانت المتفائل الكبير ، قد تقول عني : يتحدث الطبيب كأنه مراهق ساذج رأى مؤخرة أمه لاول مرة . لا بأس . لأنني ، كهذا المراهق الساذج ، اريد تمزيق الوهم من حولي ، ولكن كلما رأيت الحقيقة ، او ما

يخيل إلي انه الحقيقة ، ارتعبت ، وغضبت . والآن لا ادري في الواقع ما هو السرطان الضارب في هذا الجسد : الكذب أم الحقيقة ؟

– لقد اوقعتنا في حيرة يا دكتور . اذا كان للحقيقة ايضاً ان تكون سرطاناً ، ولو كامكانية ، ما الذي لنا ان نفعل ازاءها ، سوى مجابهتها بمبضعك ؟

– بالضبط . بالضبط .

– واذا فشلت العملية ؟

– تكون المأساة قد حققت نفسها . والمأساة دائماً نبيلة ، مهما تتقطع نياط القلوب حزناً عليها .

فقال محمود : « اني اتفق معك – ولكن إلى حد ما . »

– إلى حد ما ؟

– نعم . لأنني في الوقت نفسه أكاد اشم في أقوالك رائحة الانتحار .

– ولم لا ؟

– لأنني ارفض الانتحار . هناك شعور يعتور بعض طبقات الناس احياناً ، يوحي اليها بان كل ما في الحياة يهددها . ولاسيما عندما تشعر بأن مصالحها مطوقة ، فتتذرع بشتى انواع التطرف ، حتى الانتحار .

– محمود ، هذه النغمة سمعتها كثيراً من قبل . انها جزء من ارهاب يوجهونه لكل من يقول : محصت معطياتكم ، فوجدتها كاذبة . فيقولون له : طبقتك مهددة بالاضمحلال . طز ! انا قد انتحر . ولكنني لا افعل ذلك ذوداً عن « بعض طبقات الناس » كما تقول . اني افعل ذلك لانني فالح ، ابن الشيخ عبد الواحد حسيب ، الذي نظر إلى العالم فوجده كرة مليئة بغاز سام خبيث الرائحة تفش رويداً تحت انفه ، فركلها بقدمه إلى حيث ألقت ، واكد بذلك على انه يرفض ،

كما شاءت له ارادته أن يرفض ... ويسكي آخر ؟

في هذه الاثناء لمحت اميليا تروح وتجيء اكثر من مرة على مقربة منا ، واحسست انها تود الجلوس معنا ، لولا ان استغراقنا في الحديث لا يشجعها . وبالفعل ، ما كدت الوح لها بيدي حتى اقبلت وخداها يلتهبان حمرة حيية ، وعيناها الزرقاوان تلتمعان . ونهضنا ثلاثتنا لها ، غير انها لم تجلس وقالت : « آسفة لمقاطعة حديثكم . » فبادرها الطبيب وهو يداري ذروة انفعاله ، بقوله : « بل نشكر لك مقاطعة حديثنا . تفضلي . »

— في الواقع ، دكتور ، اردت كلمة معك على انفراد .

— وتحرمين نفسك متعة مجالسة وديع ومحمود ؟

فقال محمود : « بل نحن المحرومون من متعة مجالستها . »

فاحمر خداها من جديد (ما كنت اتوقع منها ذلك الخفر كله)، وقالت : « اني أطلب ما لا يجوز لأحد ان يطلبه من طبيب في اجازته: استشارة طبية . »

ولم يتردد فالح . طلب لنا شراباً من جديد ، واستأذن بالانصراف ، ثم اضاف : « سأعود بعد لحظة . »

وذهب مع اميليا .

وعلق محمود بمكر : « أترى كم الطبيب محظوظ ؟ اذا ذهب إلى غرفتها الآن ، ما الذي نستطيع ان نقوله سوى انه يفعل ذلك خدمة للانسانية المعذبة ؟ »

— ولكن الذي له زوجة كلمى ، هل تظنه

— النفس امارة بالسوء يا وديع . ولكنني أمزح . فالدكتور فالح أبعد الناس ، كما ارى ، عن الخفة تجاه النساء . انه مشغول بغضبه .

— هؤلاء المشغولون بغضبهم يحملون طاقات عاطفية رهيبة . النار تلتهمهم من الداخل ومن الخارج ، وبأشكال كثيرة . تجاه النساء ايضاً .

حالما تركنا النادل بعد تجديد شرابنا ، دفع محمود كرسيه نحوي ، ودنا مني برأسه الضخم ، حتى كادت نظارته السميكة تمس وجهي . « اني قلق » ، قال هامساً ، كمقدمة لشيء يتردد في الافصاح عنه .
— بشأنه ؟
— نعم . رجل في مثل صراحته وحساسيته وذكائه ، يمكن ان يكون صاحب اثر كبير في توجيه بلاده لو اشترك في عمل سياسي منظم . ولكنه مستقل ، مستقل جداً ، ولا يرضى عن شيء . لقد رأيت اناساً مثله في اماكن كثيرة . يشربون حتى الموت ، لانهم في رفض مستمر . كل ما في الحياة يقصر عن عنفهم الداخلي . والقليل الذي رأيته منه في هذه الايام الثلاثة او الاربعة يجعلني أجزم انه — ارجو ان تعذرني عن هذه الصراحة — لا يحب زوجته هذه التي تتغنون جميعكم بها .
— ولا اظنه يحبنا كثيراً كذلك .
— لا أدري . كلما حدثته وجدته متوقداً . ولكن في اتجاه لا استطيع تحديده . يذكرني ، كما قلت له قبل قليل ، بتلك الفئة الارستقراطية التي اذ ترى ، بذكائها المفرط ، مصيرها المظلم ، تحاول اقتحام الموت قبل ان يقتحمها الموت . لو أراد ، لكان ثائراً كبيراً .
كان محمود يوحي لسامعه ، عن وعي او غير وعي ، بأنه هو نفسه من فئة ثائرة ، أشبه بمفكر يغذي بآرائه حركة سرية لم تجهر بعد بأهدافها . وكنت اتمنى معرفة المزيد عنه ، لولا تملصه الزئبقي كلما بلغ الحديث بنا حد الاعتراف الحقيقي .
قلت : « ولكنه ثائر ، على طريقته . ألا ترى ذلك ؟ »
فهز رأسه هزة الأسف ، ومط شفته السفلى الغليظة مطاً غريباً : « ثورته كالبخار المنفجر عن مرجل قاطرة — يذهب البخار هدراً ، وتبقى القاطرة مكانها . لا بد للطاقة من تنظيم يا وديع . »

— كما يقول شيغالوف ؟
— كما يقول كل من يريد تغيير المجتمع ارادة حقة . في الانسان قوى شريرة ، بقدر ما فيه من خير . كيف ننقذ الخير من هذه القوى ؟
— بالتمرد . كما يفعل فالح . أتدري يا محمود ؟ انه يزعم انه لا يتفق معي في الرأي . بل انه اكثر من مرة ابدى نحوي إعراضاً لا أدري كيف تغلب كلانا عليه . ولكنني جعلت الآن أرى وجهة نظره بوضوح اكثر . لا احسبه سيرى وجهة نظري ابداً . غير مهم . لانني بدأت أحبه ، أو ، على الأقل، بدأت اتعاطف معه .
— السفرة قصيرة ، لسوء الحظ . سنفترق جميعاً عن قريب ، وتتبدد فينا هذه العواطف كلها ، وكأنها لم تكن .
— صحيح ؟ أما انا ، فما من تجربة الا وتترك اثرها فيَّ . والآن قل لي ، بصراحة ، هل انت هارب ؟
— هارب ؟
قالها محمود وانتصب ظهره مبتعداً عني ، كأنني صفعته . فكررت : « هل انت هارب ؟ »
القى محمود بالكتاب بعيداً عنه على المائدة ، ورفع الكأس إلى شفتيه بسرعة ، ودلقه في بطنه دفعة واحدة .
— هارب ؟ ابداً . لكل مأساته في هذه الحياة ، ومأساتي هي انني لا اهرب . فيم سؤالك ؟
— لانني بدأت ارى ان للهرب اشكالاً لا تحصى . وان مأساتنا الحقيقية هي اننا ذهنياً هروبيون . كلنا شعراء ، وان لم نقل الشعر : تغرينا الأخيلة ، فنلحق بها ، حيثما تأخذنا . وتبقى الحقائق الفعالة وراءنا .
وبدا عليه شيء من الارتياح لجوابي ، ففي تعميمي في القول ، له ان يبتعد عن تهديفي ما استطاع .

– أتحسبني انا ايضاً من اولئك الشعراء الذين لا يقولون الشعر ؟ لا ، يا وديع . انا قد أحب الشعر ، ولكنني اؤكد لك ان فوق كتفي رأساً لا يتناول الحقائق الا تناولا علمياً . وهكذا انظر إلى طبيبنا فالح ، واليك ، وإلى كل من ألقاه في حياتي . أنا أؤمن ان المجتمع لا بد من تغييره . كيف ، وفي اي اتجاه ، هذه تفاصيل ادرسها أيضاً . ما الثورة ؟ ما التمرد ؟ ما النضال ؟ ما السلطة ؟ ما الفرد ؟ هذه كلها بالنسبة إلي اوليات أسعى في تحديدها بوضوح .

– ومع هذا تزعم ان كمية الطغيان وكمية الحرية ، رغم صراع الانسان المستمر ، لا تتبدلان كثيراً ؟

– هذا من الناحية التاريخية الصرف . انه فهمي الواقعي للتاريخ.

– والايمان ؟

– الايمان بماذا ؟ الايمان لا شأن لي به .

– اذن ستبقى مع الطغيان .

– الايديولوجية التي أعتنقها غنية عن الغيبيات . رياضيات ، هكذا اراها . المهم ان تحدد الكميات المعلومة ، والمجاهيل ، فتستنبط المعادلة الصحيحة .

وهنا شردت عيناه نحو البحر ، واسترخى ظهره حتى انحنى ، واسترسل بصوت منخفض : « عندما كنت في الخامسة عشرة من عمري نظمت قصيدة لم يبق في ذاكرتي منها الا بيتان . تصورتني يومئذ في قارب صغير ، ألقي به في يم هائج . ما اروع بحرنا هذا . أنظر ! أمواجه تداعبنا مداعبة المرأة عشيقاً نائماً في حضنها . اما البحر الذي تصورتني اجذف فيه ، فقد كان وحشاً مجنوناً تلعب امواجه بقاربي لعباً ظالماً :

يسرة تدفعُه ... يمنةٌ تسترجعُهُ
والقلب مني واجفٌ ... واليأس مني يخلعُهُ

هذا كل ما اذكر من قصيدتي : الزعزعة ، الخوف ، اليأس ، وانا بعد فتى صغير ، لا أكاد اعرف من الحياة الا ما أقرأه في الكتب . ومنذ ذلك اليوم وأنا احاول ان انقذ قاربي ، وانهي الزعزعة والخوف واليأس . وتسألني ، بعد هذا ، ان كنت هارباً ؟ »

لقد رق صوته الغليظ واضطرب ، حتى خيل الي انه يتهدج ويتخضل بدموع لا ترى من خلال نظارته . كان جريحاً ، ويحاول انكار جراحه . لماذا أراني اليوم استدر من هؤلاء القوم خفايا نفوسهم ؟ ام انهم هم الذين ينتظرون أقل بادرة من أحد ، ليصبوا في أذنيه سيل همومهم ؟

لن ازعم انني استطعت ان استدر الكثير من خفايا نفس محمود . لم يعد الدكتور فالح بسرعة كما وعد ، وطال الحديث بيننا . أمران كانا يهمان محمود منذ ان انتبهت إلى وجوده في السفينة : السياسة ، والمرأة . وفي كليهما كان الحذر يلازمه ، كأن في قرارته خوفاً يقرر مدى انسراحه الأمين في الكلام . لم يكن من الصعب أن استنتج ان الاذى كان قد ناله من كليهما ، رغم الرأس الذي على كتفيه ، والذي لا يتناول الحقائق الا تناولا علمياً . لعل بلواه كانت تكمن في رأسه الكبير ذاك . انه رأس مفكر ، ما في ذلك من ريب . رأس خشن المعدن ، لم ينجز ناحته صقله . قد يحوي افكاراً رائعة ، ولكنه لن يدير رؤوس النساء يميناً وشمالا كلما اراد . اما افكاره فقد تبين لي انها منصبة على ايجاد تنظيم سياسي يجمع عدداً كبيراً من المثقفين العرب ، ربما كانوا منتشرين لا عبر الاقطار العربية من الخليج إلى المحيط فقط ، بل في عواصم اوربا وامريكا كذلك . فالمثقفون الثوريون ، يقول محمود ، يبلورون تفكيرهم اليساري ، على الاغلب ، في العواصم الرأسمالية . انهم اصلا لا يستطيعون الحياة الا في جو من الليبرالية التي تتيح لهم الكتب ، واللقاءات ، والدراسة ، والتنظيم ،

بحرية وسخاء ، لما في تلك العواصم ، على حد رأيه ، من بحبوحة فكرية وضمانات قانونية . الثوريون في قراراتهم ليبراليون ، يقول محمود ، ولكنهم يضطرون إلى التخلي عن الليبرالية تحت الضغوط الاستعمارية التي يفهمونها اكثر من غيرهم ، بسبب من دراستهم في أقطار الغرب . واذا تخلوا عن الليبرالية ، لغرض سياسي آني ، مؤملين العودة ، حالما يستتب لهم الامر ، إلى الفكر الديمقراطية التي انطلقوا منها ، فانهم يجدون طريق العودة مسدوداً . وهذا ، يقول محمود ، من طبيعة الأمور . انهم يطلقون قوى لن يستطيعوا السيطرة عليها الا باللجوء إلى الأقصى من كل وسيلة : وهكذا يصبح العنف شراً لا بد منه ، قبل ان تميد الأرض تحت اقدامهم . ولكن الذي يحدث في واقع الامر ، كما يرى محمود ، هو ان القوى التي يطلقها المثقفون لن تنصاع فيما بعد حتى لوسائلهم المتطرفة . واذا ثورتهم تنقلب عليهم . واذا هم يعزلون ، واذا هم يدرجون مع البورجوازيين والمثاليين والرجعيين ، واذا في نهاية الامر هم الهاربون ... ذلك ما يريد محمود كمفكر مسؤول ان يتدبر له . كيف ؟ هذا هو السؤال . سيقضي سنتين او ثلاثاً استاذاً في جامعة « ليل » لينصرف إلى التفكير ، والكتابة ، واستيضاح هذه العملية الديالكتيكية .

لقد اخذت صديقي الجديد على علاته . « الفعل ، الفعل » ، قلت له « المجابهة . الموت . الفداء . هذا كل ما لدي ان اطرحه تجاه تحليلك وتعليلك . ولكني سآخذك على علاتك . »

لم يرق له ذلك ، كأنني استعليت على مسعاه . ولكنه ضحك ضحكته الساخرة الغليظة . فقد عاد الدكتور فالح بمفرده في تلك اللحظة ، وقال : « هل أبقيتما لي شيئاً من الجدل ؟ » ولما طلبت له كأساً من الويسكي ، قال محمود : « كيف وجدت السيدة أميليا ؟ »

اكفهر وجه الطبيب قليلا : « أرجوك ، محمود ! »

— العفو . لم اقصد الاشارة اليها كمريضة . بل كسيدة فاخرة ، اعرفها .

وهتف كلانا ، أنا وفالح : « تعرفها ؟ من أين ؟ »

— فيم الدهشة يا جماعة ؟ أعرفها من بيروت . كنت أعرف زوجها ميشال اسعد ، قبل زواجه منها ، منذ سنوات . فيما بعد اصيب بمس من — لا ادري . انما المهم ، انه هجرها .

لا ادري لماذا فرحت لذلك في تلك اللحظة . ربما لان معرفته باميليا اوجدت ما يشبه الصلة بينه وبيني . فقلت : « اذن نحن صديقان قديمان يا محمود ! »

— أتعرفها انت ايضاً ؟

— منذ اكثر من سنة . لا اعرفها جيداً . ولكنني التقيت بها بضع مرات . انها صديقة لسيدة اخرى أعرفها منذ زمن .

— من بربك ؟

— اتريد فضح اسراري ؟

قلت ذلك ضاحكاً . فلم يلح محمود . وبينما صمت فالح ، لأن الامر لا يعنيه كثيراً ، ولا يعرف عنه شيئاً ، قال محمود : « اذا الححت علي قليلا ، فضحت لك اسراري أنا . »

قال فالح : « اسرار مهمة ؟ »

— مهمة لي . او كانت مهمة . انتهى الامر منذ أشهر كثيرة .

قلت مازحاً : « أرجو الا تكون قد ... خنت صديقك ؟ »

— والله ، لا ادري . كنت معجباً بها ايام كانا متزوجين . وفي احدى زياراتي لبيروت التقيت بها بعد انفصالها عن زوجها ، وخيل إليّ أنني ... وقعت في ... اسمعوا ، لولا ان في جوفي هذا الويسكي كله ، لما قلتها . على كل ، فلأكن منصفاً . لم تستجب لي هذه الحسناء الايطالية . أرقت من اجلها ليلتين او ثلاثاً ، ثم قلت :

كفاك يا محمود مراهقة . وانتهى الأمر . »

– ها ! تناولت الحقائق تناولاً علمياً !

– يا ليت ! الحب هو الحقيقة الوحيدة التي تعلو على كل علم وكل سياسة . والحاصل ..

الحاصل هو انني لم استطع ان اخرج بحقيقة أمر محمود . ولكي يزيد من التباس الأمر علينا أضاف : « حالات كهذه تنتابني بين الحين والحين. »

قلت ضاحكاً : « تتحدث عنها كأنها حالات صرع . »

– انها والله لا تختلف عن الصرع بكثير . ما رأيك يا دكتور ؟

فأجاب الدكتور ساهماً : « تمام . تمام . »

– ثم تنتهي وكأنها لم تكن .

قلت : « والآن ؟ »

– انتم لا تختلطون كثيراً بالشباب الذين يسافرون على الظهر – (on deck) ، الدرجة الرابعة. انهم امتع من في هذه السفينة. هناك بينهم فتاة – طالبة مصرية . يجب ان تراها يا وديع . .

واسترسلنا في الحديث. لم يتكلم الطبيب كثيراً . وكل ما علمته بعد ذلك هو ان الفتاة المصرية التي اعجب بها محمود هي في العشرين ، او اقل ، من عمرها ، وتدرس التمثيل . أخذنا عليه ذلك ، فقال : « كلما كبرت سناً وقعت في غرام نساء اصغر . عما قريب لن اهتم بامرأة تعدت السابعة عشرة . السابعة عشرة ! اول الربيع ، اول البراعم ، هبة الطبيعة البكر ، رأفة برجال اخذت السنون تنحدر بهم ركضاً نحو الخمسين ... »

أفقت من النوم متأخراً ، وشعرت بأن البحر في اضطراب ، على غير ما عوّدنا منذ اول الرحلة . وقد بدا من النافذة أن الموج أعلى واصخب مما كان عليه في الليل . كنت للتو قد فرغت من حلاقة ذقني ، واذا طرق عنيف على باب القمرة .

كان الطارق جاكلين ، وقد شحب وجهها وازرقت شفتاها . «ألا تسمع الجلبة ؟ أما زلت نائماً ؟»

لبست ثيابي كيفما اتفق ، وخرجت مسرعاً معها الى ظهر الباخرة ، ثم دخلنا الى الصالون الاوسط ، حيث كان اناس كثيرون قد تجمعوا حول رجل ما زال في صياح هائج : محمود الراشد بلا نظارته يحيط به نفر من ملاحي وخدم السفينة ، وهو في حالة جزمت بأنها جنون . لقد جحظت حدقتاه لحد الرعب ، وتضخمت شفتاه السوداوان ، والزبد من على جانبي فمه أبيض يلتمع ، وهو ينتفض ويصرخ بالعربية بصوته الغليظ : «اقول لكم انه هو ، يا عالم . هو ، هو . الكلب ابن الكاب . نمر العجمي . والله انه هو . انظروا ، انظروا . هنا . هذه الندبة الطويلة على صدري . هذا الخط الطويل على بطني .» كان بلا معطف ، وقد مزّق قميصه عن جسمه ، وراح يعرض على المتفرجين جسماً مليئاً بالندب وهم يحاولون تهدئته . «وهذه الخطوط السوداء على ظهري . انظروا يا عالم ..»

كان يوسف حداد يحاول عبثاً ان يقلل من حدته ، والناس حوله بين مشمئز وشامت . فاسرعت اليه ، وجعل يتشبث بي ، ويتوسّل اليّ : «امسكوه . دخيلكم . اين هرب الكلب – نمر العجمي ، يا وديع . شهرين كاملين . ستين يوماً عذّبني . بالكرباج . وعلّقني بالمروحة . وحبسني في المرحاض . وسقاني بولي ... اما رأيته ؟ في ثياب ملاّح يوناني ! الكلب . حتى هنا جاء يتجسّس عليّ . امسكوه . سأقتله . اشهدوا يا ناس . سأقتله ..»

انضم الينا الاصدقاء العرب ، وتعاونوا جميعاً طالبين تهدئته باللطف والترجي . ولكنه لم يهدأ . يجأر كثور جريح . يخاطب هذا ويتوسل الى ذاك . ولا ينصاع لأحد . ويدفعنا عنه كلما حاولنا الخروج به من الصالون بقوة عضلية غريبة .

واخيراً، اضطررنا الى استعمال العنف . وبمساعدة بعض البحّارة ، اذ امسك بكل ذراع منه رجل ، حملناه قسراً الى غرفة صغيرة ليس فيها الا الكوّة المعهودة ، وسرير حديدي . وجاء طبيب الباخرة يحمل حقنة وانبوباً صغيراً . ملأ الحقنة ، ونحن ممسكون بمحمود بقسوة ، ثم القينا به على السرير ، وتعاون اربعة رجال على تثبيته على ظهره ، كيفما كان وهو يدفع وينتفض ، وقد تحول صراخه الى هذيان أجش . مزقنا ردنه عن ذراعه ، وحقنه الطبيب بخفة بارعة . لم يكف عن الزعيق والشتيمة والهذيان العنيف . ولكنه بعد لحظات ، جعل يخمد ، ولما رفعنا عنه الضغط اخيراً ، لم يقاوم ، وبقي ملقى على السرير . ثم راح في غيبوبة . واقترح الطبيب علينا ان نتركه وحده . وخرجنا ، واغلق الطبيب الباب وراءنا .

«ما الذي حدث يا يوسف ؟ أيصاب صديقك بالصرع ؟ ام ماذا ؟»

فقال يوسف ، بصوت مرتجّ ، وهو ما زال في رجفة تهزّ بدنه هزاً صريحاً :

— لا ، لم يكن هذا صرعاً. انه غضب . غضب فظيع. كنّا معاً ، بعد الفطور . وكان كعادته ، ينشد لي شعر شوقي .

— ماذا ؟

— نعم ، شعر أحمد شوقي . يحفظ ديوانه عن غيب . دوّخني به هذه الايام كلها . جعلني آسف على اهمالي أحمد شوقي من قبل . واذا هو بغتة يصرخ. كان احد الملاحين قد اقترب منا. أ نه النادل في الصالون — حيث كنا قد جلسنا . نظر اليه محمود نظرة واحدة ، وصرخ . كلمات

لم أفهمها اول الأمر . ثم أمسك بتلابيب الملاّح . حتى هنا ، يا نمر يا قوّاد ، قالها محمود صارخاً . سأقتلك . وربك سأقتلك . هكذا ، دون مقدمات . أمسك به بقبضتيه من عنقه ، والملاّح بدوره يصرخ ، ويكافح ويتكلم باليونانية . وفاه ببضع كلمات عربية ايضاً . وفي الحال تجمهر الركاب حولنا . كل ما فهمت من هذيانه ، ان نمر العجمي عذّبه في احد السجون . وأن هذا الملاّح هو نمر العجمي . »

واتفقنا أنا وعصام والاخرون علي أن من المحتمل ان يكون واهماً . ولكن تجربته — ان كان فعلاً قد سُجن وعُذّب — كانت ولا ريب رهيبة . كان يعيش كابوساً ، وفجأة قذف به الكابوس الى حيث يصبح الجنون ممكناً . وعندها سألت يوسف :

— من هو محمود الراشد ؟

ولشد ما دهشنا جميعاً عندما أجاب :

— لست ادري .

— ولكنكما دائماً معاً .

— تعرفت به في السفينة . وعندما نزل رفيقي من السفينة في بيريوس وعلم أنني وحدي في القمرة ، طلب مني ان ينضم اليّ فيها ، قبل ان ينزلوا أحداً آخر عندي . اما من هو بالضبط ، فلست ادري . لم يخبرني بما يعمل للعيش . ولكن يظهر أنه ميسور الحال . لعله سياسي — »

فقال عصام : «من اي حزب ؟»

— والله لست ادري .

فقلت : «لم لا يكون الملاح الذي أراد محمود قتله هو نمر العجمي ؟ في الحياة ما هو أغرب من ذلك بكثير . ربما لم يكن محمود واهماً . أم لعله شبه بين الاثنين ، فتوهم محمود أن رعبه صار حقيقة ؟»

عندما رحنا نبحث عن نادل الصالون قيل لنا انه قد اصيب بصدمة ، وانه طريح الفراش قيد المعالجة بأمر من قبطان السفينة . فصعدنا لمقابلة

القبطان ، وطلبنا اليه السماح بمقابلة الملاح . بيد انه ضحك وقال : «ما الذي تقصدون بذلك ؟ ايكون أحد الشباب الذين عندي عميلاً متنكراً من بلدكم ، ام ماذا ؟ صاحبنا السيد راشد ، فيما يبدو ، مريض . حوادث كهذه مألوفة لدينا يا سادة . تأكدوا اننا سنُعنى بالسيد راشد . نحن نحبكم وانتم تحبوننا . » ونفث دخان غليونه من زاوية واحدة من فمه ، والغليون مستقر في الزاوية الاخرى . وهون الامر ، وكأن شيئاً لم يحدث . ووعد بأن يرسل الينا النادل يحمل لكل منا كأس ويسكي ، حالما «يعتدل» حاله .

سألت القبطان : «وما الذي بالضبط ستفعلون للسيد راشد ؟»

— أرجو أن يتغلب على ازمته قبل بلوغنا نابولي ، بمساعدة طبيبي الماهر. البحر اليوم، كما ترون، مضطرب . والنشرة الجوية تنذر بالمزيد : عاصفة من هذه العواصف الشاذة التي تهب أحياناً في الصيف . أغلب الظن ، حالما يهدأ البحر ثانية ، ستجدون ان مريضنا قد تعافى .

اشتد تململ البحر، وهبّت ريح حارة لا يسمع لها صوت أول الامر. ثم اخذت هباتها تزداد تكراراً وحدّة ، وترتفع لها ولولة تمازج صفق اللجج وهي تتعالى وتبيضّ وتتكدّر ، والسفينة تتمايل ثقيلة ، مكرهة .

وجدنا اميليا وحدها ، متكئة على حاجز السفينة المترنحة ، ساهمة ، وعيناها تحدّقان في افق بعيد ، لعله أبعد من افق السماء والبحر الذي كنا نرقبه نحن ايضاً بشيء من الفزع . وعندما استدارت نحونا كانت عيناها في زرقة البحر المضطربة .

«اميليا ، » قلت. «زعم محمود امس انه يعرفك ، ويعرف ميشال . أصحيح ذلك ؟»

فأجابت بهمهمة من حلقها وهزة من رأسها بالموافقة .

— ما الذي تعرفينه عنه ؟

— ليس اكثر مما تعرفه أنت او عصام . كان من معارف ميشال

ايام الدراسة ، وقد زارنا قادماً من دمشق مرةً او مرتين .
— هل هذا كل ما هناك ؟
تذكرت حكايته عن ارقه ليلتين او ثلاثا من اجل «الايطالية الحسناء»
غير أن أميليا لم تكن لتسعفنا في الكشف عن المزيد . قالت :
«رأيته مرة أو مرتين كذلك بعد انفصالي عن ميشال .»
فقال عصام : «آه ، بدأت الحقائق تظهر !»
— أية حقائق ؟
— ألم يعبّر لك عن عواطف معيّنة ؟
— اوه ، عصام ! ماذا تحسبني ؟ مع كل احترامي له ، فانني ...
عجزت عن التعبير عن شعورها نحوه باكثر من ليّ شفتيها ورفع منخريها . وأردفت :
«لست ادري ما الذي جاء به الى هذه السفينة !»
فقال عصام : «الحب ؟»
فالتمعت الغضبة في عينيها وقالت : «عصام ! لن اكلمك ابداً اذا لمّحت بشيء كهذا مرة اخرى !»
فقلت : «الواقع ، انه مسافر لفرنسا للعمل استاذاً في جامعة «ليل» . لا تظلموه .»
قالت اميليا : «ارجو له التوفيق!» ثم اجالت بصرها حولها ، وقالت : «غريب . رأيت كل المسافرين اليوم ما عدا صديقيكما .»
قلت : «تقصدين الدكتور وزوجته ؟»
— نعم . ام ان الدكتور مشغول بمعالجة محمود ؟
— لا اظنه سيتقاعس اذا اقتضى الامر مراجعته .
— طبعاً لا . له يدان ، كأنهما يدا ساحر .
فقال عصام مازحاً : «وكيف تعرفين ذلك ؟»
— فحصني أمس . وبالمناسبة ، هل تعتقد يا وديع أنني أخطأت

في أخذه من بينكم أمس ؟

قلت : «أبداً . مع انك في الواقع جئت في عز اللحظة الحرجة . غير انك وضعت حدّاً معقولا لاحدى ثوراته . ولو شاهد ما جرى هذا الصباح ، لما دهش قط . انه ينسجم مع اشمئزازه الكوني .»

وضع عصام يده على ذراع اميليا برفق ظاهر وقال : «اميليا ، انت معجبة بالطبيب !»

– بقدر اعجابكم جميعاً بلمى . تمام ؟

فقال عصام : « Touché ! »

واقترب منا في تلك اللحظة احد الملاحين وبيده غلاف ، وسألني : «مستر أسّاف ؟»

قلت نعم ، وناولني الغلاف . هبط قلبي للمباغتة ، كأنني تسلمت انذاراً بشيء مخيف . كنت نسيت ان المسافرين في السفن ليسوا بمنأى عن البرقيات ، لا سيما اذا كانت من بيروت . فضضت الغلاف لأقرأ الكلمات الانكليزية الملصقة على الورقة :

«غيّرت رأيي . سأسافر الى روما جواً . والجمعة صباحاً سآتي الى «نابولي . لأراك في السفينة . انتظرني فيها ارجوك. اذا شئت اكملت «السفرة معك بحراً . نسيت كل ما حدث، وعليك ان تنسى انت «ايضاً . بداية أخرى . لا تبرق . متّع نفسك . اموت شوقاً. مها .»

نظر عصام اليّ مستفسراً ، وقال : «خير ؟»

قلت وانا اضع البرقية في جيبي : «خير .» ثم التفت الى أميليا وقلت «مها قادمة إلى نابولي .»

وانفرجت اساريرها عن فرح فجائي وقالت وعيناها تتلألآن : «مها قادمة الى نابولي ! خبر عظيم . عظيم !»

قلت : «نعم .»

قالت : «ماذا ، ألا يفرحك قدومها ؟»

قلت ببرود : «طبعاً يفرحني قدومها .»

قالت : «وديع ، لا تعقّد الامور عليها . انها فتاة عظيمة . وانت ادرى .»

ولما لم ا ب ذلك قال عصام : «اذن سنرى مها أسيراً ؟»

لم أعرف كيف اتلقى المفاجأة . لقد شعرت كأن عقدة مستعصية في دخيلتي هوى عليها سيف وقطعها قطعاً استأصلها دفعة واحدة . كان عليّ ان اقفز من الفرح ، وأعلن النبأ من مذياع السفينة ، رغم الزوبعة المتصاعدة . غير ان ما حدث لمحمود كان قد آلمني اكثر مما ظننت . لم استطع أن أنسى انه تعذب ، وانه ما زال في غمرة عذابه . اي شرعة في الارض تجيز لنا ان نلحق بالآخرين عذاباً كهذا ؟ لقد كان في نفسي دائماً «ضعف» مثالي لم أقو على التغلّب عليه ، رغم كل ما لاقيت وشاهدت في حياتي من همجية منظمة أو فردية : لا يحق لانسان ان يعذب انساناً ابداً ، مهما تكن الدوافع . كنت عاجزاً عن فهم بعض اشكال الصراع السياسي . سياسي ؟ لا ، لقد رفضت تلك التسمية . كلما اتخذ الصراع شكلاً يناقض حق الانسان الاولي في ان يكون انساناً لا يجور لأحد المسّ بكرامته ، بطل الصراع ان يكون سياسياً . انه شيء آخر . التسمية السياسية برقع مفضوح . ولن تؤدّي الا الى المزيد من العذاب والبراقع المفضوحة .

ولكن ما دخل محمود بمها ؟ هذا ما لم أفهمه . ألعلّني أتعذب أنا ايضاً فارى نفسي في محمود ؟ ولكنني رجل حرّ . حرّ . حرّ . اسافر اينما اشاء . واذا اختلفت مع مها ، انتصبت ارادتي كالعملاق ، كما تنتصب مع اي انسان اختلف معه . ولكن العذاب ؟ من أين يتسرب الى قيعان الذهن ، الى اغوار الدم ؟ مها ! انها فتاة هائلة حقاً . تبدو أرق من النسيم ولكنها أصلب من الصخر . وفي بضع ليال (أرجو انها لم تغمض عينها غير سنة واحدة !) قررت أنها قد اخطأت ، ونكصت على عقبيها .

لم أكن واثقاً ، رغم البرقية ووضوحها المركز . من أنها ستجيء فعلاً الى نابولي حيث سنصل – كما اكتشفت ولا ريب من مراجعة وكالة السفر في بيروت – ليلة الخميس . فتبقى السفينة في مرساها يومي الخميس والجمعة ، ثم تستأنف اقلاعها صباح السبت . فهي قد تأرق بضع ليال أخر ، وتغير رأيها من جديد ، فتصلني برقية أخرى في نابولي تفصّل لي كل ذلك . مرة كتبت لها كلاماً كهذا تعقيباً على رسالة منها : « انتظريني احياناً ولا تنامي الليل ؟ هذا ما أريده ! اريد ان أؤرقك عشقاً ، وشبقاً ، يا سكرتي ، يا خمرتي . اريد ان أعصف بك وجهاً وقفاً ، علواً وسفلاً لا اميز موضع العشق منك ، وكلك حبّ ولذة ، فاراك تنتفضين تحت يدي كالسمكة . » وعندما طرت اليها من حوارق الخليج الى ضباب الجبل ، قالت : «اجعلني انتفض تحت يدك كالسمكة ! كلّي حب ولذة. ولكن أرجوك ، لا تمنع النوم عني . الأرق يوئلني »، ثم نامت كالحطبة ! العذاب ، من اين يتسرب خلال ستائر الحب واللذة ؟ في اي زنزانة كان محمود يتخيل نفسه في تلك اللحظة ؟ أرجو ان يكون نائماً كالحطبة . ولننصرف الى شؤون الهوى . مها قادمة يوم الجمعة . وحتى ذلك اليوم ، ربما انتفضت جاكلين ايضاً تحت يدي كالسمكة . التخلّي عن العذاب صعب ، كالتخلي عن التعذيب . أينما تلفت رأيت أناساً ينتفضون كالسمك . عن حب او غير حب . عن عذاب او غير عذاب .

انتبهت الى أميليا وهي تقول : «البحر هائج ! حتى في حزيران ! »

قال عصام : «أخذ الركاب ينسحبون الى قمراتهم . كيف معدتك يا وديع ؟»

– ثابتة في مكانها ، اعتقد .

– أشعر ان البحر جعل يخونني .

قالت اميليا : «ككل شيء آخر في الحياة ؟»

قلت : «وأنت ؟»

قالت : «سأقاوم .»

قال عصام : «لن تفيدك المقاومة . تعالي نستلقي على هذه الكراسي المستطيلة .»

غير ان عصام وأميليا بعد استلقائهما بقليل نهضا ، وانصرفا .

«عن كل أمل تخلّوا ، ايها الداخلون هنا .» لا ! على السفينة كان يجب ان يكتب بأحرف من شمس وريح »: عن كل ذكرى تخلّوا ، ايها الداخلون هنا .» كأن البحر لراكبيه ممحاة هائلة ستمحو أثبت انواع الحبر ، بل حتّى الصور المحفورة حفر الجروح . ولكن البحر ، لسوء الحظ ، ليس نهر النسيان ، مهما تمنى المسافرون ذلك . اللهم الاّ في ساعات هياجه . لقد كشف عن وجه أغبر كالح ، وراح يقذف نفسه علواً وسفلاً كثعبان ذي الف رأس والف ذيل ، ويأخذ المركب الصغير بعداء كعداء عملاق تجاه ذبابة يحاول تهشيمها بانتفاضات جسده البذيء . لقد اضحى المستقبل لكل مسافر أهم من الماضي ، وغدت اللحظة الحاضرة الجرعة الجحيمية التي تخلط الأحشاء . وتخربط الدواخل وتقذف من بطون الكثيرين ذلك القيء العبثي ، اعلاناً عن تخليهم عن كل ما يتذكرون ، سوى الشهوة في مجيء اللحظة المقبلة التي يستردّون فيها الهيبة بعد زعزعة ، والركبتين بعد وهن . هياج البحر تجربة رهيبة من تجارب النسيان : اقحام في اللحظة الراهنة وقد اضمحل كل ما حولها ، تتحول المعدة فيها الى حضور بغيض شكس ، ينسحب له الدم من الرأس ويفرض على الذهن غيبوبة يعيها في الوقت نفسه وعياً حاداً كريهاً .

غير ان هناك من يتغلب على البحر : تراه يمشي منتصباً — في الواقع مائلاً — والسفينة تخفض رأسها وترفع ذيلها ، لترفع رأسها وتخفض ذيلها والموج الابيض يخبط خبطاً عاتياً وينفجر كالحمم على الجانبين ، يضرب الوجه مهما توقّاه برذاذ حاد كالابر ، ويتراجع متلفاً على اخشاب السفينة مياهاً تنساب صفراء كالحة فقاقيعها في غليان ماكر . لقد اعتكف معظم المسافرين في أسرّتهم الضيقة ، يدارون أجوافهم ما استطاعوا في

معاناة اللحظة الجحيمية ، واستلقى البعض على كراسي الظهر ، مؤملا ان يجد في الريح العاصفة تخفيفاً عن الكرب ، في حين راح بضعة رجال ونساء يتمشون من خلال الموج المائج ، يتحدّون الوحشية التي ما كانوا يتوقعونها من بحر أزرق دمث يحبّونه .

كان فالح أحد هؤلاء المشاة من خلل الجنون. رأيته وأنا مستلقٍ على الكرسي ، وقد طار شعر رأسه كالرماح المتكسرة في كل اتجاه ، يسير وحده حول السفينة مجابهاً الريح ، مُدْبراً لها ، يخرقها ويقاوم دفعها ، رافضاً قدرتها عليه . اكمل دورتين او اكثر ، فنهضت اليه ، وقلت ، وانا اصيح ليسمعني : «يظهر ان الحركة افضل من السكون .»

«طبعاً يا رجل ! » صاح في اتجاهي .

وسرنا معاً . نبطئ اذا واجهنا الريح ، ونهرول مرغمين اذا واّينا الظهر لها .

«هكذا أحب البحر ! » قال .

— على الاّ يطول به هذا الجنون .

— ستتغدى ؟

— سأتغدى .

— كيف شهيتك ؟

— لا بأس بها . وانت ؟

— استطيع ان آكل جملا !

— يزعجني مرأى هؤلاء الممسكين بالحواجز .

— تقصد القاذفين من افواههم .

— الحياة ليست كلها رقصاً في الليل وجدلا في النهار ؟

— حال البشرية ... هبّة واحدة من الريح تكفي لأن ..

— هل سمعت بما جرى لمحمود ؟

— رأى المقصلة من جديد ؟

– ماذا ؟
– قلت هل رأى المقصلة من جديد ؟
– يظهر انك رأيته ؟
– نعم . قبل قليل . ما زال في غيبوبة . لا أظن ان هذه العاصفة تسهّل عليه امره .

من حيث لا ادري رأيت اميليا تنطلق نحونا : تدفعنا الريح بشدة الى الوراء ، وتدفعها هي بشدة الى الامام ، والانتصاب على القدمين يزداد صعوبة . كان شعرها الغزير الطويل كسحابة سوداء حول رأسها وفستانها يتطاير حول خصرها كاشفاً فخذيها ، وهي تحاول ستر نفسها مندفعة نحونا ، ممسكة بالدّربزين .

– هلو ، دكتور !

لم نتوقف عن السير الشاق ، عندما انضمت الينا ، وصاح فالح : «كيف انت اليوم ؟»

– تجرفني الرياح !
– رائعة !
– شكراً .
– ومعدتك ؟
– تقاوم .
– لمى لم تتزحزح من فراشها .
– مسكينة .

واستمررنا في مدارنا العاصف ، نتلقى قمم الموج ، نتلذذ بملوحة الريح ، والسفينة تعلو وتهبط وتصر وتئن . وأميليا بيننا تكافح بشجاعة ، نضع ثلاثتنا ذراعاً في ذراع ونتصارع بكلمات لا اعلم ان كانت تحمل اي معنى ، ونقاوم معاً .

ولما كانت ساعة الغداء ، وجدنا ان قاعة الطعام ليس فيها الا نفر

قليل ، وجوه بعضهم لا تشجع التين على المضي في النظر اليها . شيء هائل ان تحتفظ بكامل صحتك وعزيمتك وشهيتك وكل من حولك في كرب وبلاء ! غير ان الذي أدهشني حقاً هو الطبيب فالح يضحك هذا الضحك كله ؟ لقد كان في أشد المرح . واميليا في أشد المرح كذلك. لم أكن أتوقع منهما مثل تلك البهجة الهائلة ، كأنهما عاشقان يلتقيان على غير ميعاد في ارض غريبة. كأن العاصفة الهوجاء هي الشيء الوحيد الذي يرتضي به فالح خلفيّة لانبساطه ساعتين مع البشر .

وأنا ؟ انا ايضاً شاطرتهما ذلك المرح . لقد نسيت. نسيت مها ومحمود. نسيت كل شيء الا العاصفة الحائلة ، وقد اكتشفت ان لي معدة تطحن الحجر .

مع الغداء طلبنا زجاجة خمر ، أعقبناها بزجاجة اخرى . «اين عصام ؟ اين جاكلين ؟ اين لمى ؟ أين الجميع ؟ » قال فالح متحدياً .

قلت : «كلهم على ظهورهم ! »

فقهقهت اميليا : «عظيم ! دارلنغ ، كلهم على ظهورهم ! »

— اميليا دارلنغ ، لم لا تستلقين انت ايضاً على ظهرك أحياناً ؟ »

فاستمرت اميليا في القهقهة : «فكرة رائعة . رائعة ! »

ومع انني اعتبرت «نكتة» فالح نابية بعض الشيء ، ومع انني ضحكت انا ايضاً معهما ، فقد داهمني في تلك اللحظة خاطر غريب : هل من المحتمل ان اميليا وفالح صديقان قديمان ؟ لقد كان في كلمة «دارلنغ » التي تبادلاها رنّة من الالفة ، من الحرية ، لا تخطئها الاذن . رنّة لا تتفق للالفاظ التي تنطلق بين الغرباء ، مهما شارفت على الغزل . في سفينة يعبث بها البحر عبث المجانين . بل بعد قليل — ولست أدري ان كان ذلك بفعل الخمر — كان فالح يغازل اميليا بصراحة . وساعة افترقنا ، ذهبا معاً . وجزمت عندها بأنهما ذهبا إلى قمرة اميليا ، التي — بسبب تخلّف مها عن السفرة — لا يشاركها فيها أحد . ولكنني لم أعبأ بالأمر . ما الذي يهمني من يذهب إلى غرفة من ، في هذه الزوبعة اللعينة ؟

لم احمل العاصفة . لست «ملاحاً حسناً » كما يقولون . لقد جررت قدميّ جراً ، وأنا أخشى أن تنقلب معدتي أمام الناس ، قبل ان ابلغ قمرتي وأرتمي على سريري . وكلما رأيت وجهاً أصفر حولي ، اشتد احساسي بما كان يسميه أحد أساتذتي أيام المدرسة «بسوء الحال» . تركت وديع مستلقياً على كرسيه الفلسفي . وهو يصف «اللحظة الجحيمية » على هواه وتركت اميليا – شيطانة ! بقي خداها في حمرة الورد (أو ما أشبه) – تذهب الى حيث تشاء . ولم يبق في نفسي مكان للأسى او الأسف على محمود . في الواقع ، لم يهمني أمره كثيراً . على عكس وديع ، الذي انفعل للحادث انفعالاً مراً . لعل الذي عرفته لم يعرفه وديع . لعلني ما عدت اتعاطف مع هؤلاء الذين اذا ما وقعوا أقاموا الدنيا وأقعدوها بصياحهم من جور المستبدين . واذا نهضوا وتحكّموا ، كانوا اشد جوراً واستبداداً ممن يوماً ظلموهم . من يدري ، ربما عاد محمود يوماً بظفراً من منفاه : من سيتلقى السياط حينئذ على مسمع منه ، وهو لا يبالي ؟ وكم «نمراً

عجمياً» سيطلق في المراكب يترصدون حركات مناوئيه ؟ طبعاً ، كانت الفكرة بحد ذاتها سخيفة . محمود مريض ، كما قال قبطان السفينة . يحيا رعباً مستمراً ، ولكن الارجح ان معظمه رعب من خلق اوهامه ، او أنه رعب من خلق ذلك الضرب من التفكير الذي يلازمه . على كل ، لقد انساني اياه البحر الهائج ، وصفير الرياح . اسرعت الى قمرتي لا أريد الا السلامة . وفي الرواق كدت اصطدم وجهاً لوجه بالدكتور فالح ، وهو في طريقه الى الظهر .

– ما هذا يا عصام ؟

– خلّها على الله !

– اذن إلحق نفسك !

– اذا قدرت ...

وما كدت افتح باب القمرة وأدخل حتى غاص رأس السفينة ، وانصفق الباب ورائي . وانقذفت على سريري ، وأنا في ثيابي . ولكنني وجدت ان زميلي شوكت ابو سمره ليس في فراشه . هؤلاء التجار ! لهم احشاء من حديد . لو كان البحر رائقاً لوجدته مضطجعاً على جنبه يقرأ في احدى مجلاته السخيفة . أما اذا زمجر البحر واصطخب ، فانه يحمل احشاءه الحديدية إلى الخارج ليتفرج عليه ! السفرة لا تعني له شيئاً . انها امر يريد انقضاءه باقل جهد ممكن ، ليستأنف اعماله بعدها وكأنها لم تكن . ولمى ؟ اين هي ؟ في قمرتها ولا شك . في الناحية الاخرى من الجدار . وحدها تتلوى . أم ان فالح قد عاد اليها ؟ لم لا أنهض واتأكد ؟ فاذا كان موجوداً ، ادعيت انني اريد مساعدة منه ، كأن اقول : « هل عندكم حبوب مسكنة للدوار ؟ » الدوار ! وفجأة ، ارتفعت السفينة ككرة في الفضاء ، ثم سقطت بقوة ، ورأيتني في الحمام الصغير ، أفرغ ما في جوفي ، وانا أحس بزراية لعينة . ولمى في الطرف الآخر ، ما الذي كانت تفعله في تلك اللحظة ؟

حتى في تلك اللحظة أحببتها . اشتهيتها . كنت اموت وأشتهيها ، حتى وهي تتلوى من الدوار ... انها وحدها الآن . اني واثق من ذلك . يا للمهزلة . لا تتاح الفرصة ، الا وكلانا أشبه بخرقة مبلولة ... عدت إلى فراشي ، وانا اتسمع : اذا عاد فالح ، فلا بد ان بابه سينصفق . لقد سمعت ابواباً أخرى تنصفق ، ولكنها كانت في الجهة الاخرى من الرواق . حالما « أتحسن » ، حالما يقلع البحر عن حماقته ، سأذهب اليها . ولو لحظتين . سأراها مضطجعة ، كملكة سومرية على فراش الموت . شوبعاد . كانت جميلة ، شوبعاد . بموتها ماتت مئة حسناء ، كلهن في اروع زينة . وانقذفت السفينة عالياً ، ثم سافلا . ياللمهزلة . لمى على بعد شبر مني ، ولا ألمسها . فلتضحك الآلهة . فلتضحك ما وسعها الضحك . لقد ضحكت من قبل ، عندما جعلت ابي يطعن جواد الحمادي بخنجر في قلبه على رصيف مقهى في الكرخ ، وبعد ذلك بعشرين عاماً ارسلت ابنة اخيه تتصيدني في مرقص للطلاب في لندن ، في شوارع اكسفورد ، في القوارب المنزلقة على الآيزس والكام ، في أرض مهجورة ببغداد ، تتصيدني ، وتقذف بي – على الناحية الأخرى من الجدار ، لاداري أمري كيفما استطعت . إلى الحمام ... هوع ... لمحت وجهي في المرآة . وجه ازرق ، بذيء ، أصفر الشفتين ، فيه عينان مدورتان بلهاوان .

لم ينصفق الباب المجاور . لم يبق في جوفي ما أخشى عليه الاندلاق . ولم يبق في رأسي دم يحفظ لي الاتزان . حاولت النوم ، عبثاً . حاولت ان اذكر المسافرين الآخرين ، واحداً واحداً . بلا جدوى. تذكرت المسافر الفرنسي وزوجته المحنطة في صندوق قرب سريره . على الاقل ، لقد استقرّ على شيء ملموس ، حتى وان يكن صندوقاً من صفيح . سأخرج الى القمرة المجاورة . نهضت ومشطت شعري . ترنّحت فوق المغسلة ، اطرطش وجهي بالماء ، جاهداً ألاّ انظر من النافذة الى الافق

المتأرجح اللئيم . نظرة واحدة منه تكفي للقذف بي ثانية الى السرير . حسبي ما اسمع من العاصفة . فرشيت اسناني . مسحت وجهي بالكولونيا ثم جلست في الكرسي الوحيد الذي كان في انزلاق مستمر روحة وجيئة بين الجدران ، وتجلّدت اخيراً ، وقمت على قدميّ ، وفتحت الباب ، فانصفق خلفي ، وسرت الى الباب المجاور ، وقرعته . وانتظرت .

قرعته مرة أخرى . ثم اخرى . واذا هو يفتح قليلاً ، ولمى تمدّ رأسها لأرى وجهها من الفتحة البخيلة ، وهي تقول : «يس ؟ نعم ؟»

قلت هامساً : «لمى !- وحدك ؟ »

ودفعت الباب ببقايا عزيمتي ، ودخلت ، وصفقت الباب خلفي .

كانت لمى في بيجامة زرقاء ، ومن الواضح انها اضطرت للنزول من فراشها لتفتح الباب ، وهي حافية . كان وجهها شاحباً – ولكنه لم يفقد شيئاً من فتنته . بل لعله كان أشد فتنة في ذلك الشحوب الواهن ، وسترة بيجامتها تنفرج عن نهديها المكورين . شدّت زراً او اثنين من السترة باصابع مضطربة ، وقد أخذتها المباغتة . واستلقت في الحال على سريرها ، وهي تقول وعيناها الواسعتان تبدوان اكثر اتساعاً منهما في اي وقت مضى : «عصام ، كيف تستطيع وأنا ...»

جلست على الكرسي عند قدميها العاريتين .

«حالي حالك ، لا تخافي .»

– لم استطع النهوض منذ الصباح .

– جئت اسأل عنك .

– ارجوك . قد يعود فالح في أية لحظة .

– لمى .

– أرجوك عد الى غرفتك . لا اريدك أن تراني هكذا .

– لو تعرفين ما أجملك !

فابتسمت ابتسامة ضعيفة ، وانا اتحسس قدمها العارية، اصبعاً إصبعاً.

ـ أرجوك ، اخرج ، عصام . حالما يهدأ البحر .
ـ اذا هدأ اليوم .
ـ اذا لم يهدأ اليوم ، سأموت . عصام ، ارجوك ، لم يبق فيّ حيل.
سأراك عندما يهدأ البحر . هه ؟ ارجوك .

من النافذة رأيت البحر يهبط في خط مقعّر هائل ، ثم ينتفخ ويتعاظم ليصدم السفينة بثقله كله ، راشقاً زَبَدَه الفائر على الزجاج ، مطوّحاً بها بحقد لئيم . قمت مسنداً نفسي على سرير لمى ، وأخذت اصابع يدها الرهيفة الشفافة باصابعي وقد خلت من كل مقاومة ، وغدت أخف من كناريّ مهيض الجناح ، ورفعتها الى شفتيّ . كانت على فمي اللاهب باردة ، عطرة ، طيبة . قبّلتها ، ولمى تقول : «عصام !» ثم سحبت يدها ، وادارت وجهها نحو الجدار بحركة فجائية ، في حالة اقرب الى الاغماء ، وطفر ثديها الايمن من فتحة سترتها ، كأنه هو ايضاً قد عجز عن المقاومة . حفنة من شهوة ، للعين فقط .

عثوت في خطوي نحو الباب وقلت : «الى ان يهدأ البحر.» وفتحته. ولما خرجت ، انصفق خلفي مرة أخرى . وتلمست طريقي العقيم الى سريري .

ومن اعماق العاصفة الحمقاء ، جاءني في تلك اللحظة لحن عراقي قديم يحمل كلمات ما كنت أحسبني يوماً سأذكرها ــ «عَ القبر لو مرّيت أتحرك عظام ، بابا يا بابا ...» ودفنت وجهي في الوسادة ، فاتحاً ذراعيّ المصلوبتين ما استطعت ، قابضاً على طرفي السرير قبضة المتشبث بقشة من أغنية قديمة . هل رأيت لمى فعلا ، ام انني حلمت بها ؟ بابا يا بابا . وديع ، اين مسيحك الذي تحبه ليمشي على هذه المياة اللعينة القاتلة ، وبحركة من يمناه يهدئ ثائرتها حتى الاغوار ؟

وقعت المعجزة في حوالي الرابعة من عصر ذلك اليوم . استكان الموج وانقطعت العاصفة . حاولت ان اذكر إن كنا في تلك البقعة من البحر

المتوسط التي كان البحارون منذ ايام الفينيقيين يروون الاقاصيص عن هول دواماتها . لم أعرف اين كنا بالضبط ، ولم أذكر الا الدوامتين الشهيرتين سكيلا وكاربديس ، اللتين ظننت اننا عبرناهما قبل ذلك. البحر العطوف! لقد زمجر وعربد ، ونزا نزو عملاق محروم ، ثم همد . أرعبنا بضع ساعات ، لئلا نستخف به ، ثم عاد الى دعته وابتسامته . وما هي الا ساعة او اكثر ، حتى عاد الدائخون الى صحوهم ، وامتلأ الظهر بهم وهم يتحركون في شيء من وجل ، كالناقهين من مرض طويل .

كنت أعلم انني ، بمرور كل ساعة ، أقترب خطوة أخرى من الحافة الزلقة . بل انني بعد تلك الايام الصعبة الاولى ، أردت الركض الى الحافة ركضاً . اردت ان يتقرر شيء ما ، فأنتهي . ما عدت استطيع تحمّل هذا العنقود الحائر الذي يتدلى ليلمس شفتي ثم يرتفع عني قبل أن التقمه . ولمى رأيتها كما لم أرها في السنوات الماضية : تقدّم رجلا وتؤخر أخرى ، في سيرها نحو الحافة نفسها .

وأخيراً أغمضنا أعيننا ، ومشينا الى الشفير ، وقفزنا .

عندما كنا على وشك الرسوّ في خليج نابولي ، على مرأى من بركان فيزوف ، كان المسؤولون في السفينة قد أعلنوا أنهم رتبوا للركاب سفرة جماعية يقومون بها صبيحة اليوم التالي الى جزيرة كابري ، وان التذكرة بخمسة عشر دولاراً ويجب شراؤها مقدماً . وبعد العشاء كانت السفرة حديث الجميع . حتى الدكتور فالح كان على ما يشبه البهجة ، والباخرة تنساب بين المراكب في توجهها نحو الميناء ، واضواؤه تتغامز من بعيد . كنت اشرب «كوانترو» مع القهوة عندما خبط فالح على ظهري قائلاً :

«أذاهب الى كابري غداً ؟»

فقلت : «لا والله . ذهبت مرة من قبل . »

– لمى مصرّة على الذهاب . وانا لم أرها من قبل . محجّة لا بد منها .

– هل اشتريتما البطاقات ؟

فقالت لمى : «طبعاً . طوال عمري وانا اسمع بكابري . اريد ان اراها وانزعها من دماغي !

« أميليا ، هل تذهبين الى كابري غداً ؟ »

جاءت اميليا برفقة وديع ، وهي أيضاً مستبشرة ، وقالت : «اشتريت بطاقتي الآن . سأراها للمرة الثالثة ، ارضاء للضيوف الكرام ، على الاقل . »

فقلت : «الكهف الازرق . أعجوبة الصخر والمياه .. بيت آكسل مونتي ، بطل الحرب والسلام ، جامع التحف ، ورافض العالم من على ذرى قصره المسحور .. خرائب طيبيريوس – في اي قرن عاش هذا الامبراطور ؟ من له أن ينسى هذه الروائع كلها ؟ سيداتي ، سادتي .. .. والآن ترون .. »

قالت لمى : «تعال وكن لنا دليلاً هناك ، ما دام لك هذا العلم كله . »

فقال وديع : «كابري للعشاق . للعرائس . وللعجائز المهرهرين ، الذين باتوا يخشون ان يسلّموا الروح قبل ان يروها . ما لعصام ولهؤلاء كلهم ؟ »

«آه منك يا منافق ! »قالت لمى . «كنت انت اول من اشترى البطاقة . مع من ادرجت نفسك ؟ العشاق ام العجائز المهرهرين ؟ »

«مع العشاق طبعاً ! » ودسّ ذراعه في ذراع اميليا .

ولفّت اميليا ذراعها حول خصره ضاحكة . «لنستغلّ الفرصة قبل مجيء جاكلين .. ما رأيك يا دكتور ؟ »

فقال الدكتور : «فكرة هائلة . ليكن العشّاق في كل مكان ، مع غير معشوقيهم ! »

لقد تلحلح الطبيب ! لم يبق الآن ان يبحث بنفسه عن جاكلين لتكمل اللعبة . وعندها آخذ لمى بين ذراعي وأقول : هذه اصول اللعبة ، فالعبي ، ولا تغشّي ، من فضلك ! وصحت باعلى صوتي ، من فوق كتف وديع : «جاكلين ! جاكلين ! أسرعي قبل ان تندمي !» وجاءت جاكلين تركض ، وخصلة من شعرها الصبياني تتدلى على عينها . وقالت بكل براءة : «هل تركتم لي مكاناً بينكم ؟»

فقالت اميليا بدهائها المعهود : «مكانك هنا ، قرب الدكتور . هيّا..» ودفعت بها نحوه . وتراجعت لمى خطوتين ، وانحنت برشاقة ، لتفسح لها المكان : «تفضلي !»

ومدّ الطبيب يده ، اي والله ، مدها بشغف وحرارة ، وأمسك بيد جاكلين وجرّها اليه . «لكي نغيظ اميليا ووديع . ها أميليا ؟» وخيّل اليّ في تلك اللحظة انه رجل وسيم ، رائع ، لا عجب ان لمى أحبته في يوم مضى . ولكن خيّل الي ايضاً ان أميليا تنظر اليه على نحو لم يخطر لي ببال . ذراعها حول وديع ، ولكن عينيها معلقتان بشفتي فالح — فالح وقد ضحك لاول مرة من قرارة قلبه . أما جاكلين فقالت : «ولمى .. مع من تكون ؟»

صحت : «معي ، معي ، يا حبيبتي !»

وأحسست بان لمى تصرخ بوجهي بعينيها السومريتين الصامتتين . فأمسكت بذراعها العارية — لاول مرة منذ دهور — وجررتها نحوي .

«قولي نعم ، قولي نعم !»

«نعم ، نعم ، نعم !»

ونادى الطبيب نادلا قريباً منا : «يا غلام ، ويسكي للجميع !»

كان الركاب في هذه الأثناء قد تجمعوا على الحواجز والسفينة في مناورتها الأخيرة ، والصياح في ارتفاع ، من البحّارة ، من المرفأ ، من كل صوب . ما الذّ ساعة الوصول . واندفعنا بأزواجنا الكاذبة نحو

الحاجز ، لنكون جزءاً من الصياح العام والفرحة التي قدمت أخيراً . وددت لو احتوي لمى لا في ذراعيّ فحسب ، بل في اهابي ، في شراييني ، حيث يتحد دمها في دمي في مجرى واحد ، راعش ، مخيف .

ولكن اللعبة انتهت بسرعة . كانت كؤوس الويسكي تقعقع بمكعبات الثلج في أيدينا . لقد شربنا نخب المدينة المرحة . نخب الايطاليين كلهم . نخب البشرية كلها . ولكن الليل كان مليئاً بالاكاذيب . اكاذيب من كل نوع . فرقنا الليل ، كلاً في سبيل . ولم تكن الا ساعة او اكثر حتى كانت السفينة قد خلت من المسافرين . لقد نزلوا الى المدينة يجرّبون فيها حظوظهم ، يفرغون فيها خيباتهم . واحتفت لمى وزوجها . ورحنا انا ووديع نضرب في شوارع نابولي على غير هدى .

افقت من نومي صبيحة اليوم التالي متأخراً على لغط وضجيج وقرقعة. كانت الروافع تعمل ، صاعدة نازلة بصناديقها وبالاتها ، والرصيف يعجّ بالحمالين والركاب والشاحنات الكبيرة .

والبضائع تودع او تستقبل مع صيحات المشرفين ، والكلمات الايطالية تموسق الجو . ومع ذلك ، فقد بدت السفينة ، عندما خرجت الى ظهرها ، أشبه بالمهجورة . فقد غادرها معظم المسافرين ، إما لكابري ، او للتجوال في المدينة . كانت الشمس قد عامت ، وأخذ الحرّ الرطب يلزج الجسد . لم أجد أحداً ممن أعرفه في جنبات المركب ، فكأنه قد غيّر هويته على حين غرة ، واصبح لا يحوي الا صغار البحّارة والحمالين.

وفجأة – كفجأة اليوم الاول في بيروت – رأيت لمى تنزل الدرج الى الصالون الخاوي . كانت تنزل الدرج بثبات وثقة ، متجهة نحوي ، وجزمت بأنها كانت في انتظار خروجي من قمرتي لوقت طويل .

وفي لمحة خاطفة ، ادركت كل شيء .

اسرعت اليها ، أقبلت على عينيها الكحيلتين الصريحتين . ومدت اليّ يديها لتضعهما في يديّ كهدية ثمينة .

– ألم تذهبي الى كابري أذن ؟

– كلا. توعكت صحتي طيلة الليل . فلم استطع النهوض باكراً في موعد اقلاع الزورق الى الجزيرة .

– وفالح ؟

– ذهب مع الجماعة . قال انه لن يفوّت هذه الفرصة .

ثم نظرت جانباً ، خلال النافذة المطلة على الرصيف الصاخب ، وقالت مبتسمة : «كنت أخشى ألا أجدك .»

– وكنت أخشى أنك فعلا ستذهبين الى الكهف الازرق . وكنت أخشى أيضاً انك لن تذهبي !

– لو وجدت انك غادرت السفينة ، بعد هذه المحاولة مني ، لغضبت جداً .

وعادت فحدّقت بعينيّ . ما الذي ترى فيهما مما يعتمل في داخلي من تناقضات ، ولهفة ، ومرارة ؟ وهمست ، كأنني أسرّ في أذنها ، كالعادة ، كلمات لا اريد ان يسمعها الرقباء من حولنا : «لا أقدر ان اصدق . ما كنت احلم انك ...»

فقاطعتني بصوت جهوري ، طروب : «عصام ، الوقت قصير !» وادركت ان ليس حولنا أحد . «لدينا نهار كامل !»

– أقل من نهار .

– متى يعودون من كابري ؟

– عند الغروب ، على الاكثر .

– بضع ساعات . مملكتنا بضع ساعات !

واقتدتها بيدي ، ونحن نصعد الدرج قفزاً الى الظهر . وعلى ناحية من الدربزين ، بين الحمالين والملاحين ، تحت الشمس الضاحية ، على مرأى من البركان النافث سحبه السوداء على مهل ، اخذتها بين ذراعيّ ، وانكب فمي على فمها في قبلات عنيفة ، أحسّ أسنانها ولسانها على طرف

لساني ، وجسمها هشّ ، رقيق ، ميّاس ، طري . وهي همس من بين القبلات «كفى ، كفى ، عصام . لا هنا ، لا هنا .. لننزل الى نابولي . »

ملأ عطرها أنفي ، وصدري ، ورأسي ، وفمي يندس في شعرها

يلتهم عنقها ، شفتيها ، وهي تتضاحك كأنها ، مثلي ، لا تصدّق اننا نفعل ما نفعل ، كأنها مثلي ، قد ماتت طويلا من العطش . ولكنها تملّصت من ذراعي تملصاً طرياً ، شهياً . ولحقت بها ، وهي تهرول نحو سلم الباخرة وتجرني وراءها من يدي . جعلنا نهبط السلم الرجراج ، ونسيت كل شيء الا أنني يجب ان أبقيها في قبضة يدي ، كأنها طير يريد الهرب وقدماه في الفخ . وسرنا على الرصيف ، ونحن نتعثر بالصناديق وحبال المرابط ، لسرعة ما نسير .

وفجأة سألتها : «لمى ، لماذا تزوجت ؟»

فأجفلت ، وقالت : «لا تفسد يومنا . ولا تسلني هذا السؤال ابداً . »

وعندما قلت : «ولكن ... » توقفت عن السير وقالت : «اذا الححت فانني سأعود الى السفينة — أو القي بنفسي في البحر . »

فأخذتها بين ذراعي من جديد وقبلتها . لا ، من السخف السؤال . محاولة المعرفة . من السخف ان تدق برأسك الجدار ، وهو قائم لا مرّد له.

بين مباني المرفأ القديمة مشينا في عالم اجنبي ، غير حافل بنا . ودخلنا شوارع المدينة التي كنت دخلتها مرة فيما مضى سائحاً يبحث عن سحرها . أما الآن فانني لم أجد فيها شيئاً ذا معنى ،سوى انها تحتضننا، غريبين ، لاجئين . لقد انحصرت المعاني كلها في هذه اليد التي في يدي . «ما رأيك في الاقامة هنا ، الى الأبد ؟»

— يا ليت !

— انذهب الى القلعة ؟

— أية قلعة ؟

— قلعة كاستل نووفو ، التي لا اذكر تاريخها . ولكنه تاريخ مليء

بالحب والخيانة والفجيعة . ما من شيء هنا إلا وهو مشيّد على حب او خيانة او فجيعة .

— كحياتنا .

— نعم كحياتنا .

— اتذكر نلسون وايما هاملتون ؟ قهر هو نابليون ، وقهرته زوجة السفير المسكين . هنا ، في هذه المدينة الرائعة . هل ستكون نهايتي مثلها ؟

— مع الفارق . انا لم أقهر نابليون . وانت لن تموتي من السكر .

— في سجن للنساء ؟ أتذكرين في اكسفورد ؟

— وغرفتك الصغيرة في كلية سانت آن .. ومدفأة الغاز تلقمينها بالشلنات لئلا ينقطع الغاز .

— والشاي ؟

— ومقاومتك الضارية .

— مسكين عصام . هل قاومتك بضراوة ؟ كنت اقول لنفسي أيامئذ انني لا أعرف ما الخطأ ولا أميز بين الخطأ والصواب ، بين الخير والشرّ . وكانت مقاومتي هي الخير ، كما فهمته .

— اما انا ، فقلت انها هي الشر .

— فلأعترف لك : كنت انت المصيب . حسبت انني سأعود الى بغداد ، وانتظرك . بنلوب ويولسيس ، الا تدري ؟

— ها ، ها ! لم تحوكي لي ولو بلوزة واحدة !

— ألا ترى ؟ ما كدت انتهي من دراستي حتى كان كل شيء قد تغير . الخطأ والصواب ، الخير والشرّ . ولما عدت الى بغداد ، أوه ...

— كان كل شيء قد تغير هناك ايضاً .

— نعم ، ولكن ... الحب ، الخيانة ، الفجيعة . عرفتها ، عرفتها كلها .

— وانا في لندن أعد الايام والاسابيع في انتظار . أريد ان انتهي من

دراستي ، متوهماً انني مستعد لتحمل أي شيء من أجلك . أي شيء ، حتى الموت .

— لا تبالغ يا عصام . الموت فكرة رومانسية سهلة وأنت تدرس في وسط يضطرب بالحركة ، والاكتشاف ، والجنس . عندما عدت الى بغداد ، بعد غياب متقطع دام عشرة اعوام ، كان كل شيء قد تغير . حتى انت اصبحت جزءاً من تجربتي اللعينة تلك . كان الموت فكرة عسيرة ، مفزعة . ولم يكن بوسعك انقاذي .

كنا نمشي على الارصفة ، ننساب بين الناس انسياباً سريعاً نحو هدف لا نعرفه ، ولا يهمنا ان نعرفه . ورأسي يهدر بألف قول — بكل تلك الكلمات التي قلتها لنفسي عشرات المرات والتي ربما قلتها لها فيما مضى عشرات المرات . ولكنني كنت اخشى ان تعود لمى ، في لحظات الفرح تلك ، الى النقطة التي كنا عندها افترقنا فراقنا الأخير ، كأننا نستأنف شجاراً نتلذذ بمعاناته . وهذا ما فعلته . فهي بارعة في تحليل ذلك الوضع المتناقض الذي اكتشفت فيه نفسها معي ، حيث يكون في اي مخرج لها اكتواء للنفس وتجريح للذهن . ولمى — لمى المتنائية عن الناس ، الشامخة بأنفها على كل ما حولها ، كان يلذ لها دائماً ان تعود معي ، وتعود بي ، الى الدوامة نفسها ، كل مرة باسلوب جديد .

قلت : «جعلت نفسك رهينة ، وفدية . أما كفاك ؟» فاوقفتني عن السير ، حدقت في عيني مرة أخرى ، واخذت تتحسس وجهي بأصابعها الطويلة كأنها عمياء ترى عن طريق اللمس . وقالت : «لآخر مرة . تزوجت ، وانتهى الأمر .»

— انتهى ؟

— وانت ، كالأبله ، ما زلت تحبني .

— لأنني مثلك ، اذا أخطأ غيري ، دفعت أنا الثمن ، وغيري دائماً يخطئون .

— وماذا تتوقع مني ان كنت قد ضللت السبيل بين الخطأ والصواب بين الشر والخير ، وما زلت تائهة ؟

ما أطيب ان تكون غريباً في مدينة غريبة مع من تحب . قبّلت لمى من أنفها قبلة عجلى ونحن نسير ، وقلت : «مشكلتك منذ زمن هي انك تتفنّنين في التمويه على نفسك — شأن الفلاسفة كلهم . منذ اول يوم ذهبت الى اكسفورد . »

— في اكسفورد ، كانت القوارب على نهر الآيزيس تغريني ، ولا اركب فيها ، في الاسابيع الأولى . ثم نزلت فيها وكأنني ارتكب اثماً . وبعد ذلك كنت دائماً أبحث عن فرصة للنزول في القوارب على النهر . هل كنت اتمتع بالاثم ؟ عندما اوشكت على النهاية من دراستي ، شعرت كأنني في ثلاثة أعوام قد عشت مئة عام . نضجت ، وغدوت حكيمة جداً ... وحاولت عندها ان اعرف لماذا افزعتني القوارب اول الأمر . ألأني لا اسبح ، وقد اغرق في المياه الخضراء ؟ ولكنني كنت استطيع السباحة . الآن القوارب ملأى بالشباب الشقر الطوال والفتيات العاريات السيقان ، وذلك عيب نخشاه ؟ الان القوارب في رحلتها النهرية تخترق فيما بعد ظلال الصفصاف الكثيفة اختراقاً ليناً لا تكاد الشمس تبلغه بشعاعها ؟ وتلك مخاطرة ، والمخاطرة عيب آخر ؟ ولكنني كنت متمردة منذ ان راهقت ، منذ ان بدأت افكر لنفسي . طبعاً ، كان فيّ دائماً صوت صغير ، يأتيني من مؤخر وعيي ، يقول لي : لمى ، ما خلقت لهذا . تذكري : جر الذيول . كنت اراهن . كلهن ، نساءنا ، يجررن الذيول . الفقيرة يتفلع جلدها ويتدلى ثدياها يوماً بعد يوم ، وتتحول يداها إلى حطبتين مهشمتين . والغنية تسمن وتعرض وتشحم ... اما انا ، فما الذي كنت افعله ؟ أساتذة يدخنون الغليون ، ويشربون الشري . يتساءلون ويتحاورون ولا يقتنعون . وطلبة يبحون اصواتهم نقاشاً حول أغرب القضايا ،

وأخسرها ، ويقضون الليالي وهم يتغازلون ويشربون ويتسلقون جدران الكليات ... كتب ونظريات ، وسياسة ، ووايتهيد وابن رشد وتوما الاكويني ، وموسيقى وضباب وبرد وزكام ومسرحيات ومتاحف وأغان ورقص يؤلم القدمين . نتناقش مع زملائنا في قضية فلسطين ونخرج في مظاهرات غاضبة . اتذكر عندما وجدتني وقد ورم انفي بحجم الكمثري اثر لكمة من شرطي ؟ اذهب اليك في لندن صباح الاحد كأنني في رحلة صوفية ، وتأتيني إلى اكسفورد في سيارتك لنتحدث عن مباني الكليات ، وتواريخها ، ومهندسيها ، وتجادلني في آرائك الماركسية حول الصلة بين مادة البناء وتطور الاسلوب من فيدياس إلى كريستوفررن إلى لي كوربوزيه وبازل سبنس . اترى كيف تتذكر تلميذتك دروسها ؟ ثم تأخذني إلى ستراتفورد ونذهب للرقص حتى في بيرمنغهام . كنت اقول لنفسي ، سأذهب إلى بغداد بعد كل هذا ، وأعين محاضرة في كلية ، طلابها يطلبون الوظيفة اكثر مما يطلبون العلم . وسيكون لدي سيارة بطول القطار يدفع ثمنها أبي ، اسوقها صاعدة نازلة في شارع الرشيد وشارع السعدون . وسأبني بيتاً جديداً في المنصور ، فيه رخام من مقالع كراره ، ونوافذ بطول الجدران وارتفاعها ، وبركة صغيرة مبطنة بفسيفساء زرقاء سنسميها مسبحاً ، ولن يسبح فيها الا البعوض في ليالي الصيف ...

— أترين ؟ انا لم يكن لي مكان حقيقي في خططك ، حتى في تلك الايام . ما كنت انا الا الطارىء الغريب ، يأتي ثم يذهب .

فاستضحكت ، واوقفتني عن السير مرة أخرى لتحدق بوجهي بعينيها السومريتين : « لأنني كنت دائماً احب الطارىء الغريب . »

كنا قد بلغنا مقهى انتشرت كراسيه الحمراء وموائده السوداء على الرصيف . فجلسنا إلى مائدة مظللة . « أما انا فلم تكن لي اية خطط . أفكار فقط » وانت في ثنايا كل فكرة تخطر لي ، شوارع لندن ملأتها

بصور منك . لندن كلها ، لا بلومزبري وحدها . كان أحد الأساتذة يأخذنا في جولات في المناطق القديمة من « المدينة » لندرس الأبنية ، ونعلّق على النوافذ والابواب والقرميد والخشب والحديد . وتمر بنا عشرات الفتيات الجميلات . ولكنني لا أرى الاك في كل نافذة وفي كل باب . »

– لا تكذب ! كم مرة خرجت مع فتيات انكليزيات ، كهذه المطلقة الايطالية التي تلازمها الآن ثم عدت إلى غرفتك لتكتب إلي هراءك هذا . لا بأس . لم لا ؟ أما لي فكنت انت دائماً الطارىء الغريب . قلت سانتظرك في بغداد . ولكنني كنت في الواقع اخشى ان أدخلك في حسابي ، كأنك من اهل القمر او المريخ . انت وبغداد كنتما في ذهني نقيضين لا يجتمعان . ولاسيما في الاسابيع الأخيرة من دراستي . ولكنني كنت اتساءل : ألن اراه ثانية حقاً ؟ وماذا لو قطعت كل صلة لي به ، ورفضت ان اراه ؟ ما الذي اكون قد برهنت عليه ؟

– تكونين قد برهنت على ان الدم لا يصير ماء . كنت تقولين ولا ريب ، قبل ربع قرن من زمان لئيم قتل رجل يدعى سعدي السلمان رجلا اسمه جواد الحمادي – وجواد الحمادي عمي ، وهذا ابن قاتل عمي يريدني ان أحبه ... الدم لا يصير ماء .

– الدم لا يصير ماء ؟ لقد صار دمي ماء يا عصام ، ماء آسناً . كنت اقول ، رجل استبد به الغضب بسبب ارض في قضاء مغمور في جنوب العراق نسيته الجغرافية ، فقتل رجلا آخر . لماذا اعاقب به ، لمجرد ان القتيل كان عمي ، وجرى قتله قبل ان اولد ؟ وما شأن عصام بما فعل أبوه ؟

تلويت على مقعدي وانا لا أدري ما الذي تريده مني هذه السادية الشريرة التي كرهتها في تلك اللحظة كراهيتي لأبي ، لماضيّ ،

لحاضري ، كراهيتي لكل ما يحيط بي من حياة وعنفوان . ووددت لو اقع على جسدها أنهشه ، حقداً وشهوة .

طلبنا من النادل قهوة « اسبرسو » . ثم قلت : « على كل ، عاقبت نفسك وعاقبتني ، وحسبت ان الامر قد انتهى . اليس كذلك ؟ »

– لعلك تظن انني جعلتك انت الضحية ؟ لقد كنت انا الضحية . انا الفداء ، وانت لا تدري .

– لمى ، انني أرفض تأويلاتك الغيبية .

– تأويلاتي الغيبية ؟ هذا الذي فعلته بنفسي – في ساعات الغضب ، أو ساعات البؤس ، كان وجه لمى يذكرني بوجه امي ايام كنت طفلا . أمي بفوطتها التي تؤطر وجهها بالسواد ، فيبرز جمال قسماتها التي لم انسها قط ، حتى بعد ان عاثت فيها الغضون . وجه اسمر مستطيل مرتفع الانف ، تتلألأ فيه عيناها الكبيرتان المستديرتان . ولاسيما حين يغشاهما الحزن او الغضب اذ تحدثني عن ابي . تتحدث عنه حديثها عن بطل خرافي ، فأحاول ان اتصوره على نحو ما . لم اكن اراه كعمي الذي جعل يرعانا بعنايته ،فقد كان عمي داود على شيء من الكبر منذ ان وعيته ، وبقي يكسو رأسه الأشيب بالفطرة والعقال ، على غرار ما كان يفعل في صباه ، أيام كان هو وابي وبقية الأسرة يفلحون الأرض البخيلة في أحد اقضية الكوت ، يكافحون الملح ، ويستدرجون الماء في الاقنية ، يقيمون له النواعير الصدئة ، ويحاولون استبدالها بالمضخات الانكليزية . لقد قتل أبي جواد الحمادي في بغداد ، من اجل تلك الارض التي تشبث بها ابي في لواء الكوت . وكانت المأساة انهما من عشيرة واحدة ، وابنا عمومة ، يعودان بالنسب إلى جد اشتهر في اوائل القرن الماضي بعنفه ، وصلفه ، ومشكلاته مع الولاة العثمانيين – مما اذاع صيته ، واضاف إلى هيبته وصولته ، وزاد في اتساع اراضيه وتضخم عدد الفلاحين المنتسبين اليه . غضبان

بن خيون : حتّى اسمه كان رهيباً . غير ان الاسرة تقسمت وتفرعت ، واستقر شطر منها في بغداد ، وأثرى ، بينما بقي الشطر الآخر ، الذي ننتسب نحن اليه يعيش عيشاً لا يتعدى الكفاف الا قليلا ، يتردد بين الاقامة في الارض وبين الهجرة منها ببطء إلى بغداد . وعندما أخذت الحكومة العراقية في العشرينات تسوي الاراضي بكل ما في تصنيف ملكيتها من تعقيد وغموض ، بدأ الخلاف ، ثم الخصام ، بين الاسرتين . لقد حدث كل ذلك قبل ان اولد بسنين ، واستمر النزاع بينهما اشبه بجرح ينزف ولا يستطيع احد وقف النزيف ، والجرح يتسمم على مهل . ثم فعل ابي ما فعل ، في ثورة من ذلك الغضب الذي عرف عنه ، والذي كان شيوخ الاسرتين يقولون انه يذكرهم بجدهم الأول ، ولكن في زمن ما عاد الغضب فيه يجدي إزاء القانون والشرطة والمحاكم العصرية . والواقع ، لو ان قانون العشائر طبق على ابي ، لما ناله الا السجن لبضع سنوات ، ربما خفضت فيما بعد لسنتين او ثلاث . ولكن اسرة جواد الحمادي استطاعت ان تحقق محاكمة لابي في بغداد وفق قانون العقوبات البغدادي . وحكم على ابي بالاعدام — غيابياً . لم يكن ابي ليقع في أيدي الشرطة بالسهولة التي تصورها آل الحمادي : لقد هرب إلى الجنوب في اول الأمر ، ولما علم انهم جادون في البحث عنه ، هرب عبر شط العرب إلى المحمرة في ايران ، حيث كان لنا انسباء واقارب كثر فيها وفي الاهواز . كانت تأتينا منه رسائل يقرأها أخي الاكبر على أمي ، فتقضي يومها بالبكاء والندب ، وأراقبها وهي تتمايل تحت وقر حزنها ولوعتها ، جالسة على الارض ، تعدد بصوت خفيض ودموعها تتألق على وجهها الاسمر اسطراً ترقرق فيها احزان البشرية ولوعاتها التي طفقت تغزو وعينا منذ ذلك اليوم ، انا واخوتي ولا نعرف ماذا نقول لها لنخفف عنها بعض ما هي فيه .

وذات يوم — كنت في الخامسة او السادسة من عمري — رأيته .

رأيته نائماً على الارض بجانبي . فتحت عيني في الصباح واذا رجل طويل ، هائل ، نائم على « فجة » قرب فراشي ، حليق الذقن ، له شارب اسود كثيف يكاد يغطي فمه ، وشعره الغزير يغطي بعض جبينه وأذنيه . وفي الحال عرفت من هو وصحت : « بابا ! » ووقعت عليه أقبله . فأفاق وأخذ يحضنني بقوة ، ويقبل وجهي ورأسي ، وهو يقهقه ويبطحني ويدعبلني على الارض الباردة اللذيذة الملمس ، وجسمه حار، صلب ، يفوح برائحة خفيفة أشبه برائحة التراب بعد همي المطر . دخلت أمي وهي تحمل اقراص خبز حارة ، وهي تضحك وتبكي ، وجعلت تصب الشاي في استكانات براقة رسمت عليها حلقات ذهبية ، بينما عاد أخواي غازي وكامل من السوق ، يحملان اللحم وانواعاً من الخضار والفاكهة ... كان ابي قد عاد إلى بغداد متنكراً في زي « أفندي » ، وفي مجيئه مجازفة الموت . لقد عاد متسللا إلى أزقة الكرخ عند منتصف الليل ، عاد لكي اراه ، لكي يجسد اسطورته في ذهني . وكما جاء ، ذهب ، جاء بمال لأمي — مئة او مئتي دينار ، كان قد جمعها بكدحه ، ومن بعض مدينيه الذين تنادوا ليجبروا عثرته . ولم يبق بيننا الا ايام اربعة ، كانت ايام عرس لنا ، لم نفتح في اثنائها الباب لأحد سوانا — باستثناء عمي داود . وفتحت عيني صباح اليوم الخامس ، ولم ألق الرجل العملاق بجانبي . ريح من الجنة هبت على بيتنا ، ثم راحت وتركتنا لطابوقه العتيق المتآكل . كوردة هطل عليها الندى تفتحت امي ، وكوردة حرمت الندى ذبلت وتهافتت على الأرض . رأيتها تمزقها أيام الانتظار ، ترقب عودة اخرى من زوجها في ليلة كريمة ، لعل الجدران المتصدعة تنشق عن صورته ، فيقهقه ويهز ناصيته السوداء بين يديها . ولكن ابي لم يظهر ثانية ، ولو طيفاً . لقد تلاشى شيئاً فشيئاً إلى ان لم يعد بوسع أحد ان يخبرنا بشيء عنه . قالوا انه هاجر إلى الهند ، إلى الخليج ،

إلى جبال بختيار . كان هناك من يتهامس بأنه أحب امرأة من عشيرة ايرانية ، فاختطفه اهلها . بل تهامسوا ايضاً بأنه مات ، بانه قتل . كانت امي في ساعات من السخط تدعو له بالموت ، بالقتل لانه يرفض

العودة ، لأنه فعل ما يمنع عنه العودة . امتلأت اسطورته في البيت بالتناقضات . كنت أعجب به ، اذكره زهواً وفخراً ، اذكره حزناً وخيبة ، واذكره سأماً وكراهية . لم يعد . لم تأتينا منه كلمة . وكان من العسير ، بعد ان تخطيت العاشرة من عمري ، ان نظل في تساؤل عن مصير غامض ، أسهله الهزيمة منا ، وأصعبه الموت مثخناً بالجراح . وانتصب ظهر امي من جديد . قطعت الرجاء ، واغلقت شفتيها على ذكر الرجل الوحيد الذي احبته ، وجعلت من مأساتها قوة . لا بد من تعليم الاولاد ، كانت تقول . لا بد من انقاذ الأرض ، من تحسين استغلال ما تبقى منها . أخذت تجتمع بأعمامي اجتماع الندّ للندّ . ورغم التعويض الكبير الذي استخلصته المحاكم منا بالحجز على بعض اراضينا ، اول الامر ، لمصلحة ورثة جواد الحمادي ، فان تكاتف الأسرة حولنا ضمن لنا حياة جديدة . تحملنا الديون على الارض وغلالها ، وتمكنا من سدادها . بعد بناء سدة الكوت على نهر دجلة ، ادخلنا زراعة الشلب ولو على نطاق محدود ، وجابهنا شح الفصول بروح من التفاؤل . انتصب ظهر أمي من جديد . ولما كبرت وفكرت بالاستقرار كمزارع في الجنوب ، قالت : « أتضحك عليّ ؟ ستذهب إلى الخارج ، وتدرس هذه المواضيع التي تقرأ عنها في كتبك ، حتى ولو بعنا املاكنا كلها . نحن لسنا اغنياء ، ولكن ما زالت فينا عزيمة شديدة ... سنشمخ على اعدائنا ، كما كانت دائماً عادتنا . لا تنسَ انني أنا ايضاً سليلة غضبان بن خيّون . »

لمى ايضاً ، على طريقتها ، كانت سليلة غضبان بن خيون . لعل ذلك كان سر الشبه بينها وبين امي ، بل السر في انجذابي اليها اول مرة

وقعت عليها عيناي في احدى تلك الحفلات الصاخبة المشهورة التي يقيمها سنوياً طلبة فنون تشلسي في « البرت هول » ، حيث يختلط آلاف الشاربين والراقصين من الطلاب والفنانين والمتمردين في مجون صارخ ترفع فيه القيود عن كل ما في النفس من رغبة او جنون. كانت القطيعة بين اسرتينا قد أقامت عبر السنين جداراً ضخماً بيننا، لا نرى ولا نسمع من خلاله شيئاً عن بعضنا البعض. لم أكن أعلم ان لكاظم. أخي جواد الحمادي، ابنة تدرس في انكلترا، بعد ان قضت بضع سنوات في مدرسة في سويسرا. لم أكن أعلم شيئاً عن آل الحمادي سوى ان بعض افرادهم قد اثروا، لا من الزراعة وحدها — كانت لهم ايضاً بساتين في ضواحي بغداد، وفي الحلة — بل من التجارة ايضاً، ولاسيما في الخمسينات، اذ نشأت شركات جديدة كثيرة، من الاسمنت والمواد العقارية إلى الاحذية والمشروبات الغازية، كانوا هم ولا ريب من المساهمين الكبار في بعضها. ولا أحسب انهم كانوا يعرفون، أو يهمهم ان يعرفوا شيئاً عنا. ولأقلها صراحة: عندما رأيت لمى برفقة شاب انكليزي في تلك الحفلة الهوجاء في لندن، لم يخطر ببالي انها عراقية. كانت تتكلم الانكليزية بطلاقة اهلها. لولا سمرتها التي قد تلفت النظر. بل ان اسمها، بعد ان تعرفت عليها لم يوح لي بان لها صلة بأحد اعرفه في بغداد. فقد كانت تسمي نفسها لمى غني — لأن اباها كان يدعو نفسه كاظم عبد الغني، دون اضافة اللقب الذي عرف به اخوه.

غير انني عرفت كل شيء، بعد فوات الاوان — بعد مضي عدة اشهر على علاقة بيننا، لم تكن المسافة بين لندن واكسفورد لتزيدها الا اواراً وعنفاً. ولم ادر، حال اكتشاف الامر، ان كانت هي قد اكتشفت من انا بالنسبة اليها. فيما بعد، عرفت هي ايضاً كل شيء. لم تذكر الموضوع، حتى عندما عدنا إلى بغداد، في صيف ١٩٥٧،

قبل انتهائها من دراستها بسنة ، وقبل انتهائي من دراستي بسنتين . في بغداد لم نكن نتقابل الا سراً ، بعد ان نلجأ إلى الف خديعة . لقد خشيت لمى ان يعلم أبوها بما بيننا ، أنا لم اكن بعد مستعداً لمجابهة إخوتي وأمي بالموضوع . ثم عدنا كل على حدة ، إلى انكلترا ، ولقاءاتنا .

« تأويلاتي الغيبية ؟ » قالت لمى . « هذا الذي فعلته بنفسي . »

— لمى ، هذا الذي فعلته بنفسك كان سخفاً غيبياً أصلا ، قاومت به كل الذي كنت انا مستعداً للقيام به ، تكفيراً عن خطأ لم يكن لنا به حيلة .

— الأرض .. انها تطالب بالدم ، والعذاب . لا من فرد واحد ، بل من اسرة بكاملها .

واذا اقترفت الأسرة خطيئة ، فهل على الافراد ان يتحملوا وزرها إلى الابد ؟ لا بد من كسر الدائرة الخبيثة في مكان ما .

— نعم . ولكن يظهر انه لم يكن لنا أن نتملص بهذه السهولة من المسؤولية التي فرضت علينا .

— هذا بالضبط ما رفضته . لماذا لم انصرف عنك يوم تكاشفنا بالموضوع ؟ اردتك ان تطعنيني انتقاماً ، أو تنسي . إن من حقي أن أرفض خطأ وقع وانتهى . خطأ ارتكبه غيري .

— غيرك ؟ عصام ، كلنا جزء من ذلك الخطأ ، ذلك الاثم . جزء من تلك اللعنة — إنها لعنة الارض . من يدري كيف حصل عليها جدنا الأول قبل مئة وخمسين سنة او اكثر ؟ كم نفساً أزهق ، كم امرأة وطفلا قتل جوعاً وتشريداً ؟

— ولكنك لم تذكري الموضوع — الا بعد ان اصبحت على وشك التخرج . كنت انا يائساً . وقلت لك ، اذا كنت ستعودين إلى بغداد ، انتظريني . لم يكن بامكاني ان اعود في صيف ٥٨ . قلت لك ، انتظريني .

ولكنك عدت ونسيت كل شيء .
– شكراً للثورة . ما الذي فعلت من اجلي ، يوم اعتقل أبي ، وهرب اخي إلى سوريا ؟ كنت ترتع في ميدان بدفورد وبيكاديلي وسوهو وكوينزغيت ، تنتظر .
– كنت دائماً انتظر وقوع حدث ما يغير كل شيء . وفجأة ينءى اهلك وأهلي ما قد جرى . او يختفون . او نختفي نحن ...
– كنت تنتظر ثورة تطيح بأسرتي فتحظى بي ؟
– كتبت اليك عشرات الرسائل بعد الثورة ، ولم تجيبي على واحدة منها .
– لانني كنت اشم رائحة التشفي من كل كلمة تكتبها . كان لعابك يسيل لانباء القتل والسحل والمظاهرات ، فكرهتك . ثم عدت لا أفتح رسائلك . كنت ارتجف كلما تسلمت احداها . أبي في معتقل بين السجناء ، وأخي لا نعلم مكانه ، واموالنا محجوزة ، وانا كلما ذهبت إلى الكلية التي عينت فيها ، لا ارى في عيون الطلاب الا حقداً وشماتة . ما الذي كنت استطيع فعله ؟
ما الذي كانت لمى تستطيع فعله ، وما الذي كنت انا استطيع فعله ؟ أنا ، أو غيري . كنت ادرس لسنتي الأخيرة في لندن ، وبغداد تفور وتمور وتغتلم ، والناس فيها يرفعون إلى الذرى ويخفضون إلى الحضيض بين العشية والعشية . لقد تقت إلى العودة إلى المساهمة في الغليان . كنت اعلم انه غليان خطر ، قد ينقلب فيه المرء من بطل إلى خائن وهو في طريقه من الباب الشرقي إلى باب المعظم . من له دهاء الافاعي فلينزل إلى الميدان ، وليجازف . فالمجازفة مثيرة ، والكل منتش بتحطيم عهد واقامة عهد ، يريد اقتلاع الظلم وزرع العدل والحرية . في منال الفرد ، وهو يمشي على حبل مشدود ، وهم من القوة ، وتحت قدميه جحيم لا وهم فيه . هذه كانت اشهر عام ١٩٥٩ :

أشهر الصراخ في الشارع ، والصراخ في المذياع ، والصراخ في الزنازن ، والصراخ في البيوت . من الظافر ومن المهزوم ؟ كنت اجادل غيري من الطلاب ، نصرخ ونفرح ونغضب ، في ساحات لندن ومطاعمها ونوادي كلياتها ، وفي جمعيات الطلبة . نتتبع الأخبار بشوق ، بألم . نؤيد ونشجب ، نفكر ونخطط لعصر جديد . ملؤنا الايمان ، وملؤنا الطيش ، وملؤنا النار . وتجيئنا الأخبار تترى ، ومتناقضة . من اقصى اليمين إلى اقصى اليسار كان الطلاب العراقيون ، ومعهم بقية الطلاب العرب ، في هَوَج ، وأمل ، وتحرق . ويومها أحسست انني مسرف بتعلقي بلمى . فلمى بحكم وضعها الاجتماعي ، بحكم ثرائها ، بحكم اسرتها المتنفذة (سابقاً) ، تنتمي — هكذا قلت — إلى العدو . غير انني لم أكف عن كتابة الرسائل اليها . فالشخص الوحيد الذي كنت اقلق عليه ، واخشى على مصيره ، وأرجو ألا يصاب بأذى ، كان لمى — ولا أحد غيرها . سيجيء عهد من العدالة ، فيلتقي الناس على تناقضهم ، ويلتقي اليمين واليسار ، في جنة ارضية . ونكون أنا ولمى عندئذ رمزاً لحب سيعم بين البشر — وقد تم التكفير عن جرائم الماضي كلها ... تحت تأثير الحب ما اسهل ان ترتكب أشنع الجرائم ، أو ان تعتنق أجمل المثاليات . ولكن المثاليات من أثير ، والوقائع أعتى مما تظن : تجابهك بوجهها الكالح يوماً بعد يوم ، وانت متشبث بمثالياتك تشبث الغريق بالقشة . إلى أن يأتي يوم تجد فيه أن أسهل ما في الحياة هو ان تتخلى عن مثالياتك ، فتسخر من جهلك ، وتخجل من انك رضيت بأن يغرر بك — وتقرر الانسجام مع واقعك . ولكن يبدو ان المنسجمين مع واقعهم يولدون ولا يصنعون . اني أسخر من جهلي كل يوم ، وارتكب الحماقات نفسها كل يوم . ويظل الانسجام في منأى عني .

قلت : « كنت تتعذبين ، وأنا اعلم بذلك . كان المفروض اننا

سنزيح امثالكم عن طريق الثورة . ألا تذكرين ؟ وفي الوقت نفسه ، كنت احبك بلا عقل ، ولا منطق – ولا ضرورة . وكنت اعلم أن كبرياءك سيوقعك بين حجري رحى . »

– نزعاتك ، يا عصام ، بورجوازية ، كمعظم الثوريين . هذه كانت مشكلتك ، منذ أول يوم ، رغم خلفيتك الريفية .

– نزعتي بورجوازية ؟ لأنني أردت الزواج منك ؟

– لأنك رحت تعلل ، وتوازن ، وتتريث .

– كنت اعلم انني في عداد المرفوضين ، مهما حدث . إن لم يكن لاسباب عائلية وجيهة ، فلأسباب أوجه منها بعد قيام الثورة : لأسباب سياسية . ألم تمزقي رسائلي دون ان تقرأيها ؟

– تركتني لأكون الضحية . هذا هو المهم .

– ولكنك الآن قد تخطيت التضحية ، والغفران ، وجاء دورك لتنعمي برضا الآلهة والمجتمع . اليس هذا مهماً ؟ أما انا ...

– انت ؟ انت حر طليق ، ولا تدري . أفسدتك حريتك . الا ترى انني انتهيت ، قضي علي ، بزواجي ؟

– عجيب ! الا تحبين زوجك ؟

– أحب زوجي ؟ طبعاً أحبه . لكن له مشكلاته هو ايضاً . ثم اني ارفض الحديث في مثل هذا الامر .

خيّل إلي ان وجهها تجهم . ضاقت عيناها ، وتأزمت شفتاها . ما كانت لي لتستطيع ان تخدعني حتى بعد ذلك الفراق الطويل بيننا . فالتناقض بينها وبين زوجها كان صارخاً طيلة أيام السفرة . وتذكرت الليلة الأولى في السفينة ، حين سمعتهما من وراء الجدار يأتيان بحركات عنيفة ، وهما يتعاطيان الحب . هل كانا فعلا يتعاطيان الحب ، ام انهما كانا يتشاجران ؟ هل كان يقلبها بين ذراعيه العاشقين في فراش يزقزق ، أم انه كان يضربها ؟ لقد لذ لي في تلك اللحظة ، وأنا جالس

قرب لمى، وفخذي يلامس فخذها تحت المائدة، ان انشق عطرها ، وألعب بخصلات شعرها ، أن اتصور انهما كانا ليلتئذ يتصارعان ، لا حباً ، بل كراهية .

لم أرد الخوض في أمور زواجها وخاصة في ساعاتنا القليلة تلك . ونابولي حولنا تعصف بالضوضاء والمرح . وهل كان لنا ان نأمل في يوم آخر من الحب ؟ الا انني مازحتها قائلا : « أهكذا تركت زوجك الذي تحبينه يذهب وحده إلى كابري ، تحت رحمة فاتنتنا الايطالية ، أميليا ؟ »

لم يخطر ببالي ان ذاك سيصيب عصباً حساساً منها . فقد فزت كالملدوغ ، وقالت : « أميليا ؟ اتظن ان بينهما شيئاً ؟ »

— العياذ بالله !

— لا ، أرجوك يا عصام . لعلك تعرف شيئاً لا أعرفه . اتظن انه يهتم بها ؟

— فالح ؟ انه رجل متناء ، صعب ، فيما يبدو لي . ولا اظنه ينساق إلى مثل هذه الامور ، في اربعة أيام او خمسة من السفر . على كل ، انت ادرى به مني .

— انه لا يتكلم ، حتى عندما يشرب ، ويكثر من الشرب . او انه لا يتكلم في العواطف . لا أعرف ما الذي يحب ، وان كنت ربما أعرف ما الذي يكره .

— اذن ، انت تعرفين انه يحبك ؟

— طبعاً .

— اواثقة ؟

— طبعاً . ولكن تعبيره عن حبه غريب . لماذا تسوقني إلى الحديث في ذلك ؟

— أؤكد لك ان امره لا يهمني .

ـ الست تغار منه ؟

ـ انا لا اعرف الغيرة . أنا احبك . اشتهيك . اتعذب من أجلك . اريد الهرب من بغداد لكي لا أراك . ولكنني لا أغار من أحد . انه لا يدخل في حسابي العاطفي . ولكن أخبريني . أتحبيني ؟

وعلي حين غرة ألقت اصابعها المتشنجة على رسغي ، وضغطت عليه ، ثم أخذت تغرز أظافرها في لحمي . لم تقل شيئاً ، بل استمرت في غرز اظافرها ، كأنها تدق مسامير العشق في جسدي ، ثم ألصقت فمها بخدي وراحت تمرر شفتيها المفتوحتين على وجهي ، صاعدة نازلة ، إلى ان استقرتا بين شفتي . كانت شفتاها نديتين بالقهوة ورضابها الحلو . والمسامير تنفذ في لحمي .

رفعت شفتيها عن فمي وقالت :

« ألم تتساءل كيف حدث لنا هذا اللقاء في السفينة ؟ »

ـ صدفة لعينة ، لذيذة . هبة الله الأخيرة لرجل كفر بنعمته .

ـ صدفة ؟ اذن اسمع . يجب ان اعترف لك بكل شيء . قبل حوالى شهر ، كنا في حفلة عشاء عند الدكتور عبدالله فائق . وهناك رأيت زميلك احسان حكمت . هذه ربما كانت صدفة . كنا حوالى عشرين او ثلاثين شخصاً في الحديقة . واتفق ان الكرسي الخالي بجانبي جاء ليجلس فيه احسان ، لا غيره . وفالح يتحدث مع آخرين بعيدين عنا . تمالكت نفسي اول الأمر ، لئلا اباده بالسؤال عنك بلهفة غير لائقة . سألته عن عمله في المكتب ، فقال انه يعمل بالاشتراك معك . قلت اعرف ذلك . ولكن يظهر أن بغداد تتفجر بنشاط عمراني ، وهذا من حسن حظ المهندسين ، اليس كذلك ؟ قال : إلى حد ما . ولكن الحصول على الاشغال ليس بالامر الهين ، وعصام ، ربما تعلمين ، لا تعجبه من التصاميم الا تلك التصاميم الطليعية التي لا يرضى عنها الناس بسهولة . وعلى كل ، أخشى انه يريد ان يسافر

إلى انكلترا للعمل في لندن مع المهندس كذا — وذكر اسمه الذي نسيته . قلت : ولم لا ؟ قال : لا بأس من ذهابه . ولكن يظهر انه لا يريد الرجوع . فسألته ببساطة : متى سيسافر ؟ فقال : اليوم انهى عملية الحجز في سفينة يونانية ، تبحر من بيروت في اوائل حزيران . قلت : اذن سيسافر بحراً ؟ قال : نعم . فقلت متظاهرة بعدم الاكتراث : ومن يسافر بحراً هذه الأيام ، والطائرات النفاثة في كل مكان ؟ فقال ضاحكاً : اسألي عصام . يظهر انه يحب البحر . بل ان السفينة التي اختارها سفينة بطيئة لا تترك ميناء في البحر المتوسط لا تزوره ..
انتهى الحديث عنك ، وانتهت السهرة ، وعدنا إلى البيت . ولكنني لم انم . البحر ! عصام والبحر ! في صبيحة اليوم التالي ، حالما ذهب فالح إلى المستشفى ، ذهبت إلى مكتب كوك . اترى كيف يصدق حدسي دائماً ؟ هناك استفسرت عن سفينة يونانية تتجول بين موانىء البحر المتوسط ، وتغادر بيروت في اوائل حزيران ، اذ انني ارغب في السفر فيها . فذكر الكاتب اسماء عدة بواخر ، ومواعيد اسفارها واثمان تذاكرها . ولكنني كنت اريد باخرة معينة . فسألت الكاتب بكل براءة : هل هناك عراقيون يسافرون على اي من هذه السفن ؟ قال : طبعاً . واخرج قوائم السفر . وقال وهو يتفحص الاسماء والتواريخ : هناك « الهركيوليز » و « الاسبيريا ». كلتاهما محبوبتان لدى العراقيين . « الاسبيريا » ممتازة ، ولكنها سريعة ، وهذا فلان ، وفلان . و .. عصام سليمان ، سيسافرون على « الهركيوليز » . كان اسمك الثالث ، وقرأه خطأ : فقلت : تقصد عصام السلمان ؟ فعاود الكاتب النظر إلى القائمة ، وقال : العفو ، عصام السلمان ، تمام ... الدرجة الثانية . (وهل تظن اننا كنا نسافر في الدرجة الثانية لولاك انت واساليبك الشعبية ؟) في الحال ، بدأت المعاملة لحجز مكان في السفينة . وقلت لنفسي ، ليس علي الا ان اقنع فالح بضرورة السفر بحراً .

ولو مرة كل عشر سنين ، وبجمال البحر ، وبضرورة الاقتصاد ، وبمتعة عشرة الناس في السفن في اسفار الصيف ...

لو ان لمى في تلك اللحظات كشفت لي عن انها قد دبرت كميناً لارتقاع بي حال عودتي إلى السفينة ، لما كانت دهشتي أشد. دهشتي؟ ذهولي ، فزعي ، غضبي .

– اذن انت دبرت كل شيء ؟ لمى ، أنت فظيعة !

– هل سألتني ان كنت احبك ؟

– لمى انت تلعبين بي . انك تخيفينني . بعد كل هذه السنوات ، ما زلت تخيفينني . ولكنك – تضحكينني أيضاً ! عشرة الناس في السفن ! انت التي تبتعدين عن الناس .

– ان كنت مستعدة لارتكاب حماقة شريرة كترتيب سفرة كهذه ، لم لا ادعي ايضاً انني أعشق عشرة الناس ، وأحث فالح على لقائهم ؟

– لكنك أفسدت علي كل شيء . انا هارب منك ، منك بالذات . ألا ترين ؟ أنا هارب من اشياء كثيرة . من الجنون ، من الطوفان ، من كل ما كان جزءاً من تركيبي الداخلي . كنت طيلة السنين أحلم بالثورات ، ولما وقعت الثورة وانا في لندن ، شعرت انني ضحية تدبير خفي ابعدني عن الشيء الوحيد الذي كنت احلم بانه سيحقق المعجزات . غير انني عندما عدت إلى بغداد ، لم استطع التحمل . وانت في مكان ما لا يأتيني منه الا صوت راعش على اسلاك التلفون مرة كل شهر أو شهرين ... كم مرة تحدثنا بالتلفون ؟ كم مرة التقينا ، وكأننا غرباء ، نتصافح تصافح الغرباء ، ونتخاطب بتفاهات الغرباء ؟ وطعم شفتيك على شفتي لا يزول ، ولا يخف . وعندما استطعت الهرب ، دبرت ملاحقتي حتى في هزيمتي . لمى ، انك رهيبة .

وغرزت اظافرها من جديد في ساعدي ، وقالت : « انا قدرك . »

– قدري ؟ انت كاليومنيديز .
– كماذا ؟
– كآلهة الانتقام في مآسي الاغريق . لا تنقصك الا الافاعي في شعرك .
– اتقصد انني سأحطمك ؟
– بالضبط . لأن ابي قاتل ، ولم يعاقب على جريمته بما يكفي ، كما يبدو .
– عصام ، من هو صاحب التأويلات الغيبية الآن ؟
– عطلتي البحرية التي تصورتها بطيئة مترفة ، اناغش فيها الايطاليات والانكليزيات ، حولتها انت إلى طريق زرعت بالمسامير ، أمشي عليها حافياً وأنام عارياً .
– ألا تعلم انني اذا صممت على امر ... ماذا كنت تقول ؟ استشرس ؟
– تستشرسين . كالقطة في هياجها .
– نعم ، نعم ، كالقطة في هياجها .

في انكلترا كانت اذا وعدت ، مهما يكن وعدها جنونياً ، وفت . فيوم نهرها اخوها وحذرها من ان تقوم بيننا علاقة ، بعد ان أوضح لها حقيقة ما بين الاسرتين ، وهددها بما لست ادري ان هي لم تقلع عني نهائياً – كانت قبل ذلك بيوم او يومين قد وعدت بمرافقتي في رحلة إلى « ديفونشر » في اواخر عطلة عيد الفصح ، لنقضي بضعة أيام معاً في الحقول والغابات والبحر . حذرها أخوها ، وعنفها . غير انها كانت قد وعدتني ، ولا بد من الوفاء بالوعد . وفت به قبل ان تعلمني بالذي جرى بينها وبينه . لقد قضينا أربعة ايام ونحن نتنقل بين اكستر وطوركي ودوليش وبرود همبري ، بين فنادقها وحقول قمحها وشطآنها . حقول قمحها... هناك استلقت لمى على

ظهرها بين السنابل الخضراء ، على مقربة من التل – اي تل في اي ارض خضراء كان ذلك المرتفع ، في اي فجر أشهب دافىء .. عندما خرجنا من النزل الصغير في برود همبري ومعنا بضعة ساندويشات في حقيبة صغيرة ، والشمس لم تطلع بعد . ونزلنا التل نزول الانسان في عصره البدائي الأول . نزلناه ونحن نرقص ، نرقص بين الحجارة والازهار البرية ، كأننا العاشقان الوحيدان في الدنيا العريضة كلها ، ولمى تقول : رودودندرون، رودودندرون... نرقص من أعلى التل طوال انحداره إلى السفح المديد . نرقص في دوائر ، نرقص كالدراويش، كالبلهاء ، ونغني ، ونتلولب نحو حقل القمح ، ونخوض بحراً من السنابل الخضراء ، ونقول سنعود إلى سنابلنا الخضراء يوماً ونتمرغ فيها ونخصبها بحبنا . وبين السنابل سمحت لي بأن اعري نهديها ، واتحسس عريها . لقد سحقنا السنابل هناك بجسدينا ، وتساءلنا ترى ما الذي يقوله صاحب الحقل لو رأى ما الذي حل بسنابله الفتية ؟ وفي مساء ذلك اليوم ، ونحن في القطار في طريق عودتنا إلى لندن ، أخبرتني ببعض ما قال لها أخوها . ثم قالت : « عصام ، ما الذي تعرفه عن زهرة الرودودندرون ؟ هل لها اسم في العربية ؟ ام انها أرق من ان تعاني شواظ شمسنا ؟ »

فقلت : « لم اسمع بهذه الكلمة قط من قبل . »

– ما الذي اذن تصنعه في انكلترا ان لم تكن تسمع بالرودودندرون ؟ انها الجراح البيضاء . عناقيد النجوم التي تلتمع وراء عينيك عندما تستسلم . عصام ، هل استسلمت ؟

– وما الفائدة . أبي قاتل .

– هس ! لولا هذان الزوجان المحترمان في عربتنا لقبلتك الآن . ولكنني بعد الليلة في لندن ، لن اراك لمدة طويلة .

– والليلة في لندن ؟

— بقية الدراما ، والصعود إلى الذروة ، ثم التلاشي في الغيوم .
— في ضباب لندن ، تقصدين ؟
— طيب ، في ضباب لندن . انت تدرس خواص الحجر والخشب والحديد ، وانا اكتب مقالات عن الافلاطونية الجديدة عند فلاسفة كمبردج . أتعلم انهم في اكسفورد يكادون أحياناً يتلفظون باسم جان بول سارتر ؟ همساً فقط . ثم يصرفونه عن اذهانهم .
— في بغداد لا يتحدثون الا عنه .
— اذن سأرفض الحديث عنه . ولن اراك لمدة طويلة . اتفقنا ؟
— اتفقنا ، يا قطتي الشرسة !

واخذت يدها ، وقبلت باطنها وظاهرها ، وشممت عطرها اللذيذ : « ولكن قبل ذلك ، علينا بالدراما ، والذروة . »

قالت ، وكأنها قد عزمت على الموت : « في لندن ، الليلة . »

وفي لندن ، في تلك الليلة الموعودة ، اختفت لمى . خافت وهربت . هربت مني ، من نفسها ، من كلينا . عادت إلى اكسفورد في أحد قطارات الليل دون كلمة تفسير واحدة ، دون اعتذار . كأنها اذا وفت بوعدها السابق ، اصبحت في حل من اي التزام او وعد لاحق . ومن اكسفورد لم تكتب إلي ، ولم تجب على رسائلي — الا مرتين في كلمتين مقتضبتين ، وهي تتهيأ للعودة إلى بغداد. هل ارهبك أخوك يا قطتي الشرسة ، وخجلت من الاقرار بذلك ؟

واليوم في نابولي ، قطتي هي نفسها . هاجت واستشرست — ولكن كيف يكون التلاشي في الغيوم ؟ تركنا المقهى ، ورحنا نسير من شارع إلى شارع ، نشق بحاراً من كلام ، من اسئلة ، من وجوه ، من أيد ، من رطانة ولغط وضجيج . نتفرج على الواجهات ، وندخل الحوانيت ، ونستفسر عن الأسعار ، كأن لمى هي لماي ، كأن السنوات لم تكن ، ولا القيظ ولا الجفاف ولا العطش . كأن

الزمن لم يكن ، ولن يكون . كأن اللحظة هي عمر الكون .

من دكان على مقربة من « غالريا امبرتو » اشترت حذاء مسطح الكعب محاكاً ، كالزرد ، من خيوط ذهبية . ومن دكان آخر صغير اشتريت لها محارة حفرت فيها صورة « يوروبا » ممتطية صهوة الثور الهارب بها . ما أروع زيوس في تنكراته الجنسية ! « أتدرين ان يوروبا كانت لبنانية من صور ؟ ولعلها شربت يوماً من مياه الفرات ؟ لماذا لا احملك على ظهري وأهرب بك انا ايضاً ؟ »

— أفضل لو كان عندك يختك الخاص لذلك .

— عندي « الهركيوليز » ، الا تقنعين ؟

— أبداً ! فلأجرب هذا الخف الذهبي .

وقفت على قارعة الطريق ، ونزعت حذاءها ، ولبست الخف . ومر شابان طويلا الشعر ، وصفر أحدهما صفير الذئب .

— حتى في قدميك إغراء الجنس .. السمرة والبريق !

— افرض ان فيزوف انفجر الآن ، ودمر نابولي كما دمر بومبي من قبل ؟

— سندفن حينئذ معاً .

— وأنا في ذراعيك !

— يا للفضيحة . ما الذي سيقوله الناس ؟

— وما الذي يهمني من الناس ؟ قل لي ، ماذا يأكلون في نابولي ؟

— بيتزا نابوليتانا .

— طيب . نتغدى بيتزا . ولكن بدون سردين .

— بالفطر .

— كثير منه .

— وقارورة كيانتي .

— وهل هناك غير الكيانتي ؟ لا تتشاطر .

– بعد الغداء سأتشاطر . سآخذك إلى بومبي .
– عظيم ! وتسمح لي برؤية – كل شيء ، حتى الرسوم ؟
– طبعاً . ما قيمة بومبي بدون رؤية كل شيء ؟
– ولكنها رسوم فاضحة .
– دليل العشاق .
– اترى كيف ان الله يرأف بالمحبين ؟
– يدفنهم أحياء متعانقين ، لئلا يفرق بينهم أحد ؟
– وهم في لحظة النشوة .
– لمى !
– وما سوى ذلك الا ...
– تراب في تراب .
– فلنذكر بومبي دائماً .

ولقد ذكرنا بومبي طيلة الساعات القليلة التي تلت الغداء ، لان لمى ، اذ جعلت تحسب ما لا بد من حسبانه من ساعات الذهاب والاياب والعودة إلى السفينة قبل وصول العائدين من كابري ، ادركت ان الذهاب غير عملي ، وان بومبي يجب ان تبقى ارضاً لميعاد . « غير عملي ! هذه انت ! » قلت لها : « تفعلين المستحيل ، ثم تتوقفين عند صغيرة لا تراها العين وتقولين : غير عملي ! » لقد كان كل ما فعلناه غير عملي . فبعد تناول البيتزا وشرب الكيانتي ، لم نترك المطعم : كل ما هناك اننا أكلنا على إحدى موائد الرصيف ، ثم دخلنا إلى أحد اركان المطعم المعزولة العتمة ، الباردة . وشربنا المزيد من النبيذ ، ثم القهوة ، ثم الشاي . ساعة تلو ساعة . كلام تلو قبلات تلو كلام . لم يدهش النادل . لم يدهش احد . فعلائم النشوة في كل مكان . ولم يدهش الانا ، عندما ادركنا ان الساعة تخطت السادسة ، واننا لم نر شيئاً من نابولي .

– ومن يريد ان يرى نابولي ؟ هل تريدين ان ترَي نابولي ؟
– انا ؟ ابداً .
كنا نسير بين جموع تتزايد ازدحاماً باقتراب المساء . فجأة اوقفتني وركزت عينيها في عيني . وقالت جادة ، حزينة : "See Naples and die" هل علينا ان نموت بعد الآن ؟ »
– نعم . ولكننا لم نر نابولي .
– ما الذي ستفعل هذا المساء ؟
– سأهرب من المركب .
– مع أميليا ؟
– فكرة هائلة !
– سأخنقك .
– لم لا ؟
تكومنا في سيارة الاجرة الصغيرة التي أخذتنا إلى الميناء ، وعندما قبلتها مودعاً على الرصيف ، شعرت بان المساء أخذ يتحطم حولي ، وان جسدي قد انهكته شهوة خائبة . شعرت كأنني قد سقطت من السحاب في مستنقع لزج . كأن فيزوف انفجر ، ودفنني وحدي خالي الذراعين بين آلاف من اجساد الغرباء . رحت ارقب قوام لمى وهي تبتعد ، وتصعد سلم السفينة ، إلى ان استدارت مرة اخيرة ولوحت إلي بيدها . أهكذا تكون النهاية من كل شيء رائع ، مشتهى ؟ اية احزان هذه التي ترفض التعليل وتأبى الانصياع ؟ كأن لمى قد ماتت . كأنني قد مت وانا ارقب موتي ، حيث لا معنى ، ولا غاية ، ولا ضرورة .
كانت « الفيات » الصغيرة في انتظاري . تكومت في داخلها مرة اخرى ، لتسرع بي عودة إلى المدينة .

لم اكن اتصور ان الأمر سيكون بمثل هذه الصعوبة . فالح على مقربة مني ، وكأنه على بعد ألف ميل عني . اذا جالس أصدقاءه فانه اميل الى الصمت ، واذا تحدث فانه أميل الى السخرية والغضب ، مصمماً بعناد على عزلته النفسية . ما أصعب الاتصال به ، والهركيوليز على هذا الصغر . لسبب اناني صرف ، فرحت عندما اخبرتني مها قبيل السفر بانها لن ترافقني في السفينة ، لأنني بقيت عندئذ وحدي في القمرة ، وتصورت ان فالح سوف يجد اكثر من ذريعة للتسلل الى فراشي في ساعات الفجر الصغيرة . ولكنه لم يفعل ذلك الاّ مرتين – وبتدبير مني . ولم يكن مجيئه في اي من ساعات الفجر . مرة جررته جراً من بين وديع ومحمود متحججة بانني اريده ان يفحصني ، ولم استطع ابقاءه في غرفتي اكثر من نصف ساعة . ومرّة ، آه ، ذلك اليوم العاصف ! بعد الغداء ، وكلانا ممتلئ خمراً ، وزوجته طريحة الفراش بالدوار ، استطعت ان احتويه بين ذراعي في القمرة ، والسفينة تتدحرج بنا ، وتقلبنا صدراً لظهر ،

وصدراً لصدر ، كعجوز ماكرة تحثنا على ممارسة الحب .

انا ايضاً لم ارد ان اثير الشك حول صلتي به نزولا عند مشيئته . واسعفتني صداقة عصام في البقاء قريبة من فالح بعض القرب ، أحدّثه عبر الآخرين ، خلسة ومواربة . ولكنني كنت اشتهي الاختلاء به لأتحدث اليه كما اريد ، لا كما يريد لي هذا الافتعال اللامنتهي ان اتحدث . وهو يشرب ، يشرب دون انقطاع ، وأنا لا أعلم إن كان اضطرابه قد اشتد بسببي ، او بسبب ما لحظ من علاقة بين لمى وعصام . ولكنه لم يلحظ شيئاً لأيام . ان الرجال لا يلحظون ما تلحظه النساء . حسب المرأة نظرة زائغة ، رمشة عين ، لتحس بما يجري سرّاً بين رجل وامرأة . لقد فرحت لما بين لمى وعصام . وفرحت كذلك لاهتمام عصام بي . اهتمامه بي ؟ انا اعلم انه يشغل نفسه بي عن زوجة الطبيب ، غير أنني بذلك أثير غيرة الطبيب لعله ينجرف اخيراً فيجاهر بشيء من تعلقه بي . كم انا ساذجة . عندما ابرق فالح اليّ من بغداد لاحجز لنفسي مكاناً في هذه السفينة ، أما كنت ادري انه يختط لي الصمت والالم والكذب في سفرة بحرية أصحابها يضحكون ويتغازلون بملء صراحتهم ، وأنا أمثل دور الغريبة ، دور صديقة الصديق ، افتعل الضحك بين المسافرين ، ولا افتعل الدمع عندما اختلي في غرفتي ؟

ليت مها لم تحرد مرة أخرى على وديع ، وتقعد في عقر عيادتها البيضاء، المعقمة . اذن، لصارحتها، لتخلصت معها من هذا التكتم الذي يرهقني . عصام بعض سلوتي : هذا ما لن انكره . هذا الماكر يمكر بي ، وامكر به . نتبارز بالكلمات ، كما يتبارز خصمان بمسدسات غير محشوة . والقبلات القليلة التي استرقناها ما استكثرتها عليه او على نفسي . كلانا يستجيب لهذه اللعبة الضرورية لحبه . حتى وديع عساف أخذ يتصور ان بيني وبين عصام علاقة قد تدوم — او أنه تصور ذلك في ايام السفرة الاولى . ولكنه لا يتوقف عند شيء ، او أحد . وديع يريد

معانقة الجميع ، حبّ الجميع ، ثم السير ضاحكاً بعيداً عن الجميع . انه لا يسير إلاّ في اتجاه نفسه المعقدة . وديع مبتلى بنوع من الجدّ يخشاه هو نفسه ، فيحاول خداع نفسه في النهاية بالضحك . على عكس فالح . ومها — مها الزئبقية ، العطوف ، الفائرة ، الخامدة ، ستكون خير امرأة لرجل مثله وان كنت أخشى حتى عليها من نزوات لا يبدو أنه يتحفظ ازاءها . والا ، فكيف يترك مها في بيروت ، ويقوم بهذه السفرة مع هذه الدمية الفرنسية ، وكأن مها لم تكن ؟ مسكينة مها . جابهت القطيعة فخافت ، فأبرقت اليه . اني اخشى الزواج من رجل يجتذب النساء والرجال بهذه السرعة ، ويستجيب لكل من يطلب الدفء في شمسه الساطعة . غريب جداً ان يقاومه فالح أحياناً ، كأنه هو ايضاً يخشى الوقوع تحت سحره . والايام الثمينة تمرّ ، وفالح يقاوم هذا وذاك ، حتى بدأت أحس انه يقاومني انا ايضاً — الى ان انبثق هذا الصباح الصاحي المشعشع ، عندما نزلت الى الزورق المهيأ لسفرة كابري . دخل فالح المركب الصغير بمفرده ، وجاءني بصراحة عجيبة ، وهمس في اذني :

«لنترك المركب .»

— لماذا ؟

— لمى متوعكة ، وستبقى في السفينة ، فلنذهب الى نابولي، وحدنا.

لم الذهاب الى كابري مع جمع من ركاب يعرفوننا ، ولنا ان نختلي في شوارع المدينة المكتظة ؟ وافقته في الحال ، واعتذرنا للربّان معاً ، ونزلنا الى الرصيف ، على مرأى من وديع وجاكلين والآخرين . كانت الشمس قد ارتفعت قليلاً ، ولم يشتد الحر بعد ، وقال فالح : «لنتناول الفطور في احد هذه المقاهي القريبة من البحر . ما اطيب الأرض الصلبة تحت القدم ! »

في المقهى ، جلسنا قرب النافذة العريضة . لم يكن المقهى بادي النظافة بكراسيه المهترئة وموائده الحديدية الملونة . ولا كان رواده القلائل —

– وهم يتخاطبون عالياً بلهجة نابولي الخشنة ولهجات اخرى لم استطع تحديدها – ممن يركب المرء البحار لرؤيتهم في ساعات الصباح الاولى . غير أنني ، رغم انني ما كنت قد رأيت بلدي لأكثر من أربع سنوات لم أكن ارى الآن الا فالح ، وعيناه السوداوان الكبيرتان تلتمعان تحت حاجبين كثيفين يرتفعان وينعقدان لكل كلمة من كلماته . بعد ذلك الانتظار الطويل الممض ، كنت اتشبّث بعينيه ، باصابعه الطويلة التي اشعر انها تجوس اعضائي حتى من بعيد .

قلت : «شعرت ان الرحلة لن تنتهي .»

– كنت أخشى ان بطولتك ستخونك في آخر لحظة .

قال ذلك ويده تعبث بشعري المسترسل على كتفي ، يبثّ عطراً خفيفاً أعلم انه يحبه ، وانا اودّ لو استقر برأسي على صدره وهو يتكلم ، حتى في ذلك المقهى القميء ، وأظل اصغي الى الكلمات وانا احسها تصعد من رئتيه وحنجرته ، حتى المساء . لم تذهب الايام عبثاً ! لم يكن الانتظار عبثاً ! اني اعشق البحر ، على كل حال . لم القلق ونظرة واحدة منه بين الحين والحين ... «لولا ، لولا هذه المرارة يا فالح . كأنك في جنازة ، والكل يضحكون .»

ضحك فالح ، وقهقه . وقال : «اني اكتب مذكراتي هذه الايام .»

– وهل هذا يستوجب العبوس ؟

– الجد ، على الأقل .

– عند الكتابة فقط . قبّلني .

قبّلني خطفاً وعلى استحياء . غير انني أخذت وجهه بين يديّ ، فوق الاكواب والصحون ، وقبّلته على فمه طويلا وبلذة . ثم اكلنا الفطائر الايطالية المعهودة . وشربنا القهوة . وطلبنا المزيد من القهوة . وشعرت بحرارة تصلني من نظراته المعجبة النهمة – حرارة تتصاعد وتتوتر . وشعرت أنني جميلة ، ملأى بانوثة تثير هذا العملاق الساخط على الدنيا .

اردت ان استشعر رجولته ، خشونته ، وطاب لي ان اتصوره وهو ينعم ويرق ، وأخيراً يذوب حلاوةً على صدري .

نظرت الى ساعتي وهتفت : «فالح ، طار الصباح !» فقال : «يا عيبك ، أميليا ! اتنظرين الى الساعة ؟ ليت كل صباح يطير هكذا . ولتنتظر نابولي ...»

رأيت فالح ينظر الى الرصيف الآخر من الطريق ، ويصعق . نظرت الى حيث اتجهت عيناه . ورأيت لمى وعصام يسيران ، ذراعاً بذراع ، مهرولين نحو المدينة . لم تكن دهشتي كبيرة (بل لعلني فرحت بخبث ، وانانية) ، غير ان فالح فقد السيطرة على نفسه ، وخشيت انه سينهض في الحال ويركض في اثرهما . امسكت بيديه ، واذا هما تنتفضان . اصفرت شفتاه وزاغت عيناه . ولم يقل شيئاً .

«كيف تستطيع ان تبقي على زواج كهذا بعد اليوم؟ لنتزوج .» افلتت العبارة من فمي ، رغماً عني .

ولكنه لم يسمع . بقي صامتاً ، وقد سقط حاجباه على عينيه كستار اسود . جعلت اتكلم ، وهو لا يريد ان ينظر الى الطريق ، ولا اليّ . انهار كحمل أصم ثقيل لا يتزحزح من مكانه . ولم يكن لي إلا ان اقول : «لماذا لا نذهب الى فندق نقضي فيه بقية النهار ؟»

وهذا بالضبط ما فعلناه . ذهبنا في سيارة الى فندق مكيف الهواء . ادعينا بان امتعتنا ستصل من مكتب السفر بعد ساعتين او ثلاث . وصعدنا الى غرفة في الطابق الخامس تشرف على الخليج الكبير وهو يتوهج ، وعلى بركان فيزوف البعيد ، يتصاعد منه دخان شفاف رقيق . ولكن فالح لم يطل النظر الى شيء ، بل سحب ستائر النافذة الرائعة ، واشعل الضوء الخافت قرب الفراش العريض ، وارتمى على وجهه في الفراش بكل ثيابه . وكان علي ان أرأف به ، فلا ازيد في بؤسه . تركته وكأنه جريح يحتضر ، لا اسمع الا أفأفة حبيسة تندّ عنه بين لحظة واخرى.

لبعض الوقت جلست قربه ، صامتة حائرة . حتّى هنا ، غدرت بي الصدفة ! ليتنا كنا في بيروت. نهضت وذهبت الى الحمام المتصل بالغرفة. حمام أخضر يتألق . كان الطقس في الخارج حاراً ، رطباً . وفي السفينة طيلة السفرة ، لم أهنأ بحمام حقيقي في مغطس . اجريت الماء في المغطس بقوة ، وباب الحمام مفتوح ، لكي يسمع فالح صوتاً آخر غير صوتي . نزعت ثيابي ، والقيت بها عبر الباب الى ارض الغرفة . والقيت بنفسي في الماء . استلقيت على ظهري ، واسترخيت . وجعلت احرّك قدمي الممدودتين ، وارفرف بذراعي ، فيصطفق الماء، ناعماً، مغازلا جسدي. كنت اريد لفالح ان يسمع حركاتي المائية من خلال الباب المشرع . وهو لو رفع وجهه البائس من على الوسادة في اتجاهي لرآني ، وانا اعبث بالماء ، عارية . غير انه لم يتحرك لمدة طويلة ، حتّى قطعت منه الرجاء . وتناولت الصابون وجعلت أرغيه على جسدي ، آخذةً الحذر لئلا يتبلل شعري . كنت اقول ، لا اريد ان اغضب . لم الغضب ؟ انه في حالة رهيبة . حتّى جسدي لن يثيره . يجب ان يثيره . ولكنه في حالة بؤس قاتل . ليهضم بؤسه على مهل .

وفجأة تململ . انقلب على ظهره ، ورفع ساعديه ليسند رأسه على كفيه . لم ينظر اليّ ، بل ركز عينيه في السقف . «اميليا ، اما زلت تستحمين ؟» قالها دون ان يزيح بصره عن السقف. صفقت الماء بيدي دون ان اجيب . فقال : «أما زلت كما عهدتك جميلة ؟»

— جميلة ؟ لم لا تتأكد من ذلك بنفسك ؟

— فيما بعد .

— كل شيء فيما بعد ! الحياة كلها ، فيما بعد !

— الشقاء كله ، فيما بعد . الموت كله ، فيما بعد . اميليا ، ما الذي ستفعلين بذلك الجسد الشاب ، لا زوج ولا حبيب ؟

لم أجب . لو أجبت ، لشتمته . ولكنه أردف : «أم انك اصطدت

عصام أيضاً ؟ ومن غيره ؟»

كان صوته حيادياً . لم تكن فيه نبرة غضب ، او غيرة ، او شماتة . كأنه غريب عني . حتى فضوله لم يكن عميقاً يستدر الجواب . فلم أجبه . واكتفيت برشق الماء برفسة من قدمي ، وشعرت بموجة رخية تلتف حول فخذي وتصعد الى بطني وتلتف حول نهدي النافرين قليلا فوق السطح . واعدت الكرة ، اتقصد استعادة اللمسة الطرية وهي تدب دبيباً ناعماً على جسدي. وفالح ما زال يرفض النظر اليّ . فقلت : «اذا بقيت على اهمالك لي ، فسوف اصطادهم جميعاً ، واحداً واحداً .»

— ولكن يجب ان تسرعي . لم يبق من الرحلة ايام كثيرة .

— عندي من الوقت كل ما أريده . شكراً .

— أما انا ، فلم يبق لديّ الا وقت قليل . ولكن حتى هذا القليل الذي لديّ كثير ، كثير .

صفقت الماء مرة أخرى ، وبعصبية قلت : «سوداويتك تزعجني . لست ادري ما بك .»

— ألا تدرين ؟

— جعلتني أغادر بيروت واقوم بهذه الرحلة الفجائية ، ثم رحت تتصرف كأنني وباء تقصيه عنك . أحوم حولك وحول اصدقائك كأنني كلب يحوم حول اناس يأكلون ، انتظر من يلقي اليّ بعظمة . أف !

حركت ذراعي في الماء بقوة ، فتراشق على أرض الحمام ، كأنني اسبح في مياه الـ«سبورتنغ كلوب» في بيروت ، وفالح يلحق بي في البحر ، وهو لا يجيد السباحة ، ويرجوني ألا أبتعد عن الصخور . ولكنني اضرب الزبد بيدي ورجليّ ، والماء الزمردي يتلألأ حولي ، مرجعاً ضوضاء السابحين واللاعبين والجالسين على الشرفات يشربون البيرة ويأكلون السندويتش . وكلما صاح بي فالح أحسست بأن الحياة بعد انفصالي عن ميشال ، قد اخذت تنصفني من جديد . لقد فاجأتني بيروت بالوانها

وزخمها وضجيجها – عشقتها جميعاً ، الى ان خشيت على نفسي الضياع في متاهة من الحركة والصوت. وكان زوجي في تخلّف مستمر عني ، كأنه سبّاح أضعف مني ، فأنأى عنه نحو افق ساطع وهو يتلاشى في مكان ما الى الوراء ، وانا أعلم انه هناك ، في مكان ما ، يخابط برخاوة ودونما متعة . وجاء يوم وجدتني فيه وحيدة في الشقة . لقد ذهب ميشال ولم يعد فعلا . ولكن الاصدقاء كانوا هناك . والمقاهي كانت هناك . وفندق سان جورج كان هناك ، ونادي السباحة ، ونادي «السبورتنغ » – الا ميشال . احتجب في دير في الجبل . والتقيت بالدكتور فالح حسيب ، غريباً طويل القامة ، كث الشارب ، أشبه بممثل سينمائي هجر التمثيل ، على شيء من الخجل ، قليل الكلام ، ولكنه اذا تكلم لا يتردد في الافصاح عن رأيه مهما يكن جارحاً . «نحن العراقيين هكذا »، كان يقول ، «لا نقول الا ما نعنيه ». كنت مستوحشة مهجورة أخشى البقاء وحدي طويلاً يوم دعتني صديقتي الدكتورة مها الحاج لمرافقتها في حفلة عشاء كبيرة اقامها المؤتمر الطبي في السان جورج . وهناك التقيت بفالح . خيل الي انه مهجور يخشى الوحدة مثلي . مالي والأطباء ؟ بعد العشاء ذهبنا معاً في سيارتي الفولكس واغن الى ستيريو في الروشة . وبسهولة شرب كأس من الويسكي في ذلك الظلام الأحمر المتفجر بضوضاء الاسطوانات المتلاحقة . وجدته أخاذاً ، ساحراً ، رضيت بأن ينحني علي ، بين الخلسة والجهر ، ويقبلني . لم أصدقه حين قال ان تلك هي اول مرة يفعل فيها شيئاً لا يستطيع ان يخبر به زوجته . «اول مرة ؟» «نعم . اول مرة . » ومن اين لي ان اعلم يومئذ ان زوجته على هذه الروعة من الجمال ؟ ولكنني صدقته فيما بعد . صدقت كل شيء يقوله لي . كنت اجده بريئاً ، على مرارته . يكتب الي رسائل قصيرة من بغداد ، يتجنب فيها ذكر العواطف ، الا انني كنت أحس بالعواطف تخفق وراء كلماته الحذرة . لم يعدني بشيء اطمئن اليه – فيما عدا زياراته القليلة الى بيروت .

يأتي ليومين او ثلاثة فلا يرى من الدنيا سواي ، وانا احار كيف أبقي علاقتي به سراً في مدينة اسرارها كلها مفضوحة . كيف وافقت على الرحلة في السفينة معه ، وهو مع زوجته ؟ راقت لي المفارقة ، السخرية ، ولم يرهبني تحدّي التناقض والاشكال . كنت أشعر بأنه يوماً ما سيتزوجني ووثقت من ذلك عندما أعلمني بانه في اوقات فراغه يدرس الايطالية ويحاول ان يقرأ بيراندلّو ! ولكن — اوه ، كم تمنيت لو انه أتى وحده ، لكنّا قضينا اجازة طويلة في المدن التي اعرف بعضها جيداً . فلورنسه ، ميلانو (مدينتي) ، والقرى الجميلة المنتشرة على ضفاف بحيرة كومو . بلاجيو . كنت احلم بزيارة الأوفيتزي برفقته ، وسان ماركو — الاديرة التي تضم تماثيل ميكيلانجلو ولوحات فراانجليكو . الاسرى المنبثقين من الحجر والقديسين والملائكة ، ورؤى الفراديس لراهب يتعبّد في صومعة كزنزانة ، يرسم على جدرانها العذراء والطفل واجواق السرافيم يترنمون ويهللون في سماوات فسيحة ، الوانها وردٌ وذهب . وفي ميلانو نذهب الى اللاسكالا لنشاهد اوبرا دونيزتي «لوتشيا لامرمور.» آه ادغاردو ، ادغاردو — تغني لوتشيا ، وقد جنّت ،

(E te amo ancor, Edgardo mio) وما زلت احبك، اجل، اقسم لك كنت دوماً احبك. (Ah ! non fuggire) رأفة بي ، آه لا تهرب ، ادغاردو ... وتطعن نفسها ... مَن غير الايطاليين يستطيع هذا الغناء الهائل ، الساحق ، المجنون ، الرائع . أنا بحر تسبح انت فيه كالسمكة ... اميليا ، في مغطسك الفائض ، في فندق الكيرينال ، في نابولي الصاخبة ، والطبيب الكئيب يرفض الحياة والماء وايطاليا السماوية والارضية ولوتشيا المنتحرة على ضفة النافورة المرمرية في قلعة آل لامرمور .

«أتريد ان اقتل نفسي من اجلك ؟» قلت فجأة ، وجلست في المغطس .

ولكن فالح لم يجب . «فالح ، ألا تسمع . أتريدني ان اقتل نفسي

من أجلك ؟ الا ترى الى اي حضيض انحططت من اجلك ؟ هل تعرف لمى بأمرك معي ؟»
– لمى ؟ ابداً .
– اذن سأخبرها هذا المساء .
انتفض كالملدوغ ، واستوى جالساً في الفراش وقال : «إياك ! سأقتلك والله ان اخبرتها .»
– ولكنك رأيتها بعينك .
– نعم ، رأيتها .
– ما الذي سنفعل اذن ؟
وكمن أفاق من غيبوبة ، نظر اليّ عبر باب الحمام المفتوح . «اميليا ما ابدعك ! »
– شكراً ، ولكن ما الذي سنفعل ؟ هل نبقى في السفينة على ما نحن عليه ، ونعود في النهاية الى بيروت وكأننا لا رحنا ولا جئنا ؟
– اعذريني . ارجوك ، اعذريني . قريباً سينتهي كل شيء . هيّا اسرعي . اخرجي من الماء ، ولننزل الى البار . انا عطشان . ألست عطشانة ؟
– أنا جوعانة .
– جوعانة ؟
– جداً.
عندما نهضت وخرجت من المغطس أقطر ماءً ، نزل من فراشه ، وتقدم مني . امسكت بالمنشفة الكبيرة استر بها بعض جسدي العاري ، فنظر اليّ وضحك ضحكة قصيرة . ثم ضحك مرة اخرى . فضحكت. ورحت انشف نفسي . «لماذا يروق لك ان تفزعني ؟ هه ؟» ودنوت منه ، وهو يتمعن فيّ كأنني صورة او تمثال – او اي شيء آخر ، سوى امرأة . ولكنني دنوت منه ، بشيء من الحقد ، وقذفت المنشفة حول رأسه ،

ثم سحبته نحوي بعنف . فوقع عليّ معرضاً ، راضياً ، ضاحكاً . امسكت به بين ذراعي وهما يلتمعان بقطرات من الماء وقلت له ، وفمي لصق فمه : «يا لعين ، انا جائعة . جائعة جداً .»

— انت انسانية . بشرية . تجوعين ككل البشر . ككل ما في الأرض

— وأنت ؟ الهي ؟

— انا لا أجوع . انما اعطش . انا في عطش لا آخر له .

— والحب ، ماذا تعتبره ؟ جوعاً ، ام عطشاً ؟

— مجرد غريزة . غريزة ممروضة أحياناً .

وعندها فزعت . فزعت جداً . كمن فجأة رأى شبحاً ، وهو لا يؤمن بالاشباح . تشبثت به من جديد ، والفزع يملؤني . وجدت نفسي اعانق جثة هامدة ، فرحت اغالط نفسي : لعلها ليست ميتة .. وأحسست ان ناراً كانت قد شبت بين جنبيّ للحظتين ، اندلق دلو من الماء عليها واطفأها . ولكنني تشبثت به . رغم كل شيء . تشبثت بالجثة العنيدة . وسمعتني أهمس ازاء شفتيه : «اني أعشق فيك حتى غريزتك الممروضة»

كان الباقي صمتاً . ببطء اخذت النار تسري في اوصالي من جديد ، وببطء احسست ان فالح اخذ يتقد ويشتعل على صدري . ثم جعلت شفتاه تلتهمان جسدي . بنهم . بضراوة . وشاربه يؤكد فعل شفتيه في كل عضو راعش فيّ . لم أقل كلمة واحدة . ولم يفه هو بكلمة . كان عذابه مندمجاً في النار العاتية التي وجدتني بعضاً منها ، ولهاثي يغور في صدره كلهاث ألف أمرأة فقدت العقل ولم يبق منها الا جسم يحترق .

بعد ذلك بحوالي ساعة نزلنا الى بار الفندق . ثم تغدينا في قاعة الطعام . وبعد الغداء سدّد فالح حساب الفندق ، معتذراً للمسؤول بان علينا ان نسافر مساء اليوم نفسه . (يا للمهانات التي استرخصتها من اجله .) كانت الساعة قد قاربت الرابعة . تمشينا في الطرقات ، وفي مفاصلي تعب طفيف لذيذ . دخلنا كاتدرائية سان جنارو ، وانضممنا الى جماعة من

السوّاح الالمان والامريكيين كانوا يصغون الى تعليق الادلاّء ويتمعنون في الجداريات والتماثيل . كان فالح كمن يمشي في نومه ، فأخشى ان اوقظه. ولكنه اوحى الي بانه قد صمم على امر ما ، بحيث ما عاد شيء مما مضى يهمه كثيراً . الغد هو كل شيء . حتى أني رجوته ألاّ يثير الامر مع زوجته عند عودتنا الى السفينة .

«طبعاً لا » ، قال ، كأن الامر مفروغ منه .

وسألته : «هل نكمل الرحلة ؟ »

ـ طبعاً ، الى نهايتها .

غير انني بقيت في قلق . لم أطمئن الى كلماته القليلة التي ان خلت من غضب ، فانها لم تخل من الكآبة . لقد ظل عشق ساعة ما بعد الظهر كنابض مشدود في صدري ، سيقذف بي الى حيث لا أعلم .

حوالي السابعة مساء عدنا الى المرفأ . ولكنني اقترحت عليه ان اتخلف في المدينة ، حفظاً للمظاهر (التي كان يرهقني بتمسكه بها) . نزلت من السيّارة في الطريق ، بينما توجه هو إلى السفينة . وأحسست بمعدتي تنشقّ عن جوع غريب . تحرّش بي بعض الفتية ، كعادتهم هنا كلما رأوا فتاة بمفردها ، ولكنني لم آبه لأحد . ذهبت الى مطعم ، وشربت كثيراً من النبيذ ، وحدي . وتناولت عدداً من المحارات اللذيذة على طبق مليء بالثلج المهشم ، واكلت بعدها قطعة «شاتوبريان» فاخرة ، مع المزيد من النبيذ الأحمر . ثم طلبت كوبا كبيراً من قهوة اسبرسو ، وتلفتّ حولي لأتأكد من انني في مكان يستحق كل هذه النقود التي أصرفها عن سعة . الحياة لا تساوي الا هذا . طعام جيد ، شراب جيد ، مدينة تغنّي ، ووحشة لا ينفع فيها الحب . الحب ؟ فلأخجل . شيء من الموت . شيء من الحياء . شيء من الشهوة . وعودة الى الامواج العربية في الروشة . ولكن هناك بقية الرحلة . رحلة الحياة واللاحياة . البقية الباقية . الى ما لا نهاية .

عندما عدت إلى السفينة في اول الليل ، كانوا يلعبون الورق . الدكتور فالح حسيب ، ووديع عساف ، وفرنندو غوميز ، وجاكلين دوران ، ومحمود الراشد ، وآخرون لا أذكرهم . لمى ، مثلي ، لم تلعب الورق قط . ولئن كانت هي تستطيع ان تجلس خلف المقامرين وتتابع الورق ، فانني كنت عاجزاً حتى عن ذلك . الورق ، بالنسبة إلي ، طلاسم لا أفهمها ولا تغريني بفهمها . بل أضيق بها ، واضيق باللاعبين كأنهم يأتون أمامي ، ما يخل بالذوق ، فلا أقوى على البقاء في المكان الذي هم فيه . محمود الراشد كان ابرعهم في اللعب واشدهم حماساً له . وقد بدا ، بعد اعتكافه ليومين او ثلاثة تحت ارشاد طبيب الباخرة ، كثير الكلام والمرح . على العكس من فالح ووديع . فقد كانا يلعبان وكأنهما يكرهان الورق ، ولكن الكراهية صامتة تتفرقع بين الحين والحين في كلمة هنا واخرى هناك .

تركت الصالون ، وخرجت إلى ظهر السفينة . ما عدت اعرف

كيف انظر إلى لمى ، كأنني اخشى ان يفتضح أمرنا من نظرة خاطفة او لفظة غير مقصودة . لقد عدت إلى السفينة وفيّ شعور بالفراغ ، بالفراغ المطلق ، كأنني كنت ممتلئاً ، فسُلبت وأُفرغت ولم يبق مني الا الجراب . ولما نزلت إلى قمرتي بانت كأن جدرانها تنهال علي من كل صوب وتسحقني ، وفيها تلك الرائحة النافذة التي يعرفها المسافرون بحراً ، والتي هي مزيج من الطلاء ، والديتول ، ومرارة الموج ، وأسن الميناء . ولكنني افتقدت رفيقي في القمرة ، شوكت ابو سمرا ، الذي كان لا يسهر الا فيها ، يقرأ بعض المجلات العربية التي جاء بكومة منها من بيروت ، ثم يغط في نوم هني أحسده عليه . انتهت سفرته في نابولي ، حيث كان عليه ان يتصل بشركات تجارية يتعامل معها . وقد غادر السفينة في الصباح ، وترك لي « مجمعاً » شامياً من الفواكه السكرية اللذيذة ، مع ورقة كتب فيها : « إلى الأخ السيد الفاضل عصام السلمان ، ذكرى سفرتنا معاً في صيف جميل ، ارجو ان يتقبلها مشكوراً من المخلص شوكت ابو سمرا . » لقد خجلت من نفسي . لم اكن هناك لاودعه . وهل تركت لي لمى مجالا للتفكير بأمر مثل ذاك ؟ « يتقبلها مشكوراً ... » بل شاكراً ايها العزيز شوكت ، اينما كنت . لم لم تترك عنوانك لأرد اليك جميلك ؟ « ذكرى سفرتنا معاً .. » معاً ؟ أجل ، في القمرة نفسها . اثناء ساعات النوم على الاكثر . لقد خجلت من نفسي . واخذت اجاصة من « المجمع ». ولما مضغتها خيل إلي ان فيها طعماً من شفتي لمى .

كان على السفينة ان تقضي في نابولي يوماً آخر . وكان بامكاني النزول ثانية إلى المدينة . ولكن بعد قضائي النهار فيها مع لمى ، أنّى لي العودة اليها بمفردي ؟ لقد بقيت الاماكن التي اردت زيارتها شهوة اخرى لم تتحقق . كنت اريد ان ارى مجدداً بضعة اماكن لم انسها منذ زيارتي السابقة ، ككنيسة سانسيفيرو التي تحوي تمثالا للمسيح المسجى

وراء نقاب يترقرق شفافاً على وجهه كموجة من المياه ، نحته في الرخام اعظم نحاتي المدينة في القرن الثامن عشر ، يوسف سانمارتينو .
فنابولي بالنسبة إلي ، رغم قدمها ، ، مدينة من خلق فناني ومهندسي القرن الثامن عشر . انها احدى خلاصات اسلوب « الباروك » الذي كان لي به ولع خاص ، ونظريات كتبت عنها دراسة مطولة ، ايام تلمذتي في « الجمعية المعمارية » في لندن . كنت اريد ان اشاهد « القصر الملكي » في كاسيرتا ، الذي هندسه لويجي فانفيتلي ، ذلك المهندس الذي بلغ بالباروك الايطالي اقصى درجات نضجه ، حتى قيل ان قصره الملكي هذا كان خاتمة رائعة ، وحزينة ، لفترة من الفن ملأت حواضر اوربا بالكنائس والقصور والتماثيل والجداريات الفسيحة ، العاجة بالبشر والخيل والحركة ، الناضحة بالنور والظلام المتصارعين حول البشر والآلهة على نحو كان سيطلق لسان وديع ولا ريب في دوافق من الألفاظ . ثم هناك متحف كابوديمنتو ، حيث توجد رسوم باولو بانيني ، واهم منها رسوم فرانشسكو سليمينا — « سَميّك يا عصام السلمان » قالت لي ضاحكة : عندما ذكرت اسمه لها . سليمينا ، ذلك الذي عاش نصف عمره المديد — ٩٠ سنة — في القرن السابع عشر ، والنصف الثاني في القرن الثامن عشر ، وطغى نفوذه الاسلوبي والفكري على فن نابولي لعشرات من السنين . لعله كان مثلي . فصوره فيها من العتمات والظلمات اكثر مما فيها من الاقباس والاضواء : النور بين جموعه المتراصة ، وحول مبانيه الشامخة ، بوارق خطرة . ولا انكر : كانت نزعته ارستقراطية ، فيما يبدو من مواضيعه . ولم لا ؟ فالطبقة البورجوازية في الجزء الجنوبي من ايطاليا كانت في ضمير الغيب آنئذ . كان الانسان اما من ذوي الأملاك الشاسعة ، أو من فقراء الفلاحين . فكان حتى الفقراء في رسوم اهل « الباروك » أقرب شبهاً بالمترفين ، تفوح من ثيابهم روائح

الارض ممزوجة بعبق الحب والعبث . وكلما انخفض المرء جنوباً ، اشتدت ارستقراطية الفقراء – إلى ان يبلغ نقطة حيث تفقد الكلمتان معناهما ، حيث يكون في الشرف والثأر والشموخ العائلي رمز كاسح طاغ على الحياة ، وكأننا قد عدنا إلى الأصول العربية القديمة لذلك كله ، بخشونة فطرتها وشدة شكيمتها . هكذا أنا ، في اقل من ثلاثين سنة من العمر ، وجدت نفسي أتدرج من طرف أقصى إلى طرف أقصى . في أي طرف اقصى كان عرب الاندلس في عصر زرياب ؟ وأين كان العرب في عهد الرشيد والمأمون ؟ هل في الحضارة من « وسط » ؟ حتى امرؤ القيس الجاهلي ، اذا لم يكن من خلق راوية خصب الخيال ، هل كان الا في احدى قمم الحضارة ، حيث النضج والعنف يتبادلان ويتكاملان ؟ شعره ، غزله ، ليله ، حصانه – كلها شواهد على قمة من نضج الحياة والحس والنزعة ، وعنفها جميعاً . فلأعد إلى فرانشسكو سليمينا . في الغد سأذهب ابحث عن رسومه العملاقة . سأحمل اليه أنفاساً من امرىء القيس ، وخواطر من بغداد : من امكانياتها التي لا تتباور نهائياً ولكنها في تفجر دائم ، رغم مآسيها . سأحمل اليه شيئاً من حبي النازف ، وجذوري العشائرية ، ونزعتي الفدياسية الحديثة . سأجابه عالمه المظلم الصاخب المتكامل ، بظلماتي الصاخبة اللامتكاملة . سأجابهه بهربي ، وأنا أحمل بين جنبي حصن الأخيضر من اطراف البادية إلى القلب من مدن الاسمنت والفولاذ .

وتناولت اجاصة اخرى من « مجمع » شوكت ابو سمرا ، لأتأكد من انني لم اخدع نفسي : أجل ان فيها شيئاً من مذاق شفتي لمى – سكر ، وشهوة ، وعطش . ترى ما الذي قالته لزوجها عند عودته من كابري ؟ انها الآن جالسة وراءه ، وفي يدها كتاب ، وكلها اطمئنان . أية اكذوبة أسهبت فيها لفالح ، فصدقها ؟ أم انها قالت له ببراءتها المخادعة : « والله ، ساحكي لك الصدق ، قضيت

اليوم مع عصام . تحدثنا عن ايام زمان . ولا داعي للقلق : لقد صنت عرضك . » فقبلها قبلة تحمل انسام مرتفعات كابري ، وأهداها أجراس سانتا لوتشيا ، وقال لها : « انت عظيمة . يلا إلى العشاء . ولكن لا تثخنيها مع المسكين . زين ؟ » فقالت : « زين . » وعدّلت رباط رقبته بانامله ، ثم دقت الاجراس الصغيرة واستضحكت لرنينها الحلو . وأخيراً ، وضعت اللمسات الأخيرة على خديها وشفتيها ، ومسحت خلف اذنيها بقطرتين من « نينا ريتشي » ، ثم اخذت يده في يدها واقتادته إلى قاعة الطعام وهي تقول : « هل وجدت لذة في الغداء اليوم ، بدوني ؟ » فادعى انه تناول غداءه برفقة وديع وجاكلين واميليا ، وتحدثا عنها طيلة ساعة الغداء .

اميليا . اين اميليا ؟ عدت إلى الصالون ، الذي امتلأ بالركاب العائدين من جولاتهم في المدينة . ولكنني لم أجد اميليا . وجماعتي منهمكون في البوكر ، وامامهم انواع النقد ، وليلى في مكانها نقرأ . رفعت رأسها في تلك اللحظة ، وأزجت إلي نظرة صارخة لم تدم اكثر من ثانيتين ، تحولت بعدها إلى فراغ قاس ، ثم اتجهت نحو كتابها . أملت في انها ستتبعني إلى الخارج ، ولكنها بقيت في مكانها لا تتحرك . وكدت اذهب اليها لاقول لها : « اما رأيت اميليا ؟ » غير انني أدرت ظهري وخرجت .

صعدت إلى اجزاء السفينة المختلفة ، أبحث عن اميليا . ذهبت إلى البار وأخذت كأساً مزدوجة من كونياك ريمي مارتان ، وجرعت منه جرعتين كبيرتين نزلتا إلى جوفي كدفقتين من نار . وكانت حوالي العاشرة ، او اكثر ، عندما تركت كأسي الفارغة ، وجعلت اتمشى على الظهر . واذا اميليا تخرج من الصالون . فذهبت اليها مباشرة ، وهتفت بها : « اين كنت ؟ » فقالت : « اين كنت انت ؟ »

— في نابولي .

ـ أعرف . لم تذهب إلى الجزيرة .
ـ كيف كان الكهف الازرق ؟
ـ اوه كما عهدته .
ـ هل ركزت همك في الطبيب ، ام في وديع ؟
ـ بدأت تغار ؟
ـ طبعاً .
ـ كم متحفاً زرت ، لوحدك ؟
ـ اتنزلين معي الآن ؟
ـ الآن ؟ إلى اين ؟
ـ نابولي كبيرة .
ـ هل جننت ؟
ـ يقولون حياتها الليلية ماجنة جداً .
ـ للرجال فقط .
ـ الا تحبين السير في المدن ليلا ؟
ـ أتتحداني ؟

اتقد وجهها ، وأضاء الليل كله . جميلة ، بحزن . انثى حقيقية : مزيج من امرأة وثعلبة . أمسكت بها من كتفيها اتمعن في عينيها اللوزيتين المسحوبتين نحو صدغيها ، فقالت : « ماذا ، أتريد أن تقبلني هنا ؟ » وفي انفاسها فوح من العطر والكحول . ارسلت ذراعيها حول عنقي ، وألقمتني شفتيها .

سرت بها نحو سلم السفينة ، وسلمنا ، كالعادة ، جوازي السفر للمسؤول ، واخذنا بطاقة النزول ، ونزلنا ، وحالما صادفتنا سيارة استقللناها . وطلبنا إلى السائق ان يأخذنا إلى احدى علب الليل . وراح السائق يسوق في شوارع المدينة ، يطيل الطريق ما استطاع كغيره ، من السواق ، واميليا تتقطع شفتاها على شفتي . لا ، لم تكن كما عهدتها طوال

تلك الايام كلها ، رغم ما بيننا من ود كثير : انها تشتعل رغبة ، ولكنها رغبة تخلو من المرح . وأحسست مرة ان في عينيها دموعاً كبيرة لمستها باصبعي وهي تنزلق على خديها .

أأحزان اخرى ؟ كنت على شيء من السأم من احزان البشرية . ما الذي بوسعها ان تقوله لي ، مما لم اعرف انا آلم منه وأحزن ؟ ولكنني لم اتمالك من تعاطف ما معها . ما الذي كانت تبغيه من الحياة هذه المرأة الجميلة ، التي إن تكن قد وجدت لها مستقراً في بلادنا ، فانه استقرار لم يهبها طمأنينة تتعدى خداع النفس ؟

في الملهى ، كانت الراقصات يرفعن سيقانهن ويهززن اعطافهن ، وتتعرى الواحدة تلو الاخرى على ايقاع الطبل والغيتار ، عندما باغتتني اسيليا بسؤالها : « ما الذي ستفعلان ، انت ولمى ؟ »

فأجبت باقصى ما استطعت من تجاهل : « ماذا تقصدين ، أنا ولمى ؟ »

– ألا تعتقد ان الامر واضح عليكما وضوح الشمس ؟

– اميليا ، ارجوك ، هذا كلام خطر .

– ألم تلحظ علي انا شيئاً .. غريباً ؟

– مرحك الدائم ؟ مغازلاتك العابرة ؟

– تعلقي بفالح ، مثلا ؟

– مجرد شبهة . كلما اسرفنا في الشراب ، أنا وانت ، كلما توغلنا في الاوهام اكثر .

– أوهام ؟ هل صدقت أنني ذهبت اليوم إلى كابري ؟ او فالح ؟

كان السكر بادياً على اميليا ، وخشيت عليها من تهويل امور ستبدو في الصباح التالي من توافه الرحلات . غير انها استرسلت في القول . « لم تنزل لمى إلى الزورق ، فاغتنمنا انا والطبيب الفرصة ، وغادرنا الزورق وذهبنا إلى المدينة . لعلك لا تدري ان فالح في حالة نفسية

رهيبة . انه يعاني من كآبة ، من سوداوية قلما نلقاها الا في اناس على شفا الجنون . وعندما يكون المرء على ذكاء كذكاء فالح وعلى ثقافة كثقافته ، تصبح القضية خطيرة جداً . »

– اميليا ، ارجو الا يكون الطبيب قد حاول التأثير عليك كما يفعل بعض الرجال .. محاولة منه أن ...

– لا تكن سخيفاً . انت أدرى به مني . هل تدري ان صداقتنا قديمة ؟

– ماذا !

– وأننا اتفقنا سراً على القيام بهذه الرحلة ، رغم مرافقة زوجته له ؟

ضربت بكفي على جبيني دهشة . انها تكذب ! مستحيل ! أم انها – وفيم الكذب ؟ الم تفعل لمى الشيء نفسه ، بالضبط ؟ ترى هل تعلم لمى شيئاً عن ذلك ؟ وهل يعلم فالح بان لمى وقّتت السفرة ، وعينت السفينة ، وفق ما اخترت انا من وقت وسفينة ؟ ما الذي كان يعرفه كل واحد عن خطط الآخر ؟

لقد حذرت من ان أفصح عن تساؤلاتي لئلا تعرف اميليا من أمري بعض ما لا اريد ان تعرفه . حدس المرأة قد يصدق ، ولكنه يبقى حدساً هي في شك منه ما دامت هي لا تعرف الوقائع التي تثبته بالفعل .

قلت : «وهل تعرف لمى شيئاً عن هذا ؟»

– طبعاً ، لا .

– ولكن ، ما الفائدة يا اميليا ؟ الطبيب يقيم في بغداد ، وانت في بيروت ...

– وما فائدة علاقتك أنت بلمى ؟ هي متزوجة ، وانت ...

– أرجوك ليس بيني وبين لمى الا صداقة قديمة تعود الى أيام الدراسة . ثم نحن أقرباء ، من نفس العشيرة . لا اكثر ولا أقل .

فقهقهت أميليا : «مسكين ، عصام . تخشى الاعتراف .»

فكذبت باصرار : «لا اعتراف هناك لأخشاه .»

– طيب ، طيب . أما انا فقد اعترفت . ومن حقك أن تسأل ما الفائدة . عبث في عبث . عبث قاتل .

– والغريب هو أنني ظننت انك تحبينني ولو قليلاً .

– وظننت أنا ايضاً أنك تحبني ، ولو قليلاً .

– والحقيقة ؟

– أتمتع بحديثك ، بغزلك ، بوجودك لصق جسدي .

فأمسكت بيدها ، وقلت :«وأنا كذلك .» غير ان يدها كانت باردة ، ترتعش . ولم استطع أن اصرفها عن الموضوع .

– أحب فالح . يعذبني ، وأحبه . أحيا من اجل الايام القليلة التي يأتيني فيها بهمومه من بغداد .

– كيف ترضين منه باقتراح سفرة كهذه ؟ ما رأيته يعيرك اهتماماً يذكر . لئلا ينكشف الامر للمى ؟ صحيح ، ولكن ... لكل أمر حدود .

– قضينا النهار معاً .

– ها ها ! رائع !

– كما قضيته أنت مع لمى . ها ها !

– وبعد ذلك ؟

– لا شيء . نعود انا وانت الى قواعدنا . قل لي : أتراني جميلة ؟ مشتهاة ؟

نظرت اليها ، ولم أجب . لم يكن ثمة ما يمكن ان يقال ، إضافة إلى «نعم» الا المزيد من الكذب . كان العازفون على الغيتارات يغنون ، بحدة وانطلاق واغراء ، يتلوون وهم ينشجون ويحشرجون ويزعقون .

– أترقصين ؟

– نعم .

انخرطنا في حشد الراقصين ، وضوضاء الموسيقى تصم الاذان .

لم تبق حاجة للكلام .

كانت قبيل الثانية صباحاً عندما عدنا الى السفينة . لم يكن على ظهرها أحد . وافترقنا عند الصالون ، لتذهب هي الى قمرتها . أما انا فالقيت نظرة على الغرفة الفسيحة المضاءة ، وقد خلت من كل انسان . وعلى مائدة القمار منافض مبعثرة مليئة باقماع السكاير .

وسرت الى الرواق ، متجهاً نحو قمرتي .

من العبث ان اقول ان الصوت الوحيد الذي كان يدوي في رأسي طوال تلك الساعات كلها كان صوت لمى . من العبث ان اقول انني ما قبّلت اميليا الا وانا اتصور لمى بين ذراعي . من العبث ان اقول انني ما سرت في الرواق ، وانا متعب ، سئم ، مضطرب ، الا وكلي توق الى ان ارى لمى واقفة ببابها في انتظاري . كنت أخبط في الفراغ الذي يعقب التفجّر ، بالقرف الذي يتلو الخيبة ، بالغصة التي هي أخت غصة الموت .

فلما سمعت «عصام !» تُهمس من الخلف ، حسبتني أتوهم . توقفت لحظة ، ولكنني لم استدر للهمس . ثم ألمّت بعنقي وجعة كضربة الخنجر . واستدرت . ورأيت لمى عند باب قمرتها . رأيتها تسير في الرواق نحو الخارج . ورحت في اثرها ، وبي رجفة . وعاودني الاحساس اللعين بالعطش .

«أخرجت مع تلك الايطالية ؟» كان أول ما جابهتني به .

— الم تنامي ؟ أراك في ثياب النهار .

وهمست بما يشبه الزعقة المكتومة : «كيف ، كيف تستطيع؟ اوه ، انت ايضاً مخمور . ذهبت الى المدينة لتشرب مع تلك السخيفة .»

— وما الذي يمكن ان تتوقعيه مني ، وقد تركتني معلّقاً في الهواء ؟

— على الأقل ألاّ تعرض خيانتك امام عيني . يجب ان اعود الى القمرة .

— أتفضلين ان أحثك انت على الخيانة ؟

دنت مني ، وبانت كأنها ترفع يدها عليّ . غير انها حوّلت اصابعها بغتة الى حنجرتي . «اود لو أخنقك !» وضغطت على حنجرتي بقسوة .

فقلت : «اخنقيني !» وهويت على فمها في قبلة طويلة ، ثملة ، هوجاء .

أرخت اصابعها عن حنجرتي ، واستحالت صلابتها الى تلك الطراوة الهشة التي تتكسر لذيذة على الصدر . وراحت تعضعض شفتيّ : رفقاً ، رفقاً ، ثم غرزت اسنانها في شفتي السفلى ، وضغطت ، وضغطت بعنف ثم أرختها لأحس لسانها ، وعادت وضغطت لأحسّ اسنانها تنغرز في شفتي ، الى ان صحت من الألم وانتزعت نفسي من بين ذراعيها . «آخ !» وتحسست شفتي بيدي . واذا الدم يقطر منها .

الا ان لمى وقعت بين ذراعيّ مرة اخرى . فتناولت شفتيها بفمي الدامي ، وهي تلهث وتئن . ثم انسلّت من بين ذراعيّ انسلال القطة ، دون ان تقول شيئاً ، وانصرفت مسرعة ، كأنها تريد العودة الى قمرتها .

وقفت مكاني ، أتحسس شفتي بلساني ، بيدي ، وانظر اليها وهي تبتعد . واذا بها تتوقف ، ثم تسرع راجعة اليّ .

وهمست : «انتظرني ، هه ؟ سأعود بعد دقيقتين .» وقبل ان اجيبها انصرفت عني راكضة . وانتظرت .

لم يطل انتظاري . ما كدت اشعل سيكارة وادخن شيئاً منها حتى كانت قد عادت ، وقد لبست معطفاً خفيفاً ، مع ان الليل لم يكن قد برد كثيراً . وقالت : «نومه في اول الليل ثقيل .»

— اذن نحن ما زلنا في اول الليل ؟

— لا تكن سخيفاً . لن يطلع الفجر قبل ساعتين أخريين .

أخذتها من ذراعها الى حيث كانت آلة رافعة ضخمة تبدو بدواليبها وحبالها اشبه بوحش عملاق استسلم للنوم . كل ما حولنا بواخر وزوارق

صامتة ، تبصبص منها انوار قاصرة ترتعش وتتغامز انعكاساتها في المياه السوداء . احتويتها بين ذراعي وقلت : «ما زالت شفتي دامية .»

— هاتها . انتظرتك زهاء ساعتين .

— لم يبق الآن الجنون ، يا لمى .

— وساعتان . ساعتان ، وتعود الحياة الى عقلها ، وسقمها ، من جديد .

وعندها جررت بها عودة ، وقلت : «اسمعي . قمرتي الليلة خالية .»

تلكأت . «قمرتك ! »

— نعم . ليس بينكما وبيني الا جدار رقيق . ولكن شوكت ابو سمرا غادرالسفينة . ولا يبعد ان يأتيني غداً مسافر جديد .

— ولكن ، عصام ، كيف ...

بدأنا نحث الخطى ، كأن الصبح قد يسبقنا الى خلوتنا ، او كأن الليل قد يغدر بنا فينشق عن الفجر قبل أوانه .

بصمت تبعتني لمى ، ويدها بيدي ، الى باب قمرتي . ودخلنا دخول اللصوص الى ظلمة لا يضيئها الا قبس يتسلل من الكوّة المستديرة .

وقفت لمى في وسط الغرفة الصغيرة المزدحمة ، وقد سقط ذراعاها الى جنبيها بلا حياة ، وعلى وجهها الساقط على صدرها أثر من اضواء الميناء لا يكفي لابراز معالمه ، ومكان عينيها فجوتان من ظلام .

«هل انت لمى ، حقاً ؟»

تمتمت : «هذه هي الحماقة الأخيرة .»

ساعدتها في خلع معطفها والقيت به على الفراش الضيق . ثم قالت : «أتدري لماذا يشرب باستمرار ؟»

لوهلة ، لم ادرك من هو الذي تشير اليه .

— من ؟

— فالح . انه يشرب لانه يخشى الخلوة معي . ولا يختلي بي الآن

عندما يكون قد قارب الاغماء من السكر .

– كل ليلة ؟

– كل ليلة . كل ليلة . هذا الجراح المشهور .

– لننس ذلك الآن .

– لننس ذلك ؟ وهو على الجانب الآخر من الجدار ، اشبه بالميت ؟

– لو لم تنتظريني لمتّ انا ايضاً .

– من رغبة ، من شبق .. عصام ، لك ان تضحك . لقد انتصرت . ولكن ، عصام ، ارجوك ، انقذني . اخرجني الآن ، والحماقة لم تتمّ بعد .

– أنا اكبر الحمقى . وعنقك هذا الشهيّ ، حديث الناس كلهم في السفينة ، كيف أخلي سبيله ؟

راح فمي ينهش ذلك العنق العطر ، وينهش ما حوله من جسد محروم . أنّى لي ان أدري انه كان تلك السنوات كلها في عطش كعطشي يتحرّق مثلي الى تلك الحماقة اللذيذة الأخيرة ؟ وهل كان لتبتل له جارحة أو يروى له عضو ، في ساعتين بخيلتين من ليل تركض به الخيول نحو الشمس – في بلد غريب ، في بحر لا ينتفض الا بالغرباء ؟

قالت : «لن تبقى لك شفتان للغد تقبّل بهما احداً ، او تتحدث بهما اليه ..»

غير ان وراء كل حماقة ، مهما شطت في بعدها ، حماقة أخرى أبعد منها . هل سمع من في الناحية الأخرى من الجدار ، ونحن نتهاوى من على الفراش المفرد الضيق الى الأرض الخشبية ، شيئاً لم يكن يسمعه في الليالي السابقة ؟ كيف لو خطر له ان ينهض ، ليخرج الى ظهر السفينة مبكّراً ، مؤملا أن يرى البحارة وهم يغسلون قيعانها ، فرأى ان الفراش الآخر لم يُمَسّ ؟

أخيراً ، خرجت لمى بحذر ، واغلقت الباب وراءها .

كنت قد استلقيت على فراشي ، ولعلني كنت قد بدأت أغفو ، حين اندفعت لمى من الباب ثانية ، وفي حلقها صرخة مختنقة ، قائلة :

«عصام ! تعال ، حالاً ! »

— ماذا ؟

— حالا ! ارجوك !

كان صوتها نشيجاً . تصورت ان فالح في انتظارها ، وقد عرف كل شيء . فنهضت ، ولبست الروب بسرعة ولحقت بها — الى قمرتها . كان الضوء باهراً يؤذي العين .

وعلى الفراش ، تحت الغطاء ، كان فالح : ممدّداً ، مكشوف الوجه والذراعين .

مسجّى ، كالمسيح الذي لم يتح لي أن أراه في اليوم السابق . عيناه مفتوحتان ، رهيبتان . كرتان من زجاج . ولونه في لون الشمع الاصفر ، ممتقعاً بزرقة . شفتاه مطبقتان ، عليهما ابتسامة مخيفة ، شامتة . واصابعه تشدّ ثقيلة على الشرشف الذي يكسوه .

انهارت لمى على الكرسي الوحيد الذي في القمرة ، وصاحت صيحة راعبة وهي تدفن وجهها بيديها : «حسبته نائماً ! منذ منتصف الليل ! »

لم تستطع لمى ، وهي في حالها تلك من الفجيعة والفزع ، أن تعرف في أية ساعة من تلك الليلة انتحر فالح . قبل الثانية ام بعدها ؟ على الارجح قبلها ، بعد ان فرغوا من لعب الورق ، وآوى كل الى فراشه عند منتصف الليل . كانت لمى قد أخبرته عندئذ انها لا تستطيع النوم وأنها ستذهب الى المكتبة لتقرأ ، لئلا تقلق راحته . ولم يعترض لأنه ، كما تبين كان قد حزم أمره وأعدّ نفسه أخيراً لما كان يتهيأ له منذ زمان . وقد

ترك على المائدة الصغيرة دلائل انتحاره بدقة الجرّاح الذي يستعد للعمليّة الّتي سيجريها : رسالة قصيرة بالعربية الى «زوجتي لمى» ورسالة اخرى بالانكليزية معنونة الى «ربان السفينة هركيوليز». وكلتاهما مفتوحتان، وقد قرأتهما . لزوجته كتب : «إقرأي الاوراق الّتي تجدينها في الاضبارة الصغيرة . وداعاً ، يا جميلتي . لا تقسي عليّ ، واغفري لي ، كما غفرت لك .» أما لربان السفينة فقد كتب ما معناه أنه يأخذ حياته بيده لأنه كان مصمماً على ذلك منذ امد بعيد . ووقّع الرسالة بالانكليزية والعربية ، ذاكراً اسمه والقابه العلمية بوضوح . والى جانب ذلك أنبوبة صغيرة فارغة ، انبوبة حبات الانتحار .

وكانت هناك ايضاً رسالة مغلقة ، معنونة بالانكليزية هكذا : «السيدة اميليا فارنيزي أسعد ، احدى ركاب السفينة هركيوليز .»

ما ان ابصرت لمى تلك الرسالة حتّى كاد يغمى عليها من جديد . انعقد لسانها ، وسقط فكها ، وحملتها الى الكرسي ثانية ، لئلا تقع على الارض . وفي النهاية ، نزّت الالفاظ من بين شفتيها الشاحبتين . «اذن كانت بينهما علاقة ..» ولم اقل شيئاً .

كان الفجر قد طلع ، وبدت السماء من خلال النافذة المستديرة كرقعة زرقاء تلمع ببرود . وجعلنا نسمع اصوات الملاحين في حركتهم المتزايدة على الظهر .

«لنترك كل شيء على ما هو ، ونبلغ الربان .» قلت ذلك وأنا اشعر ان رأسي على كتفي ثقيل ، صلد كالحجر لا يسعفني بأي تفكير . كان فمي في جفاف الرمل ، وبعد ذهلتي الاولى ، أصابتني رجفة في بدني لم استطع وقفها لبضع دقائق . جلست على الفراش الثاني كالابله ، استعيد صفاء ذهني . هل لي اية علاقة بانتحار فالح ؟ هل تحقق ... هل خلّف في الاضبارة شاهداً عليّ ؟ نهضنا كلانا ، وأخذت لمى رسالتها وقرأتها ثانية . «الاضبارة الصغيرة ؟ انه يحفظ فيها اوراقه الخصوصية ، ودفتراً

للوصفات . وهو منذ زمن يكتب دراسة طويلة عن الاورام .» كانت الاضبارة ايضاً على المائدة . فتحتها لمى بحذر وتردد ، كأنها تفتح كورة زنابير . وما كادت تقرأ بضعة أسطر من الورقة الاولى ، حتى صاحت :

«لا ، لا ، لا استطيع . هاك ، عصام . اقرأها .»

– انا ؟

– نعم ، أرجوك .

– ولكنها شخصية جداً ، لا شك .

– ومن غيرك سيقرأها ، ان لم تقرأها انت ؟ لعلها تهمك بقدر ما تهمني .

– اليس من الافضل ان نبلّغ الأمر للمسؤولين اولا ؟

– قبل ان نعرف شيئاً يستحق الذكر ؟

كانت رائحة الموت تملأ الحجرة الصغيرة . ووجه فالح ، حتى بعد اغلاق عينيه ، ينضح سخرية ماحقة ، توحي اليّ بأنه يضحك منا على مهل اذ أوقعنا في فخ صنعه بمأساته وحقده . أخذت الاوراق من يد لمى وأنا أعلم انني لن افقه منها كثيراً . كانت الاوراق مكتوبة بخط واضح بعكس ما عرف عن رداءة الخط لدى الاطباء . ولم تكن كثيرة ، كأنها مجتزأة من مجموعة أكبر . كانت بعض الاسطر مشطوبة ، تنمّ عن انه ، على كل صراحته ، تقصد طمس بعض التفاصيل. وكانت هناك صفحة كتبت بالانكليزية . مذكرات منتحر . وثيقة سوداء ، لم يكن يكتبها الا طبيب له حساسية فالح وذكاؤه – وبؤسه . وثيقة يجعل لها موت صاحبها بيده وزناً خاصاً ، وحجة من العبث محاولة دحضها ، أو مناقشتها .

شيء آخر لفت نظري . حتى في لحظاتي العمياء تلك . كانت الاوراق ، اوراق وصفات ، يعلو كلا منها اسم الطبيب بالعربية والانكليزية ورقم تلفونه . وقرب كلمة «التاريخ ...» كان التاريخ قد كتب ، ثم شطبه الطبيب ، **لسبب ما** ، بحيث تستحيل قراءته ، فيتعذر

ايجاد السياق الزمني في تفكيره . غير ان القرائن كانت كثيرة ، تدلّل على ما سجّله قبل ركوبه السفينة ، وما سجّله في ايام السفرة القلائل .

وهذا ما جاء في اضبارة الدكتور فالح عبد الواحد حسيب :
(ثلاثة اسطر مشطوبة بكثافة ، لا يمكن قراءتها . ثم :)
كالتوق الى خمر لم تجرّب من قبل ، في بلد ازوره أول مرة .

كانت الامطار في بيروت هائلة . كأنما البحر قد فاض على المدينة ، أو أن الجبل راح يقذف المدينة ببحار من عنده . والاصوات ... اصوات المطر والرعود والرياح – لغة مدهشة جديدة تعلّمتها بين ضحى وعشية . وذلك التوق الهائل . جوفي التهب به ، فقلت : أهذا أنا ؟ تتعرى ولا تخشى البرد . الدنيا في هدير وخبط وزمزمة . وأنا اتفحّص العين ، او الشفة ، أو النهد ، كأنما اتفحص تحفة سآخذها معي الى حيث اخفيها ، غيرة ، عن كل عين .

كانت الامطار هائلة ، وأنا اغترب مع مجهول يبعدني عن نفسي ، ويوغل بي في غابات وكهوف تولول الشلالات فيها وتسطع الحجارة كالاسماك الذهبية – الى سواحل شمس مظلمة ، وتعاريج أجمع من بينها نثار أقمارٍ أعود بها الى بغداد ، غنياً ، عودة السندباد .

شمس مظلمة ؟ لم قلت مظلمة ؟

أم لا أكون –

وكيف يمكن ذلك ؟ بل هو ممكن واكثر ، فيما الغبار يلفّ المدينة بالسعال . والمطر يتلو الغبار ثقيلاً شرساً ، طينا يهبط على طين من بشر .

حقد مجرد لا تحدد له هوية ، أو مأرب .

أأكون –

أممكن ذلك ؟ نعم ، واكثر . حين تنفجر الشمس كقنبلة هائلة في وسط السماء ، وتنقذف شظاياها بين الغيوم ، وتتساقط على المدينة من الافق الى الافق ، لتملأ الحدائق والطرقات والاكواخ ، وتشعل الالوان لهباً في الناس والاشجار والحيوانات .

أم لا أكون –

لمى ، أميليا ، أبو الخصيب ، بيروت ، برمانا .

اجريت اليوم عملية فاشلة على فتاة في السابعة عشرة . ماتت . أمس اجريت عملية على رجل تخطى السبعين . عاش . سيعيش .

الغبار يلفّ المدينة . المرضى في المستشفى يملأون الردهات ، والأروقة . وعندما دخلت عيادتي هذا المساء ، تعثّرت بامرأة ملقاة خلف الباب ، تئن .

ذكرت عندئذ القتلى ، والروائح ، قبل اربع سنوات .

Are not fearful poisons set up in the soul by a swift concentration of all her energies, her enjoyments, or ideas; as modern chemistry, in its caprice, repeats the action of creation by some gas or other? Do not many men perish under the shock of the sudden expansion of some moral acid within them?

Balzac ("The Wild Ass's Skin")

ترجمة النص الانكليزي : ألا تنشأ سموم رهيبة في النفس بفعل التركيز السريع لطاقاتها ولذاذاتها وأفكارها ، كما تفعل الكيمياء الحديثة ، في نزوة منها ، اذ تعيد عملية الخلق بفعل غاز ما ؟ ألا يهلك الكثير من الناس من صدمة التمدد الفجائي الذي يحدثه حامض خلقي ما في داخلهم ؟

بلزاك («جلد حمار الوحش»)

الحياة والموت . لعلها مهنة الطبيب ، الجراح على الأخص . التدخل بشؤون الطبيعة ، بشؤون الله . ولكن المفروض ان الله لا يحب أذى الانسان ، اذن فهي الطبيعة ، وما فيها من قوى شيطانية تتربص بالانسان . عملية منطقية ، بالنسبة الى الطبيب . ان تقص مصراناً أعور ؛ أو ترفع رحماً خنقته الألياف ، او تبتر جزءاً من معدة مقروحة . ١+١ = ٢ ، المهم ان تجد الواحد ، وان تعرف كيف تضيف اليه واحداً آخر ، لتحصل على اثنين . الحياة والموت . ١+١ . طبعاً اضافة الواحد الى الواحد قد يتخللها صفر من حيث لا تدري ، فتختل المعادلة من اساسها . الاصفار ، هذه اللاأشياء : هي القوة المظلمة . هي الجرثومة، الفيروس. الشيطان . يأتيك من حيث لا تدري . الحياة والموت والشيطان . تحياتي لكهنة سومروطيبة ! يعالجون المريض بطرد ما ابتلاه من عفاريت وجن . الأصفار ، اللاأشياء ، الجن . نكسب منها رزقنا . نبحث بواسطتها ومن خلالها عن الحبّ ،والروح ، ومشاعر الماوراء . عمليّي المنطقية التي انقذت بها ألف عليل من الألم والموت ، عجزت عن انقاذي أنا . ابتلتني الأصفار . بحثت عن حبّ وما وجدت حبّاً . أميليا . حلم ليلة في منتصف صيف لبناني ، عبث بها ماجن خبيث وهي نائمة وقطر عصارة الوهم في اذنيها ، فرأتني ، حال استيقاظها ، جذاباً ، الهاً اغريقياً يتحدى انوثتها الايطالية — الهاً اغريقياً من ضفاف دجلة العرب ، من اطراف البادية . والبادية أم الاوهام كلها ، قوانينها تعبث بها الاصفار يمنة ويسرة . على مشارف بغداد بقايا زاقورة تبدو من بعيد اكبر مما تبدو من قريب . في الحضر ، بين خرائب الأعاريب الاوائل ، نظرت الى فتى يتسلق جداراً مهدّماً على مسافة كبرى مني ، واذا هو في وضوح فتى مضخّم على شاشة سينما سكوبية . ولما نزل عن الجدار وسار باتجاهي تضاءل حتى ما كاد يبين . هكذا اميليا : تراني عن بعد اكبر واضخم واوضح مما تراني عن قريب . وهكذا اراها ربما . يا موزع اللذات

الغاشم ، لماذا كتب عليّ ان اركب الاسفار واجابه البحار لاشعر بخلجات القلب ، برعشات الجنس ؟ لمى ، لماذا تزوجتني ، فاقتربت مني اكثر مما ينبغي ، حتى عدت لا أكاد اراك ؟

من عادة كافكا في مذكراته ان يصف تجربة ما ، ثم يعود فيصفها على نحو آخر ، ثم يكرر الوصف على نحو ثالث ، ويستمر في ذلك احياناً لأربع أو خمس مرات . لعله يحاول كل مرة أن يوجد لتجربته الوصف الافضل ، الذي يعتقد انه لن يحققه بمحاولة واحدة ، فيكررها . ولكنه يبدأ كل مرة على نحو جديد ، وما يسهبه من تفصيل في المحاولة الواحدة يوجزه في المحاولة الاخرى ، مسهباً في ناحية اخرى . وهكذا . وبذلك ، تصبح المحاولة الواحدة لا تغني عن الأخريات ، بل تكملها . كأنما المرء ينظر الى شيء ضخم ويدور حوله ، فيرى من كل ناحية بعض ما رآه في المرة السابقة ، والكثير مما لم يره . هذا أقرب ما يمكن ان تكون الكلمات والافكار عليه من الكلايدوسكوب . تديره كل مرة ، فتخلق كل مرة شكلا جديداً . او حقيقة جديدة ؟ العناصر هي نفسها ، ولكن نسبها وعلاقاتها تتبدل . وتتغير الحقيقة تبعاً لذلك التبدل . كم وجهاً للحقيقة اذن ؟ كم وجهاً لكل تجربة من تجاربي ؟ هؤلاء الذين أراهم كل يوم ، هؤلاء الذين أعاشرهم ، وأحبهم ، وأبغضهم ، وأهملهم ، وأوثر في حياتهم ، وأرفضهم ، واجهلهم ، الخ . الخ . كم مرة استطيع ان اجعل من كل علاقة لي بهم نمطاً جديداً من انماط الحقيقة ، وأيها سيكون «الاحق» ، الأصوب ، الاصدق ؟

الى ل

ما أصعب عليّ ان اكتب . خصوصاً ما يتعلق بنفسي لا بالآخرين . مهنتي دربتني على الاهتمام بالآخرين ، بالانفس والاجسام الاخرى ، ولم تعلـمني كيف أطبق الطريقة على نفسي . استطيع ان انصح المراجعين في العيادة ، واكتب لهم الوصفة والعلاج ، وأهيئ نفسي للعمليات الجراحية بذهن صاف كأنني نجار أصلح كرسياً ، او ميكانيكي يستبدل في السيارة قطعة باخرى. أما اذا جابهت نفسي ، فانني لا استطيع أن أفكـر بوضوح . ولا ان اكتب وصفة لما فيّ من خلل أو داء . ما اصعب ان اكتب اليك وانا شاعر بهذا العجز . فاغفري لي هذه الاسطر المضطربة التي قد ترينها او لا ترينها (أخشى انني في النهاية قد امزقها) . اخشى حكمك عليّ ، لانني احببتك ، صحيح انني احببتك حباً هو اقرب الى العجز . ولكنه حبّ شغلني ، ومتّعني ، وفي بعض الأحايين عذبني .

رسائل المنتحرين صادقة في الاغلب ، ولكنها قد تكون صادقة اكثر مما ينبغي ، كأن المرء يرى شيئاً دقيقاً جداً تحت عدسة المجهر . فيرى كل شيء مضخماً ، متحركاً ، متلولباً . الرؤية صادقة ولكنها مكبرة مليون مرة . ولكن هل هي «حقيقية» حين تفقد صلاتها النسبية بالواقع ؟ رسائل المنتحرين اذن لعلها ايضاً «كاذبة» : تضخيم للدقائق التي ، اذا ما ضخـمت اضطربت دلالاتها ، لانها معزولة عن مئات الدقائق والكبائر الأخرى .

تعلمين كيف كنت أرفض قراءة الجرائد، وسماع الراديو، ورؤية التلفزيون . لا لأنني كنت أقطع الصلة بالوقائع التي حولي ، بل لأنني كنت اريد التركيز على تجربتي الشخصية للأمور ، للعلاقات الانسانية .

التركيز على رأيي أنا ، التركيز على كلمات الكتب المدروسة التي تعنى بالديمومة ، لا على الكلمات اليومية التي تتهافت على كل شيء آني تهافت الذباب على القاذورات . أردت ان أبقى نقياً ، نظيفاً ، لأنني كنت ارتعد كلما رأيت المستر هايد يريد ان يبرز ثناياه الوحشية من خلال وجه الدكتور جيكل . أنت ، لمى ، الفيلسوفة ، كنت وحدة تامة . جمال وجهك وجسمك منسجم مع جمال تفكيرك . كنت أطلب فيك ملجأ لتوزعي وانشطاري . ولكنني انخذلت فيك . كنت جداراً عجزت عن اختراقه .

هل غطّيت بالسكر على عجزي ، فوقعت في حلقة مفرغة ، كلما زاد عجزي زاد سكري ، وكلما زاد سكري زاد عجزي ؟ ربما . ولكنني اود ألا اربط بين الاثنين . ميلي الى الكحول لا صلة له بالعجز ، وإن يحقق لي مخدراً ينسيني الكثير مما أريد نسيانه . ميلي الى الكحول جزء من ميلي العميق الصامت الى النيل من نفسي ، الى تجريح ذاتي . تصوري شعوري يوم اكتشفت أن جدّي مات في اسطنبول مجنوناً . مات في دار للمجانين . مات وهو مغلول اليدين ، لانه كان أصبح خطراً على نفسه والآخرين . الم يكن لي الحق في ان استرسل في الشراب؟ ولكنني كنت سأفعل ذلك حتى لو اكتشفت ان جدي قد فتح في شبابه جورجيا وداغستان ... ترك لنا مكتبة من المخطوطات العربية والتركية القديمة . صور المتحف البريطاني بعضاً منها ، وحاول الكثيرون شراءها . كان أبي يتباهى بها ، عن حق . أما أنا فقد آثرت جراحتي . وكلما انتهيت من عملية ، اسرعت الى البيت ، لأشرب . ألا تعتقدين أن يدي أثبت من يد أي فنان لم تعرف شفتاه طعم الويسكي او العرق ؟

لم اكن متحمساً للذهاب الى المؤتمر الطبي في بيروت ، ولكنني ذهبت . وانفتحت مصاريع الكون للرياح الاربع .

في الاجتماع الاول التقيت بكثيرين من الاطباء ، نسيت اسماء معظمهم. كان من بينهم طبيبة شابة. التقيت بها في كل اجتماع. وفي حفلة عشاء اقيمت في فندق سان جورج عرّفتني على صديقة لها – اميليا. كانت مبعث اغراء شديد . غير ان التي أضعفت مقاومتي اول الامر هي الطبيبة الشابة – بلهجتها اللبنانية التي تذكرني باغاني الجبل ، بامتلاء جسدها الغض ويديها الصغيرتين – وهي تناقش في قضايا الطب بحرارة وذكاء لا يتوقعهما السامع من فتاة جميلة. ولكن منزلقي كان حفلة العشاء، واميليا. كلمة واحدة كانت كافية . هذه امرأة اريدها – قلت لنفسي – عبارة لم أقلها منذ سنين . وقد فعلنا ما لا يليق فعله في مآدب كتلك . انسحبنا انا واميليا دون ان نودّع احداً – قالت اميليا انها ستتفاهم مع صديقتها في اليوم التالي . ركبنا سيارة اميليا . وجعلنا نسوق في شوارع بيروت طولا وعرضاً . مشينا في الروشة ساعات ، بمحاذاة البحر الهائج . في الليالي الحالكة ، تلذ لنا الاصوات القاصفة ، المتحدية ، المغرية ، الراعبة .

ريح باردة ، ثم مطر . ذهبنا الى ستريو قريب . لم اكن شاهدت ستريو في حياتي من قبل . مظلم فيما عدا بصيصاً من نور احمر يضجّ بموسيقى جاز عنيفة ، عالية ، تصم الآذان . كأنني دخلت رحماً آلياً هائلا . عودة الى الاحشاء . جلسنا في ركن بعيد ، وانا اكاد لا ارى موطئ قدمي . بضعة فتية وفتيات يرقصون . لم نرقص . شربنا . قبّلتها ، مراراً . وفي تلك الليلة لم أنم . ولا في الليالي الثلاث التالية. رجل جديد انبثق في داخلي. ميّت قام من بين الاموات . مدينة القيامة والحياة ، بيروت . كأنني لم أنتزع عن أراضي لي في أبي الخصيب. نخلاتنا اذا جاءها ماء السواقي من شط العرب ، فليأكل رطبها المتدليات من يشاء . الحياة هي المهمّة . اميليا .

الكتمان لا بد منه ، سنة او سنتين . عند عودتي ذهبت الى أبي الخصيب . هذا الفقر كله ، متى سينتهي ؟ من سوف ينهيه ؟
في بغداد ، رسالتان منها .

كانت هناك فترات أشعر فيها باننا ، رغم كل ما ينهش البلد من مساوىء ، مضطرون إلى البقاء في حال من الركود . كنت احس انني اختنق في هذا الركود الآسن ، كل ما اراه واسمعه ليس الا بقبقات سامة تدلل على عمقي الآسن . ثم اشعر انني احترق ، من الداخل . فالانسان قد يبقى بقاء النار فيلتهم من الداخل ، ويتجدد التهامه كل يوم . يجوع العقل ثم يجوع الجلد ، ولا يجد كلا العقل والجلد الا ناراً اخرى من وهم او خيال يقتات بها ويحترق فيها ، ويتجدد احتراقه يوماً بعد يوم ، ليلة بعد ليلة . كان ذهني عندها ينصرف إلى اشياء لا استطيع تحديدها ، إلى شهوات شاردة لعينة . لم افكر يوماً بمفاتحتك في أي من ذلك ، لانك ما كنت تأبهين — او هكذا كنت وما ازال اظن . . لسع الحس . الحس يلسع . من يمرهمه، يبلسمه ؟ ويتجدد اللسع ، كتجدد النار ، ولكن حتام ؟ ويظهر ان في الجلد طاقة لا تحد لتحمل الاسع ، بقدر ما فيه من مسام . ولكن كل لسعة تنتزع صرخة من كل مسامه . هكذا عشت وأعيش صراخ الجلد ، وأنا صامت . يقتلني الصمت . سأذهب إلى بيروت .

رقصتك الليلة الماضية كانت الحكم علي بالموت . ساعدتني في الوصول إلى قراري النهائي . كان بامكاني ان اقتلك البارحة . كيف تحملت واحجمت و « عقلت » ، لست ادري . ربما لانني وجهت

كل شيء بعيداً عنك ، وركزته فيّ . انت يجب ان تعيشي ، مهما يكن من أمر . وأما انا فقد فرغتِ من أمري . كل ما انتظره هو ان تنتهي السفرة ، لأنني لا اريد ان اقيم « هرجة » في السفينة بين عشرات من اناس لا اعرفهم ولا يعرفونني . ولا اريد احداً ان يشمت بي . لقد لقيت الكفاية . ولا اريد احداً ان يشمت بك انتِ ايضاً . لتكن مأساتي الصغيرة وقفاً علينا نحن الاثنين دون الآخرين . سأرسل رسالة إلى اخي في بغداد احمل نفسي فيها كل شيء ، واوصيه بك خيراً . فلا حاجة بك لان تطلعيه او غيره من العائلة على هذه الصفحات . هذه الصفحات لك ، بقدر ما هي لي . لي ولك فقط ، الا اذا وجدت يوماً ان ضميرك ما عاد يتحمل سراً باهظاً كهذا . حينئذ ... اترك الأمر لحكمك .

لمى ، ايتها العزيزة ، كما قلت قبل لحظات ، اننا في عصر الدودة . دود ، دود ، دود . الدودة في كل شيء . يتهالكون ويتكالبون ويتهافتون ، بعضاً على بعض ، كالدود . يتآكلون كالدود . يعيشون ثم يموتون ، كالدود . ليس للجمال من معنى . والحديث عن الحب لا يقنعني ، ولم يقنعني فيما مضى . افرازات كيمياوية ، انتفاضات غريزية ، وتلولب حول الذات : هذا نحن . انت الآن في البار ، وانا اكتب هذه الكلمات بسرعة قبل ان تأتي ، لأنني لا اريد ان اجابهك بها شفهياً . متعب أنا — اريد النوم ، ولا استطيع ان انام . الدودة في قلبي . كما في قلوب الآخرين . متى ، متى سأنتهي ؟ ما الذي ستقولينه عني ؟ « لم يحب شيئاً قط ، حتى ولا نفسه . » أحببت عملي ، أحياناً . أحببتك ، أحياناً . احببت هذه الفتاة الاخرى . ولكن الدودة تغلبت علي . ما الذي سوف تدبرون من أمرها في الايام القادمة ؟

لو اردت وضع يدي في لهيب شمعة ، لما استطعت . ولكن فكرة الفناء ما عادت تخيفني . الألم ، الألم هو الذي ما عدت استطيع مجابهته كل يوم . جرحي العميق في النفس ينزف ، وينتن . لا يحتمل .

الغيرة ؟ ربما .

ولكن الذي أحس به شيء أفظع من الغيرة ، أشمل ، وأعمق ، انه شيء يتصل بالظلام . الظلام كما كان معروفاً في القرون السالفة : اذا ما غابت الشمس حل السواد المخيف في كل شارع ، كل حي ، كل بيت ، وأسرع الناس إلى النوم خوفاً منه . سراج الزيت لم يكن الا بصيصاً ينير طريقاً للجن والمردة ، والسعالى ، ولا يملأ الدنيا الا نباح الكلاب وبنات آوى . هذا ما احسه . الحياة مظلمة . النهار اسود كالموت . السفينة سجن ، قفص . البحر وحش بغيض . الشمس سوداء . وهي هنا ، في قلبي ، في حشاي ، سوداء كعقارب البادية . انها السعلاة . سوداء جامدة تهزأ بكل شيء . حتى بك . حتى باصدقائنا . حتى بوديع عساف . أهي الغيرة ؟ لا . انه الظلام . والنباح يملأ الدنيا .

ببغداد استشرت بعض الزملاء ، وانت لا تدرين ، بخصوص سوداويتي . لم يكن لأحد منهم ان يقول لي بصراحة : انت سكيزوفريني . كانوا يداورون ، ويتكهنون . وكنت اصرف الموضوع بالضحك . فلحظات الصحو لدي رهيبة ، استدل منها على ما هو أرهب في نفسي . يجب ان اشرب او اموت .

سيقولون ، كان جراحاً ناجحاً ، زوجته جميلة (وربما اضافوا : وخليلته جميلة) ، ودخله كبير ، وفي منتصف ثلاثيناته ، اي شيطان اذن اغراه على الانتحار ؟ كانما القضية قضية زوجة ومال ، كأنما الحياة يمكن ان ترتشي بما هو خارج عن قواها الداخلية لتتفادى حتمية كهذه . حدثني وديع عن ازمة في التاريخ وعودة إلى الارض ، وحدثني

محمود عن ثورات قيد الدرس والتخطيط . قضيت عمري باحثاً في مثل هذه الأزمة وهذه الثورات . ولكن انسانيتي كانت دائماً رافضة ، لأنها مبتورة ، مشوهة ، مطحونة ، من الداخل ومن الخارج . ارفض زمن القتل . ارفض زمن الخيبة . ارفض اليأس . وها انا اخيراً ارفض الأمل . تمنيت لو استعلي على البشر،على همومهم، حقارتهم ، قساوتهم ، ولكنني اخفقت . شيء ما يستطرد بي إلى ما أعجز عن ادراك كنهه . شيء شارد ، تحس به الحواس كلها ، ولكنه يراوغها جميعاً . كالزمن . تشعر به ولكنك لا تستطيع الامساك به أو حفظه . وهو مع ذلك يلتف حولك ، ويلازمك ، ويداعبك ، ويقهرك ، إلى ان تبلغ آخر مداك : التراب . كل ما عدا التراب اكذوبة وراء اكذوبة . احاول تعيين ذلك في كلمات مدونة ، ولكن حالما تحيط به قضبان الكلمات ، يتضاعف الغمام فيه ، وما كان دفقاً من الدم يصبح نفثات سوداء تقول لي في النهاية : انت واهم . لو كنت مجابهاً بمجرد خيبة ، لتغلبت عليها . من الحقارة ان انهي حياتي لمجرد خيبة . في الدم ما هو أعمق ، وأشد جوراً ودفعاً . هذه هي الأزمة الحقة . وهكذا أقتلعها .

ان تقبل بالعيش صامتاً في عصر الظلم ، فانك انت ايضاً تمارس الظلم . واذا كانت الطرق كلها تؤدي إلى طاحونة الظلم ، أين تولي وجهك ؟

إلى ل

هذه كلمتي الأخيرة .
لم أذهب إلى كابري . ذهبت مع اميليا إلى المدينة . وفي المقهى ،

حيث كنا نتناول طعام الفطور، رأيتك – كما كنت اتوقع – مع عصام . عندما رفضت الذهاب إلى كابري بحجة المرض ، لم يكن يخفى علي ما تضمرين . ولكنك ايضاً ، دون ان تعلمي ، هيأت لي فرصة اخيرة للاختلاء باميليا . من بين السيارات واللوريات رأيتكما انت وعصام ، تبتعدان . لم يبق شيء بعد الآن ، سوى قليل من الظلام . لا تقسي على اميليا . ساذكر من احبني ساعة ضعفي وساعة سقوطي ، ان كان ثمة مجال للذكرى .

كنت اود لو ذهبنا إلى أمالفي وسورنتو . ربما غداً . ولكن الساعة قد ازفت ، ومن السخف ان اماطل اكثر . عجيب . هذه اول مرة استطيع ان اقول فيها صادقاً : اني اشعر بارتياح . بضع حبات ، وينتهي كل شيء .

دود ، دود –

لم تكن مها لتأتي إلى نابولي في يوم أتعس من ذاك . وما حسبت انه سيكون يوماً من الفرح يشاركنا فيه اصدقاء السفينة على الأقل ، طلع علينا نائحاً من اوله ، يحمل شمساً مثقلة بالصدمة والفاجعة .

لن ادعي انني لم انم طيلة الليلة السابقة توقعاً لمجيئها . فبعد ان تركت مائدة الورق ، وتمنيت لفالح والآخرين ان يصبحوا على خير ، أويت إلى فراشي وانا اتحدث إلى فرنندو عن سفرتنا إلى كابري ، ثم نمت نوماً طيباً حتى الصباح . فباستطاعتي ، بعد خبرتي الطويلة مع عقيدات الحياة ، ان أقصي القضايا الخطيرة عن وعيي ، حتى لحظة تلجابهة ، فأجابهها عندئذ بذهن صاف وأعصاب باردة . لقد تقصدت ان اقصي مها عن تفكيري طوال تلك الايام ، حتى كاد اسمها الا يستحضر شيئاً في ذهني . فاذا ما جاءت بعد ذلك ، رأيت كل شيء في ضوء جديد . ان في قرارة نفسي ثقة ما بأن هذه المرأة ، مهما فعلت ، واينما توجهت ، هي المرأة التي سأعود في نهاية المطاف

اليها . ولئن كنت حسبت في اول السفرة انني خلعتها عني خلع المعطف القديم ، فان المعطف هو معطفي ، ولن اشعر بالدفء الا اذا عدت اليه ولبسته من جديد . لم لم انصرف عن جاكلين اذن ؟ لانه لم يكن بي حاجة إلى الانصراف عنها . بل انها كانت ضرورية لي في السفرة ، في النزول إلى الموانىء ، في التجوال في الاماكن التي زرناها وكتب السياحة بين ايدينا . بجاكلين ، كما بعصام والآخرين ، كما بركاب السفينة كلهم ، كنت اطهر روحي من خطيئتي مع مها — أو خطيئتها وخطيئتي معاً . فاذا ما التقينا في نابولي — هذا اذا لم تبرق إلي لتلغي برقيتها الاولى — أتيتها عاشقاً جديداً ، عاشقاً امحت صفحاته السابقة ، وعاد بكراً نقياً .

هل كنت اموه بذلك على نفسي ؟ لا اظن . كنت أبغي من مها ان تكون صخرة من صخور القدس : صخرة أبني عليها مدينتي . طبعاً ان لم احدثها بمثل هذه الرموز التي تنغلق أحياناً حتى علي . ولكن ذكرى فايز كانت طرية دائماً في نفسي — كأنه لم يقتل قط ، فالارض التي عشقناها معاً ، ونحن نذرع طرقات القدس والقرى المحيطة بها جيئة وذهاباً ، أياماً وليالي ، ما زالت تمثل كل شيء احببناه ، كل شيء احبه . فيبقى الماضي والحاضر ملتفين متداخلين فيها ، كلاهما حي ، كلاهما يشير إلى الآخر . ومها ، بعد غربتي لسنوات طوال ، أخذت مكانها شيئاً فشيئاً من هذا التداخل والالتفاف في كل ما أحب . فاذا غضبت عليها كنت كمن يريد اقتلاع رجليه من تراب أرضه : كنت اريد الهرب من كل ما يبهظني وينهكني بالحب والحلم والتوق — والخيبة . كنت ادرك عندها كيف يمكن للانسان ان يقتل من يحب .

والمرات القليلة التي تشاجرنا فيها انا ومها كانت كلها محاولات خطيئة من هذا النوع : وفي كل مرة كان لا بد لنا من عودة — عودة إلى الصخر . البحر مهما عشقته غريب عني . الجزر كلها ، مهما

تمتعت بالتجوال فيها وبينها ، ليس فيها مستقر لنفسي . لا بد لي من عودة إلى الأرض . يولسيس كان ابرع منا جميعاً في الابحار والتجوال ، ولكنه كان مثلنا انما يهرب ليبلغ في النهاية ما يستطيع ان يغرز فيه قدميه : ويقول : هذا ترابي . ألم تخيره الفاتنة كالبسو ، وهو في أمس حاجته إلى الراحة من وعثاء السفر وويلاته ، بين البقاء في الجزيرة معها خالداً كالآلهة ، وبين عودته بشراً فانياً إلى أرضه ؟ غير انه رفض الخلود واختار العودة إلى ارضه . سترى مها ذلك ولا ريب . فلتكن جاكلين ، او اية امرأة اخرى ، كالبسو ثانية . الفناء مع الارض في النهاية أطيب وألذ وأعمق . حالما ترى مها ذلك سينتهي الفصام بينها وبين ما احب . سيتحد الشقان ثانية كما يجب ان يتحدا . سأحملها الى ارضي ، وأحرث كلتيهما .

مسكين فالح . مما علمته اليوم ، وما علمته مما حدثني به في الايام القليلة الماضية ، لا أرى مأساته الا في اطار من هذه الارض التي وقع الفصام بينها وبينه . لقد شعر انهم يضربون بالفؤوس جذوره ، يضربون بالحاح ، ووحشية ، وعتو ، فحنق ، وصاح ، وقاوم ، ورأى نفسه اخيراً كالجذع المقطوع ملقى على أرض آبائه واجداده . لعلني لا اقول هذا الا لعلمي الآن بانتحاره ؟ لعله كان أقوى واصلب من ان تقطع جذوره ، مهما اشتد وقع الفؤوس عليها ؟ لعل انتحاره كان انتصاراً على الذين رفعوا الفؤوس في وجهه ؟ مهما يكن الامر ، فانني شعرت بخسارة هائلة لانتحاره . رغم ايامنا القليلة معاً ، فقد بدت الحياة اليوم وكأنها فقدت جزءاً رائعاً من كيانها ، حتى بالنسبة الي ، وانا انتظر قدوم مها من روما . لقد جزعت كثيراً على لمى . ومع ذلك ، فقد ادهشتني رباطة جأشها ، وهي تستجوب عن زوجها من قبل المحققين الذين وفدوا بسرعة إلى السفينة . كان جمالها على اشده : صارماً ، حزيناً ، صامتاً ، في بشرتها السمراء تألق خطر ،

وعيناها الواسعتان بحران من ظلام يغرق الناظر فيه . حتى في تلك اللحظات احسست كأنها تتحدى من ينظر اليها ان يقول : سأنساك حالما اصرف عنك عيني . ولكن ليس لها ما تعطيه ، كممثلة نسيت دورها وبقيت واقفة على الخشبة ، ليس لها الا وجهها وقوامها . كوردة بلا رائحة (يقولون أجمل الورود لا رائحة لها .) كقصر من رخام أبوابه ونوافذه مشرعة ، لا ترى من خلالها الا خواء يرصعه صقيع شتاء مثلج طويل . هل هذا ما اكتشفه فالح فيها ، فلم يجد الدفء الذي كان يهفو اليه كلما وجد نفسه عارياً وسط زمهرير عاصف ، يملوءه عواء الذئاب والكلاب ؟

ولكن عصام رأى فيها غير ذلك . كان يهرب منها ويسعى اليها في وقت واحد. لسنين عديدة كان يدور في دوائر مفرغة ، تماماً كما كان يهرب من ارضه التي لولاها لما كان شيئاً . ترى هل كان لعلاقته بلمى صلة مباشرة بالانتحار ؟ اقل الصلة ، ولا شك ، اذا كانت اوراق فالح هي الدليل . لقد ازعجني ان اذكر ما قاله محمود قبل ايام من انه يشم من كلام الطبيب رائحة الانتحار . ان كان مصيباً ، فلا احسبه ، على كل ، مصيباً في تعيين السبب .

وحدها اميليا كانت تبكي . لقد احمرت عيناها وانفها من دمع لا ينقطع . « لن تعرف كم كنت احبه يا وديع . لن تعرف . مها وحدها تعرف . ستأتي اليوم لترى موتي انا ... »

— لم لم تخبريني منذ البداية ؟

— كيف كان لي ان اخبرك وانت ايضاً واحد منهم .

— ممن ؟

— اوه ، من الذين لن يوافقوا ...

— ومها ؟ هل تعلم حقاً ؟

— كل شيء . منذ اكثر من سنتين . هي التي عرفتني به .

– مها ؟ متى ؟ كيف ؟
– في حفلة عشاء ، اقيمت في احد المؤتمرات الطبية في بيروت . عرفتني به ، وتركتني . كانت تحدثني عنك كلما جئت اليها من الكويت . وكنت احدثها عنه كلما جاءني من بغداد .
– ولكن ، اميليا ، هل كان ... بينهما .. اعني بين مها وبين فالح أية علاقة ؟
– لا ، لا أظن . والا لما كنت اجرأ على البدء بعلاقتنا . لا اظن انه رآها قبل ذلك المؤتمر او بعده ...
وضحكت للمفارقة ، للسخرية ، في ان يكون هذا الغريب عني رجلا له في الواقع علاقة بحياتي ، مهما تكن ، دون ان ادري . هل لعصام ايضاً علاقة سابقة بحياتي ، دون ان ادري ؟ ما الذي جمعنا في هذه السفينة ؟
سألت اميليا : « كنت اذن على اتفاق مسبق مع فالح ؟ »
– اتفاق ؟ على ماذا ؟
– على اللقاء في السفينة ، رغم مجيئه مع زوجته ؟
– طبعاً . رتبنا الامر سوية .
– ولكنك رتبت امرك ، كما قلت لي ، مع مها ؟
– نعم . بعد ان كان فالح قد اخبرني باسم السفينة التي سنسافر فيها .
– رائع ! مجيئي أنا على هذه السفينة كان بترتيب من مها ، بترتيب منك ، بترتيب من فالح ! هائل ! هكذا تكون الصدف في الاسفار البحرية الجميلة ! وفالح ، ترى كيف اختار هذه السفينة ؟
فابتسمت اميليا بين دموعها .
– بترتيب من لمى .
فصرخت : « لا ! هذا كثير ! »
واستمرت : « ومما ارى الآن ، فاني واثقة من ان لمى قررت

السفر فيها لانها كانت تعلم ان عصام قد حجز لنفسه مكاناً فيها ! »
انها تغالط نفسها ، ويلذ لها ان تتصور ضرباً من المؤامرة على فالح .
طبعاً كنت على علم بما بين لمى وعصام ، ولكن ادهشني ان ارى اميليا تعود بوجودنا كلنا في السفينة إلى توقيت منشأه رغبة مهندس عراقي يدعى عصام السلمان في قضاء بضعة ايام على البحر بعيداً عن بلاده ، في طريقه إلى منفى بعيد ! غير ان اميليا كانت جادة فيما تقول .
كانت دموعها في انهمار صامت مستمر ، وهي تخرج اوراق « الكلاينكس بين الحين والحين من حقيبتها لتجفف خديها ، وتفرغ أنفها . ومن بين دموعها سألتني : « متى ستصل مها ؟ » قلت : « ارجو الا تتأخر كثيراً . اشعر بضياع هائل . »

— وجاكلين ؟

— أظن انها نزلت إلى نابولي .

واذا هي تخرج من حقيبتها رسالة وتقول :

« اتدري بهذه ؟ رسالة من فالح . تركها لي قبل انتحاره . »

كان عصام قد اعلمني بها ، عندما أطلعني على اضبارة الاوراق التي تركها فالح تبريراً لانتحاره . كنت قد رأيته لدقائق قليلة قبل ان ينشغل مع ربان السفينة ومسؤوليها والمحققين العدليين ، عوناً للمرأة التي أصبحت الآن مسؤوليته . وقد خيل الي عندها ان شفته السفلى وارمة ومجرحة . ولما سألته عن سبب ذلك ، قال : « سأخبرك يوماً . » ولم يخف علي ان ليلته لم تكن بريئة ، وان تلك جراحات الحب اخيراً تجلت على جسده . غير ان جراحات الحب من شأنها دائماً ان تطالب باكثر من جسد واحد تنحفر فيه .

سألت اميليا : « هل في الرسالة أي كشف عن سر أو حقيقة قد تفيد المحققين ؟ »

فنشجت بعنف والرسالة ترجف بين اصابعها : « ماذا تظن ؟

بضعة اسطر يقول فيها : وداعاً . أحبك .. »

وعندما مر بنا محمود ، ووراءه يوسف حداد والطالبة المصرية ، بدا لي انه هو ايضاً مضطرب حزين . وبادرني بقوله : « اما قلت لك انه سينتحر ؟ ... »

« المهم ، اسباب الانتحار ، » قلت .

– ألم يترك اوراقاً ، او وصية ، او ...

– بلى . قرأتها بسرعة .

– الاسباب ، ادن ؟

– معقدة جداً .

– بانتحاره ، يخيل الي ان فئة كاملة من المجتمع تنزاح عن مسرح حياتنا .

فقلت محتداً : « نعم ، تلك الفئة المفكرة التي تتحدى سيف الظلم بصدرها . انها في زوال سريع . »

– لا ، لا . ليس هذا ما قصدت . عالمنا في انقلاب هائل ، وهذا بعض اعراضه .. ولكن هل تدري ما الذي يتقول به المسافرون ؟ يقولون انه رأى زوجته في حضن رجل في مقدم السفينة ليلة البارحة . فانتحر .

– كلام فارغ . انظر كيف ان اميليا لا تستطيع وقف بكائها .

هز رأسه بكآبة عجيبة وقال : « لو تدري يا وديع ... لولا اميليا لما كنت اليوم على ظهر هذه السفينة . »

– حتى انت يا محمود ! مستحيل !

ولكنه لم يفقه ما رميت اليه . لم يدرك انه هو ايضاً دفعته مشيئة شاب لم يكن قد سمع باسمه إلى ركوب البحار . قال « وماذا استفدت ؟ شغلت نفسها عني بعصام – واذا بها تبكي على الطبيب ... الطبيب ، أترى العجائب ؟»

– الم تقل انك انصرفت عنها منذ زمان ؟

فاجاب ببؤس : « حاولت ، حاولت . أنا اشقى الناس . حتى طالبتي المصرية تحولت عني إلى يوسف . » وفجأة تلفت حوله وصاح : « يوسف ! عفت ! »

فاقتربا منا ، ومحمود يقول : « أنا سيرانو ، ولا ينقصني الا الانف الكبير ! أتعرفين سيرانو دي برجراك يا عفت ، ام انه كان قبل زمانك بكثير ؟ »

فاستضحكت عفت وقالت : « ولكن يوسف هو الذي ينظم الشعر ! »

– ينظم شعراً حراً ، ويحتمي بظهري ازاءك وانا اروي الشعر المقفى ! وما كدت اثير اهتمامك حتى ... هيا اعترف يا يوسف ! هذا دائماً نصيبي من النسوة يا وديع ...

فقلت : « ومن السياسة ؟ »

فتح عينيه وراء العدستين الكبيرتين المتألقتين في شمس الضحى ، ورفع يداً يكسوها الشعر ، ممدودة السبابة ، وقال : « السياسة بحث آخر . »

– نمر العجمي ، مثلا ؟ أراك لا تتكلم عنه . ما الذي صار منه ؟

– هرب الكلب . هربوه . انزلوه من السفينة عشية وصولنا إلى الميناء . بحثت عن البحار اليوناني المزعوم في السفينة كلها ولم اجده .

– هكذا ؟ بهذه البساطة ؟

أجاب بصوت منخفض ، كأنه لا يريد عفت والآخرين ان يسمعوه : « الأمر أعقد مما تظن . لا بأس ، لا بأس . جولاتنا في اولها . »

لم يكن من العسير ان احكم ان محمود ما زال « مسطولا » تحت تأثير ازمته النفسية ، رغم تظاهره بالشفاء . كانت شفته السفلى

الغليظة ترتجف قليلا ، وهو يصطنع الابتسام ، ويلتفت إلى الفتاة السمراء ذات الاقراط الخضراء المستديرة :

« ما الذي صب يوسف في اذنك من هذيان هذا الصباح . »

« هذيان ؟ » قالت عفت واطلقت من بين اسنانها البيضاء ضحكة رنانة . « قال انني ملكة النساء ! ولكنه متشائم كبير ، لا يؤمن بان اللقاء ممكن بين الناس . »

فاوقفها يوسف صائحاً : « لا تفضحيني ، انا في عرضك ! » واستدار نحوي . « كلما نطقت سطراً حفظته في الحال هذه الفتاة ! » وضغط على ذراعها .

فتماصت من قبضته بدلال وقالت : « هل تظنني ادرس التمثيل عبثاً ؟ كما قلت : هذا المحب لا يؤمن ان اللقاء الحقيقي ممكن .. »

قلت : « دون جوان يحاول الهرب من الجحيم ؟ »

فقال محمود : « بل يحاول البقاء فيه . هذيان ، على كل حال .. الشعر ، اذا لم يعبر عن صراع ...»

فقال يوسف : « أمرك يا سيدي . قصيدتي القادمة ستكون بالضبط كما تريد . »

كانت عفت في اثناء ذلك تبدي امارات التحرق لتلاوة قصيدة يوسف . « اسمعوا الكلمات التي اهداني اياها هذا الصباح . »

محمود : « اعرف ما الذي سيقول : ضحكة النيل على شفتيك في قلبه الجبلي تحفر انفاق الشهوات ... أو ما اشبه ذلك . »

عفت : « لا يا حبيبي . اسمع . هكذا يغازلني :

هل لنا ان نتقارب حتى
نقول إن الذي بيننا
هو الآن الهوى
به الأرواح كالراح تتمازج ؟

خرافة !
أنجم نحن ، يسبح كل في فلكه
وما يرى البعض منا
من بعضنا ليس الا
ألقاً يومض دوماً من بعيد .
تقارب دون لقاء .
والفم على الفم انما
وميض لوميض.
من فلك عبر الفضاء إلى فلك .
ولن يكون اللقاء الا
من شذوذ في سنّة الكون —
صداماً ينتهي بالكوكبين
إلى فناء ... »

لبضع ثوان وقع بيننا صمت مطلق ، مشاطراً في الشذوذ من سنة الكون . وحولنا تتصاعد اصوات المراكب ، وضرب الموج المكرور ، وصيحات نائية لعلها موجهة الينا من عوالم أخرى . ظللت انظر إلى الرصيف عبر حاجز السفينة ، في انتظار وميض اميزه عن كل وميض : مها . مها ، أين انت ؟ ولكن فالح ، هل انتهت به سنّة الكون إلى صدام ؟ مع من كان صدامه ؟ مع نفسه ؟ وعصام ، هل اومض من فلكه إلى لمى ، ليجد ان اللقاء وهم ؟ أم ان الشذوذ في سنة الكون احتضنه هو ايضاً ؟

شعرت اننا نعبث ، وفالح قد جاؤوا ليأخذوه إلى المشرحة في احد مستشفيات المدينة . حملوه على نقالة ، يكسوه شرشف ابيض ، ونزلوا به من السفينة بحذر إلى سيارة اسعاف كانت تنتظرهم على الرصيف . وبينما تجمع عدد كبير من الرجال والنساء يتساءلون

ويدهشون ويتأسفون لما يرون ، بقيت اميليا تراوح وحدها قرب أحد قوارب النجاة . والدقائق تمر ثقيلة ، مرهقة . وعفت تبتعد أخيراً بيوسف ومحمود نحو سلم السفينة . أنجم نحن ، يسبح كل ... لقد كادت السفينة تفرغ من ركابها . والبحر يشتد وهجاً وبريقاً تحت الشمس القائظة .

تلك هي مها ! تلبس فستاناً ابيض وبيدها حقيبة بيضاء ، تسأل أحد الملاحين على الرصيف عن السفينة ولا ريب . مها ! مها ! صحت بأعلى صوتي ، ولوحت بيدي . وسمعتني ، ورأتني . ونزلت الدرج القلق بسرعة .

ما أطيبك بين ذراعي . باردة ، حتى في هذا الحر ، ككأس ماء من عين في الجبل . ما اطيب شفتيك ، خديك ، شعرك . ما أطيب جسمك المليء حيث يلذ فيه الامتلاء . مها ، ما لون عينيك ؟ فلاتأكد . سوداوان ؟ كستنائيتان ؟ عسليتان ؟ لا . هذه انعكاسات البحر . « وديع ، ما لك ؟ جننت ؟ اصعد بي إلى السفينة . السفينة التي كنت احلم بها كل ليلة ... بيضاء ؟ نظيفة ؟ لما مدخنتان ؟ ترقصون كل ليلة ؟ وانت تتكلم ، وتتكلم ... أكيد ، وديع ... ام انك لم تجد احداً يصغي اليك ؟ »

تكلمت ، هذرت ، جادلت ، نصحت ، ناقشت ، اكدت ، نفيت ، تذكرت ، طالبت ، حرضت ، حذرت ... أطلق البحر لساني – كالمخدر الذي يهلوس به المرء ...

ما كدنا نصعد إلى السفينة حتى صاحت مها : « اميليا ! » وكان عناق وتقبيل خدود . « ما هذا يا اميليا ؟ اكنت تبكين ؟ »

« مات ، يا مها ، مات ! انتحر ! » وشهقت ، وأجهشت بالبكاء من جديد .

– من ؟

ـ الرجل الوحيد الذي كان يعني لي كل شيء في الحياة .
ظلمنا مها بهذا النعي المباغت الذي لم يكن ليعني لنا شيئاً ـ سوى انها ذات يوم ، منذ اكثر من سنتين التقت بطبيب أعجب بها (لابد انه اعجب بها) ، ولكن صديقتها ، وقد هجرها للتو زوجها كانت أميل إلى الاستجابة اليه . لقد أردت ان آخذ مها بعيداً عن كل ذلك ، لولا ان عطفها على اميليا كان اعمق مما توقعت . فقد اغرورقت عيناها بالدموع في الحال . « كنت احاول تصور لياليكم السعيدة على البحر ... وديع ، هل اعتنيت باميليا ؟ »
ـ وهل كان هناك من لا يعتني باميليا ؟
« ولكنك لم تري لمى ، » قالت اميليا . فاجابت مها : « وهل علي ان اراها ؟ »
رغم توقي إلى النزول إلى نابولي ، فاني كنت قد عزمت على الانتظار ريثما يخرج عصام ولمى من بين ايدي المحققين ، الذين طال بهم التحقيق في غرفة قبطان الهركيوليز . لعلهما يحتاجان إلى مساعدة .
واذا اميليا تخرج من حقيبتها الرسالة التي تركها فالح لها ، وتقول : « اريد نصيحة منك يا مها . الآن ، والقضية ما زالت حارة . » وسلمت الرسالة إلى مها .
قرأتها مها بسرعة . (واكتشفت عندها ان مها اجمل من نساء السفينة كلهن ، وأمرح ، وأعطف ، وابدع صوتاً ، وارشق حركة . غمرتني موجة من الحب والزهو . يداها ! ما اجمل اناملها الطويلة الرقيقة ! وفي الاصبع الصغير من يمناها خاتم العقيق الذي اشتريته لها في احدى زياراتي للبحرين .)
رفعت مها عينين تستفهمان اميليا : « الصك ؟ » فهزت اميليا رأسها ، واخرجت من غلاف الرسالة صكاً ، وقالت : « عشرة آلاف ليرة لبنانية ، مسحوبة على البنك العربي في بيروت . »

لم يسعني عندها الا ان اضحك . « أهذا ما يقلقك ؟ »

– بل يفزعني . لماذا يترك لي عشرة آلاف ليرة ؟ ألا يجب ان امزق الصك ؟

– يتوقف الامر على فحوى الرسالة .

– اقرأها ، ارجوك .

غير انني ، وقد لمحت انها تملأ صفحة كاملة ، قلت : « لا ، يا عزيزتي . هذه امور لك ان تبحثيها مع مها . لا معي . »

أعادت مها الرسالة إلى اميليا ، وهي تقول : « المهم الا تمزقي الصك وانت في هذه الحالة . عندما ينتحر رجل يعشقك كالدكتور فالح حسيب ، لا تبقى اهمية لأمور صغيرة كهذه . »

– ولكن ، هل اخبر لمى ؟ هل اعيد الصك اليها ؟

فقلت : « اسمعي يا اميليا . بعد كل هذا الذي تحملته ، من حقك ان تخفي امراً كهذا عن لمى . ثم انك ستزيدين من ألمها هي ايضاً . لا أظنها ستفرح مهما قلت لها . سواء احتفظت بالصك او مزقته ، فانك في كلتا الحالتين لن تزيدي الا في ألمها ، وألمك . أعيدي الصك إلى حقيبتك ، وانسي الموضوع . »

لم تقتنع اميليا تماماً ، غير انها دست الوريقة بين فكي حقيبتها . اما انا فأخذت يد مها وقلت : « والآن ، تعالي اريك السفينة التي رفضت المجيء عليها . هيا يا اميليا معنا . »

– لا سأنتظر هنا . لديكما الكثير تتحدثان عنه ، بدون مشاكلي .

ولما اصرت مها على أخذها معنا ، رفضت ان تبرح مكانها ، فرحنا نتجول ، ومها تقول : « حدثني عن كل شيء . اولا : هل كنت مخلصاً لي ؟ »

« على طريقتي ، » قلت ، وقبلت خدها ونحن نسير . « اذن لم تذهبي إلى مؤتمرك في روما ، وبقيت في بيروت ؟ »

ـ انت تلهو بين جزر البحر ، وتريدني ان اتقلّى في حر بيروت واتقلب غيظاً في عيادتي ؟ بعد ان ابرقت اليك ذهبت إلى روما ، وحضرت المؤتمر . وهو لم ينته بعد . حتى غد .

ـ مها ، مها ... أمؤتمر آخر ؟ من قابلت ؟ اي طبيب اغريت هذه المرة ، بل كم طبيباً ...

ـ ها ها ! إحزر . وانا اتلهف لساعة وصول سفينتك هذه... أتدري ؟ كلما وجدتني بين اناس كثيرين شعرت بهوة رهيبة تنشق في داخلي ، لا يملؤها الا وجهك ، صوتك ، كلماتك التي لا تنتهي .

ـ تتكلمين كأنك بدأت تحبينني .

ـ بدأت ؟ يا جاحد ، يا خائن . أظفرك الصغير هذا يضاهي مؤتمرات الدنيا كلها .

ـ اذن سنذهب إلى القدس ، ونستقر فيها ؟

ـ وهل غير القدس لي مدينة ، وأنت فيها ؟

ـ اكملي ، اكملي . بدأت احب صوتك انا ايضاً ...

بعد ذلك بحوالي ساعة من الزمن ، التقينا بعصام ولمى وجهاً لوجه . كانا متعبين مجهدين ، ولكنني فرحت عندما وجدتهما يرحبان بمها بحرارة . بل بدا كأنهما ، في وهج هذا اللقاء ، ينتعشان من جديد . لقد انتهى كل شيء . لقد اقتنع المسؤولون بانتحار فالح ، وان كانوا في انتظار قرار أخير من الطبيب العدلي في المدينة .

« هنا تنتهي رحلتنا في وسطها ، » قال عصام .

قلت : « بل هنا تبدأ رحلتنا . »

ولحظت ان مها ولمى تتبادلان النظرات .

فقالت لمى : « الحجت على عصام بان يستمر في سفره إلى لندن ان له وظيفة في انتظاره هناك . ولكنه يصر على مرافقتي ، حتى اعود بجثمان فالح إلى بغداد بالطائرة . »

قلت : « هذا شيء بديهي . »
غير ان عصام تمتم : « وأنا الذي كنت اريد ان اهرب ؟ »
– هنا يا عصام بلغت اسطورتك حدها ، ثم تبددت . انكسر الطوق من حولك ، وما عليك الا ان تخطو فوق الحطام والردم – إلى حيث توجد حريتك .
– في بغداد ؟
– نعم في بغداد . حريتك لن توجد الا فيها . انها لن توجد في الـ « هناك » الضبابي ، الوهمي ، المغري ، في اوربا او غيرها . هناك التلاشي في التفاهة . هناك الهزيمة الحقيقية . أتعلمين يا لمى ان عصام ادعى انه كان هارباً منك ؟ اما انا فأقول انه كان هارباً من مدينته ، من ارضه ، وحريته لن تكون الا في مدينته ، في ارضه . أتسمع يا عصام ؟ في ازقة بلدك، في بساتينه ، في صحاريه . حريتك هي في ان ترفض الهرب ، في ان تجابه ، في ان تقبل بما يعض نفسك ، وفي ان تعرف هذا المضض ، والغضب ، والسعي البطيء الموجع . حريتك هي في ان تكون مهندساً في ارضك – مهما ضاقت بك وتفننت في ايذائك .
وعندها لكزتني مها في خاصرتي ، وهي تضحك . « اما كفاك وعظاً ؟ هل كان يعظ أهل السفينة طوال هذه الأيام يا لمى ؟ »
فقالت لمى : « كنا في الواقع نستدرجه لكي يتكلم ، لأننا نحب صوته . حتى فالح ، قبل يومين قال : كنت مخطئاً في حق وديع . انه بريء كالطفل . يحب كالطفل . يتكلم عن حب، وانا لا اتكلم الا عن – »
وقبل ان تفوه بالكلمة البغيضة ، قاطعتها : « لا عن كراهية ، ابداً ، بل عن غضب . كان فالح اكبر عاشق في الدنيا . عاشق ساخط . ومصير العشاق فاجع دائماً . »

ولاول مرة ذلك الصباح ، فيما اعتقد ، انفجرت لمى باكية بنحيب عال ، أليم . أجلسناها على مقعد ، ونشيجها متواصل على نحو لم اره منذ زمان – منذ رأيت امي تبكي على ابي ، وتقطع شعرها وهي تنتحب . ولعل مها شعرت بالحرج اذ وجدت نفسها ، على غير انتظار ، تقحم في احزان الآخرين . غير انها جاست بجانب لمى ، بينما اخذني عصام جانباً ، والاعياء يشد عضلات وجهه كلها ، وقال : « بالطبع سأعود إلى بغداد مع لمى . ولكن الا ترى ان مشكلتي ما زالت من غير حل ؟ بالنسبة إلي كان انتحار فالح عبثاً ، لم يقدم شيئاً ولم يؤخر . فهو لم يكن غريماً لي ، حتى في زواجه من لمى . كان زواجنا منذ البداية مستحيلا . ألا ترى ؟ ان الموانع الاصلية ما زالت قائمة . »

وعندها احسست بالدم يتدفق إلى رأسي من شدة الحنق ، حتى اني امسكت بعصام من كلتا ذراعيه وهززته هزاً عنيفاً : « اما كفاكم عشائريات ! متى سترضون بمواجهة العاصفة في سبيل ما تريدون ؟ »

– قل ذلك لتلك الباكية هناك ...

قال ذلك عصام ، واتكأ على الحاجز بكل ثقله ، وهو يكاد يسقط ارضاً من الارهاق .

في مساء ذلك اليوم غادرنا السفينة ، نحن الاربعة . نزلنا بامتعتنا قبيل موعد ابحارها بقليل . اميليا آثرت البقاء . رغم كل ما ابدينا من لباقة ، وجدنا ان الجمع بينها وبين لمى ، في تلك السويعات البائسة لكلتيهما ، امر صعب . ولذا فاني لم اصدق عيني عندما وقعت في النهاية احداهما على عنق الاخرى ، باكية ، ومودعة . قالت اميليا : « اتكرهينني يا لمى ؟ » فهزت لمى رأسها بحزن وقالت : « لا يا اميليا . ارجو على الاقل انك استطعت ان تجعلي في حياته المرة شيئاً من حلاوة . » وتعانقتا مرة اخرى .

ثم عانقناها كلنا مودعين ، وقال عصام : « سأكتب لك من بغداد . »
قبلت فرنندو على الخدين ، وتواعدنا على لقاء في بيروت يعزف لي فيه لحناً خاصاً سيؤلفه جعل منذ تلك اللحظة يتردد في ذهنه . وقال سيجعله عربياً ، لان الاسبان ، ولوركا معهم ، كلهم عرب ...
وودعنا الكثيرين ممن كانوا قد عادوا إلى السفينة في هذه الاثناء . غير ان جاكلين اختفت . لم اجدها ، اينما تلفت . من الرصيف لوحنا بايدينا للواقفين على الحواجز . وأجفلت عندما رأيت وراء اميليا نظارة محمود المشعة . وعلى بعد قليل وجه جاكلين الصبياني ، ويدها تلوح تلويحاً خفيفاً ، حذراً .
عندما ركبنا سيارة الاجرة ، قالت مها للسائق بثقة : « إلى فندق الكيرينال . » ثم استدارت نحوي : « وصتني به اميليا . »
قررنا البقاء في نابولي بضعة ايام ، ريثما تنتهي لمى من مهمتها الشاقة ، ونزلنا في الطابق الخامس من فندق الكيرينال — في غرف متفرقة بالطبع . وبعد ساعتين او ثلاث ، التقينا جميعاً من جديد للعشاء . اخبرتني مها ، ونحن نهبط في المصعد من طابقنا الخامس إلى قاعة الطعام ، ان اميليا اعترفت لها انها قضت نهار امس مع فالح في هذا الفندق نفسه ، بل هذا الطابق بالذات ولذا راق لها ان ترسلنا جميعاً اليه !
ضحكت لذلك . ضحكت لاشياء كثيرة لشدة ما فيها من أسى . تذكرت فالح وتمرده على حقارات الناس ، واكاذيبهم ، وظلمهم ، وقسوتهم . تذكرته وهو يرتجف غضباً ، والكأس في يده ، لكل ما يراه في الناس من خيانة ، ويفتح انبوبة صغيرة يلتقم حباتها احتجاجاً وشتيمة . كم من الناس سيرون مذكراته ؟ كم من الناس يعرفون الجانب الآخر من نفسه ؟ كم من الناس يعرفون انه احب اميليا ، ولكنه لم يكره لمى ؟ لقد شط بنا الحديث على العشاء . وكنت دائماً اتوق إلى العودة بالحديث إلى الجانب الآخر من الاشياء — ذلك الجانب

الذي عرفه فالح كما كنت اريد لنا ، انا ومها وعصام ولمى ، أن نعرفه . من خلال العاصفة ، نشوة الجسد . من خلال العذاب ، انتصار النفس . من خلال مجابهة العدو ، كبرياء الرفض . لا يمكن ان ارضى بشيء الا على مثل هذه القاعدة . أن اقول « لا » ، هذا حق أتشبث به باظافري ، باسناني ، وان اقتضى ذلك نزف دمي . ان اقول « نعم » ، هذا كشف اتشبث به ايضاً بالاظافر والاسنان . ففي اعماقي ، اذ امد اليها اصابعي ولو بمشقة من خلال طبقات التجارب السوداء الجارحة ، يكمن ذلك البريء الساذج المحب الغافل — توأم فايز في سنه الخامسة عشرة ، جالساً على عتبة عمارة قديمة ، يأكل الكعكة الصغيرة مع الزعتر ، ويرسم عيون الناس فائضة بينابيع الحياة .

فجأة نظر عصام إلى ساعته ، وهتف : « منتصف الليل ! لقد انتهوا الآن من الرقص على السفينة . »

